شعاع

من المحراب

الجزء الرابع

إعداد

سليمان بن حمد العودة

المرأة والهمة والوقت[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره.

اتقوا الله -عباد الله- حق التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، واحذروا مضلاتِ الفتن فإن أجسامكم على النار لا تقوى.

إخوة الإيمان وسبق لي حديث عن الإجازةِ والوقت، وكان الحديثُ في أصله موجهًا للشباب، وإن جاءت الإشارةُ عرضًا للنساء.. ولقد رأيت أنهنَّ أهل للتخصيص بالحديث.. لماذا؟ لأن النساءَ محصوراتٌ مقصورات، وبالإفساد والمخططاتِ الرهيبةِ مقصودات، وما مؤتمر المرأةِ في بكين فيما مضى وما يُحاك للمرأة حاضرًا ومستقبلًا.. إلا نماذجُ صارخةٌ تشهدُ بالتركيز على المرأةِ بالإفساد، وإذا أفسدت المرأة فقل على المجتمع السلام.. ولا يغيبُ هذا الهدفُ عن اللئام!

لم لا يكون الحديث -بكثرة- عن المرأة، ونحن نسمع بين الحين والآخر عن قانون جديد يُصْدر للمرأة ظاهرُه فيه الدفاعُ عن حقوقِها المنتهكة -فيما يزعمون- وباطنه فيه الهلكة والضياعُ للمرأة لو يعلمون؟! والمصيبةُ حين تصدر هذه القوانينُ في بلاد المسلمين ويعجز البشرُ أن يأتوا بتشريع أعدل وأوفى من تشريع الإسلام للمرأةِ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون.

الحديث للمرأة يكون لأن النساءَ قادراتٌ على العطاءِ والإسهام لفاعل الخير في المجتمع إذا عُلم الدورُ، واستثمر الزمن.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٢/ ٢/ ١٤١٨هـ.

لم لا يكون الحديث خاصًا للمرأة وعددهن في المجتمع كثير ودورهن في الإصلاح كبير.

ويتأكد الحديثُ للمرأة، لأن هناك مَنْ يخاطبها بلهجةِ المصلح المتباكي، والمحرر والمنقذ، والله أعلمُ بما يكتمون؟!

ويكون الحديثُ للمرأة لأن ثمة هدرًا في وقتها، وتقطيعًا لأيامها وسني عمرها سُدي، واشتغالًا بالتوافه ومحقرات الأمور، ونسيانًا أو تناسيًا للقيم الكبرى والهدف من الوجود.

أختاه أنت محل اهتمام الإسلام وتقديره منذ أيامه الأولى، ولا تزال آياتُ القرآنِ النازلة بشأنكن تُتلى، وأنتِ محل اهتمام رسول الله ﷺ ووصيته، وهو القائل: «**استوصوا بالنساء خيرًا**»، ولقد خصَّص للمرأة يومًا للحديث والفتيا - وجاء خلفاؤه الراشدون من بعده يؤكدون العناية بالنساء، وفي «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤١٩) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر عمروَ بنَ حريثٍ رضي الله عنه أن يؤم النساء في رمضان.

أختاه أنت مستودع للخير بما تملكين، ولئن عذرت عن حمل السيف ونكاية العدوِّ، فسلاحُ القلب وقوة التأثير في مجالاتٍ كثيرةٍ تستطيعين، ولقد أبكيت الأئمة، وأنت بالتأثير على غيرهم حرية، وهاك أنموذجًا فاعقليه.

دخل سفيان الثوري رحمه الله على امرأة زاهدةٍ عابدة تُدعى أمُّ حسان فلم ير في بيتها غير قطعة حصير. فقال لها: لو كتبت رقعةً إلى بعض بني أعمامك ليغيروا من سوء حالك. فقالت: يا سفيان؛ لقد كنت في عيني أعظم، وفي قلبي أكبر. يا سفيان من ساعتك هذه أما إني لم أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها. يا سفيان، والله ما أحبُّ أن يأتي عليَّ وقتٌ وأنا متشاغلةٌ فيه عن الله

بغير الله. فبكى سفيان (وحُقَّ له البكاء)[١].

ويعترف العدوُّ -مع الصديق- بأثرك المشهود في نشر الإسلام والدعوة إليه، ويقول (توماس -و- آرنولد): ومما يثير اهتمامنا ما نلاحظه من أن نشرَ الإسلام لم يكن من عمل الرجالِ وحدهم، بل لقد قام النساءُ المسلماتُ أيضًا بنصيبهن في هذه المهمة الدينية[٢].

أختاه.. لقد ذل لك الجبابرة المستكبرون وأذعنوا، وفاق أثرُ إيمانك جبروت الطغاة وإن ظلموا. لم يستجب فرعونُ الطاغيةُ لآسيةَ المؤمنة في شأن إبقاءِ موسى عليه السلام وهو مطلبهُ الأوحد، ومن أجله كان يقتلُ ويستحيي! قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٣].

ويحدثنا التأريخ أن المغولَ مع همجيتهم وشدتِهم على الإسلام والمسلمين تأثروا بالنساء، ويُقال: إن الفضل في إسلام كثير من أمراء المغول -يرجع بعد الله- إلى تأثير زوجة مسلمة.

ويُقال أيضًا: ولا يبعدُ أن يكون مثلُ هذا التأثير سببًا في إسلام كثير من الأتراك الوثنيين حين أغاروا على الأقطار الإسلامية[٤].

أيتها المسلمات.. لا يُستكثر هذا ومثلُه على نساءٍ خالط الإيمانُ قلوبهن، واستشعرن قيمة الحياة، وقدر الزمن. وكم هو البون شاسعٌ بين هذه النماذج

(١) أحكام النساء ص١٤٣.
(٢) الدعوة إلى الإسلام ص٤٥١.
(٣) سورة القصص، آية: ٩.
(٤) توماس، الدعوة إلى الإسلام ص٤٥١، فضل إلهي، مسؤولية النساء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص١٧.

ونماذج أخرى من النساء، الهدفُ الأسمى عندهن غائب، والوقت يضيع هدرًا، الاهتماماتُ عندهن بسيطة، وهممُهن لتقديم الخيرِ لهن ولغيرهن ضعيفة، فتتثاقلُ إحداهُن أداء الواجبات المشروعة، ولربما كانت خطواتها المثيرة للفتنة سريعة.

ولهذا الصنف من النساء يُقال: لابد من التحرر من الوهم، لابد من الاستيقاظ من النوم، لابد من الخلاص من عقدة الشعور بالنقص والرغبة في مجاراة الآخرين إن لم تُحمد سلوكياتُهم، لابد أن يمتلئ قلب المرأة المسلمة ثقة ويقينًا بأنها قادرة على تقديم الخيرِ في مجتمعها الصغير والكبير، وأن بإمكانها أن تدفع الشر عن نفسها وبنات جنسها.

أيتها المؤمنات، وحين يكون الحديث عن وقت المرأة وهِمَّتِها ولا يتسع المجال للتفصيل في المجالات التي يمكن للمرأة أن تستثمر وقتها فيه، فحسبي أن أثير تساؤلات أدع للمرأة فرصة الإجابة عليها، واختيار ما تراه الأنسب منها، وأقول: أيتها المرأة المثقفة ماذا تقرئين؟ وما الهدف مما تقرئين؟ وما الخطوة الأخرى بعدما تقرئين؟ وهل بغير سهم الإسلام تضربين؟ إن الثقافة قد تكون نعمة، وقد تكون نقمة فمن أي الفريقين تكونين؟

أيتها المرأة العاملة: لماذا تعملين؟ وما أثرك في الإصلاح مع زميلات العمل؟ وهل يلازمك الحياء والبعد عن الخلطة بالرجال قدر ما تستطيعين؟

أيتها المعلمة: هل تشعرين بشرف المهمة، وتقدرين الأمانة وحجم المسؤولية؟ ما موقعك في المدرسة؟ وأيَّ أثرٍ خلفت على الزميلة والطالبة؟

أيتها الطالبة: لماذا تتعلمين؟ وبأي نوع من الأدب تتجملين؟ وهل تطبقين ما تتعلمين؟ كيف العلاقةُ مع الزميلات وما نوع الاحترام للمعلمات؟

ربة البيت: هل تتذكرين عظيمَ الأجر فيما تعملين؟ وهل تُديرين شؤون

المنزل، وترعين حقوق الزوج، وتقدرين مسؤولية التربية، ومع هذا يعطر المنزل بالذكر، وتفوح في جوانبه التقوى، ويكون لك قدوةٌ بمن قيل فيها:

فمها يرتل آي ربِّك بينما يدها تُدير على الشعير رحاها

بلت وسادتها لآلىء دمعها من طول خشيتها ومن تقواها

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].



(١) سورة النحل، آية: ٩٧.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أحمده تعالى وأشكره، وأثني عليه الخيرَ كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

أعود للمرأة قائلًا:

أيتها الفتاة البكر: بم تُفكرين؟ وما مواصفات شريك الحياة الذي ترغبين؟ وما نوع الحياة الزوجية التي تأملين؟ وإلام بعد الزواج تتطلعين؟ هل قرأت عن حقوق الزوج؟ وهل لديك عزمٌ وحزمٌ على تربية جيلٍ يسعد أمته ولا يشقيها، ويبني ما تهدم من أركانها؟

أيتها النساء عمومًا، بل أيها المسلمون جميعًا إن الوقت ثروةٌ عظيمة والمغبون حقًا من فرَّط فيها، وإن الحياة تمضي سريعًا. والعاجزون هم أصحاب التمني والتسويف فيها، واسمعوا إلى كلام الحسنِ البصري يرحمه الله وهو يُحذر من التسويف، ويقول: «**إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غد لك فكس فيه (أي اجتهد فيه) كما كست في اليوم، وإلا يكن الغد لك لم تندم على ما فرطت في اليوم**»(١).

ويقول ابن الجوزي: إياك والتسويف، فإنه أكبر جنود إبليس(٢).

أما ابن القيم فيشير إلى صوارف الخير بـ«**لعل**» و«عسى» محذرًا حين يقول: كلما جاء طارقُ الخير صَرَفه بوَّابُ: (لعل) و (عسى)(٣).

---

(١) ١٢٥ طريقة لحفظ الوقت، محمد بن صالح آل عبد الله ص١٣٧.

(٢) صيد الخاطر.

(٣) الفوائد.

إخوة الإسلام إن الكسلَ والتسويف بضاعةُ الحمقى والمفاليس ولذا قيل: تزوج التواني الكسلَ فتولد منهما الخسران[١].

وليس يخفى أن العمر، والعام، والشهر، واليومَ مضبوطٌ بساعات ودقائق وثوان لا تزيد، ولكنك مع ذلك تلحظ البون شاسعًا بين الناس في استثمارها، وكم بنى بها المشمرون قصورًا عالية في الجنان، وكم كانت سببًا لهلكة أقوامٍ ومعبرًا لهم إلى النار، كم شيد فيها أولو هممٍ وأصحابُ عزائم من بيوتٍ للعلم، أصبحت منابر تضيء للسالكين، وكم خملَ فيها ذكرُ آخرين، ومرت عليهم السنون، وهم في ظلمات الجهل يتقلبون، كم أشاد فيها عاملون نشطون من صروح الحضارة ما بقي ذكره في العالمين.. وكم ثرب التاريخ على أمم عاشوا على فُتات حضارات الآخرين؟!

إنه الزمن لك أو عليك، ومن لم يستثمر حياته بالخير وعملِ الصالحات قادته نفسه الأمارةُ بالسوء إلى مهاوي الردى وعمل السيئات، ولا ينفع الندم حين كشف الحساب عند أهل الغوايةِ والجهل، وبطول مُكثِهم وعدم استثمارِ أوقاتهم في الخير يشهد عليهم أهل العلم والإيمان ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[٢].

إنه مشهد غائب حاضر لا يستبعده إلا الغافلون ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

---

(١) ابن الجوزي، المدهش، عن ١٢٥ طريقة لحفظ الوقت ص١٣٧.

(٢) سورة الروم، الآيات: ٥٥-٥٧.

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥، ٦.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١].

أختاه في الإسلام حنانيك أن يضيع وقتك سدى عبر جلسات مطولة لا فائدة فيها، بل ربما حملت نفسك أوزارًا من خلال الحديث المحرم فيها. ووقتك أغلى من أن يضيع في العكوف على سماع أو رؤية أصوات أو مشاهد الفجور والخنا وعمرك أنفس من إضاعته بكثرة النوم. وربما لم تصل الفجر حتى تعالى الضحى، ولربما كان النوم سببًا للخصام مع الزوج للتقصير في الأداء، وضياع الوقت هدرًا، وغدا الأطفال يسرحون ويفسدون، وأنت غائبةٌ لطول موتتك الصغرى.

أختاه! ومن الخطأ أن تعتقدي أن في الذهاب للأسواق بكثرة ما يقطع الوقت، ويجلب السرور والسلوى.. والبيت نِعمَ المستقرُّ لك، وقد قيل لمن قبلك من خيرة النساء: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢].

كما أن من الخطأ أن تظني أن رفع سماعة الهاتف وقتًا طويلًا دونما فائدة تُرتَجى، يجلب السعادة ويمضي به الوقت سريعًا؟!

أختاه! ليس ذلك حصرًا لمواطن هدر الوقت سدى عند بعض النساء. أنت بذلك وغيره أدرى، فاحذري وحذري غيرك من النساء من إضاعة الوقت سدى.

كما أنت أدرى بمواطن استثمار الوقت، وهي من الكثرة بحيث أوصلها بعضهم إلى (مائة وخمس وعشرين طريقةً لحفظ الوقت)[٣] يمكن أن يزاد عليها.

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٣) أبو القعقاع محمد بن صالح آل عبد الله.

إن الخطوة الأولى -لنا معاشر الرجال، ولَكُنَّ معاشر النساء- نحو استثمار الوقت هي الشعور بأهميته، يتبع ذلك خطوة أخرى بالهمة والعزيمة الصادقة، ثم تكون الخطوة الثالثة بالعمل والتنفيذ، مع مراعاة القصد حتى تبلغوا، وطاقة النفس حتى لا تملوا «**عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا**».

أيها الرجال - هذه كلمات وتوجيهات، وإن كانت في أصلها موجهة للنساء، فنحن شركاء في المسؤولية، والمرأة ليست جسمًا غريبًا عنا، فهي (أمٌّ) أو «**زوجة**» أو «أخت» أو «بنتٌ» أو «قريبة» لنا، والله أمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان. وعليكم كفلٌ من مسؤولية البلاغ والنصح والمتابعة، فكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته.

هذا فضلًا عن كون بعض ما جاء فيها يصلح أن يكون خطابًا يوجه للرجل والمرأة على حدٍّ سواء.

اللهم وفقنا لاستثمار أعمارنا بعمل الصالحات، اللهم أيقظنا من رقدات الغفلة واتباع الهوى والشهوات..



العقيدة الحقة .. وما يناقضها[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، خلق فسوى، وقدَّر فهدى، وله الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يفعل ما يشاء، يخفض ويرفع ويقبض ويبسط، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الحكيم الخبير بشؤون أهل الأرض والسماء.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، والمؤتمن على وحيه، والنموذج الأمثل للرضا بما كتب الله وقدر.

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بلزوم تقوى الله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٤].

أيها المسلمون متقرر عند العقلاء أن الله خلق هذا الوجود لحكمة بالغة، وأن

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٤/ ٣/ ١٤١٨هـ.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣١.

(٣) سورة النساء، آية: ١.

(٤) سوره آل عمران، آية: ١٠٢.

ما يقع فيه من الخير والشر بمشيئته وإرادته، كونًا وقدرًا، أو شرعًا ودينًا، ومتقررٌ عند العلماء أن معنى التوحيد: «**أن يشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يُدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر الملك -ظاهرًا وباطنًا- غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات، ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه وأحاطت بها قدرته، ونفذت بها مشيئته واقتضتها حكمته**»[(١)].

أيها الناس أن امتلاء القلب بهذه الحقيقة الكبرى لا يدعو إلى الكسل والتواكل والتراخي والتقصير في آداء الطاعات والواجبات.. اعتمادًا على التقدير الأزلي، والربوبية الشاملة لحركة هذا الكون ومن فيه، فذلك فهمٌ سلبي لمعنى التوحيد. وإنما يدعو التوحيد الحق إلى العبودية الحقة المشتملة على الطاعة والتسليم، والقيام بحقوق الخالق من المحبة والتعظيم وإفراده بالألوهية والعبادة الخالصة، وانشراح الصدر لفعل المأمور والبعد عن المحظور.

إن التوحيد الحق دعامة الإيمان، والإيمان الحق قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح.

وبالإيمان والتوحيد يستشعر المؤمن السعادة الحقة في الدنيا، قبل أن يصل إلى السعادة الكبرى حين يلقى الله، وهو راضٍ عنه. يعمل المسلم جهده في سبيل الخير، وإن كانت الأمور مقدرةً في علم الله من قبل، فهو لا يعلم قدر الله من جانب، وهو من جانب آخر يعمل بوصية المصطفى ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له..**».

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين ٣/ ٥١٠.

وهو يتلو كتاب ربه، وفيه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

عباد الله! هناك نوع من الإيمان تجرى عليه الأحكام، وتقسم به المواريث، ولكنه لا يمنح صاحبه سعادة في الدنيا، ولا ينفعه في الآخرة، ذلكم هو إيمان المنافقين والمرائين الذين يظهرون للناس خلاف ما يبطنون.

أما الإيمان الذي يحقق لأصحابه السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة، فهو الإيمان الحق، الذي يتفق الظاهر فيه مع الباطن، وهذه علمها وحكمها عند علام الغيوب، وسوف يكشف المخبوء، يقول سفيان الثوري، وابن المبارك رحمهما الله: «**الناس عندنا مؤمنون في المواريث والأحكام، ولا ندري كيف هم عند الله ﷻ**»[1].

فإياك إياك يا عبد الله! أن تغتر بستر الله عليك، وإياك أن تتخذ من غفلة الناس عن حقيقتك مزيدًا من التمادي في المخادعة والنفاق والسير في طريق الضلال؟

إخوة الإسلام! وفي حال غُربة الإسلام تتغير المفاهيم، وتختل الموازين، ويظن أقوامٌ أن مجرد تصديق اللسان يكفي للإيمان حتى وإن كان القلب شاكًا فاسدًا، وحتى لو كانت الجوارح تعبُّ من الفساد عبًا، وحتى وإن ضُيِعَّتْ الواجبات، وانْتُهِكَتْ المحرمات.

ذلكم فكر الإرجاء، ومعتقد المرجئة: أنه لا يضر مع الإيمان معصية. وعكسهم الخوارج الذين يكفِّرون بالكبيرة.

---

(١) السنة للخلال ٣/ ٥٦٧، والإبانة لابن بطة ٢/ ٨٧٢ عن نواقض الإيمان؛ د. العبد اللطيف ص٢٩.

وأما أهل السنة والجماعة فوسط بين الغالي والجافي. يقول أئمتهم: إن الإيمان عمل الجوارح. فكما يجب على الخلق أن يصدقوا الرسل عليهم السلام فيما أخبروا، فعليهم أن يطيعوهم فيما أمروا، فلا يتحقق الإيمان بالرسول مع ترك الطاعة بالكلية.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[١].

ويقولون: إن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب ولازمةٌ لها، فالقلب إذا كان فيه معرفةٌ وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يختلف البدن عما يريده القلب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب..**»[٢].

إن الإيمان الحق يحدث خشية في القلب، تسري على الجوارح؛ فتصلحها فتنشط لعمل الصالحات.. وتتورع قدر الطاقة من فعل المحرمات، وإن ضعفت ووقعت في شيء من المحظورات ندمت، واستغفر صاحبها ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣]. أو زاد من فعل الحسنات: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[٤].

وإذا صح الإيمان وحيا القلب تعلق العبد بالله تعلق المضطر المنيب المنكسر المسكين، وأحدث له من الأثر ما تحمد عقباه عاجلًا وآجلًا.

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٤.

(٢) الفتاوى ٧/ ١٨٧، ٥٤١، ٢٢١.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٠.

(٤) سورة هود، آية: ١١٤.

يقول الإمام ابن القيم يرحمه الله: «**ولا يزال يضرب هذا القلب السليم على صاحبه، حتى ينيب إلى ربه، ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المضطر، الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه، والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن ويأوي، وبه يفرح وعليه يتوكل، فإذا حصل له هذا سكن وزال اضطرابه، وانسدت تلك الفاقة. إن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبدًا. وفيه شعث لا يلمُّه غير الإقبال عليه، وفيه مرضٌ لا يشفيه غير الإخلاص له، فحينئذ يباشر روح الحياة، وإذا تعلق القلب بالله استغنى به عن كل ما سواه فيستغني عن المخلوقين ويعظم ربه**»[١].

يا أخا الإيمان! إذا أردت أن تمتحن قلبَك أسليمٌ هو أم مريض فانظر مدى تعظيمك لخالقك وقدره عندك، والله يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

وتأمل خشوعك في صلاتك، فهي من علائم الإيمان ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[٣].

قال العارفون: وإذا كبرت أيها المصلي فلا يكذبن قلبُك لسانك، لأنه لو كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر، بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى، فإذا استعذت فاعلم أن الاستعاذة هي ملجأ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغوًا، وإذا ركعت فاستشعر التواضع، وإذا سجدت فاستشعر الذل بين يدي الله، لأنك

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٧١.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٧.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ١، ٢.

وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود في التراب الذي خلقت منه، واعلم أن أداء الصلاة بهذه الكيفية سبب لجلاء القلب من الصدأ..[١].



(١) إذا صح الإيمان، عبد الله السلوم ص٦٠، ٦١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أحمده حمد الشاكرين الذاكرين، وأتوب إليه وأستغفره وأسأله المزيد من فضله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين.

إخوة الإسلام..

أما تعظيم الرسول ﷺ ومحبته فتكون بطاعته فيما أمر واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

ولابد أن يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه وأهله وماله وولده والناس أجمعين: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[(١)].

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

ولكن هذه المحبة مضبوطةٌ بضوابط الشرع، لا ينبغي أن يتجاوز المحبُّ فيها حدود الله، ولا يصرفه شيئًا من أنواع العبادة: كالدعاء والاستغاثة والنذر والتوكل ونحوها لغير الله.

وتلك مزلة غلط فيها قوم، فغلوا في حبهم، وتجاوزوا المشروع في تقدير النبي ﷺ، وقال قائلهم ظلمًا وعدوانًا.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٤.

يا أكرمَ الخلقِ مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادثِ العممِ
ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلى باسم منتقمِ
فإن لي ذمةً منه بتسميتي ... محمدًا وهو أوفى الخلق بالذممِ
إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلا فقل يازلة القدمِ

وجرى آخر في شركه حتى قال:

وحُلَ عقدةَ كربي يا محمدُ مِنْ ... هَمٍّ على خَطَراتِ القلبِ مُطَّرِدِ
أرجوك في سكرات الموتِ تشهدُني ... كيما يهون إذ الأنفاس في صُعُدِ
وإن نزلت ضريحًا لا أنيس به ... فكن أنيسَ وحيدٍ فيه منفردِ

وقال بعضُهم زورًا وبهتانًا:

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي ... يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذُ لما أخشى ضرورته ... وأنت لي ملجأٌ من حادثِ الدهرِ

إلى قوله:

وامنن عليَّ بتوفيق وعافية ... وخير خاتمةٍ مهما انقضى عمري
وكفَّ عنَّا أكفَّ الظالمين إذا امتدت ... بسوءٍ لأمرٍ مؤلمٍ نكري
فإنني عبدُك الراجي بودك ما ... أمَّلتُه يا صفي السادة الغرر

قال بعض العلماء: فلا ندري أيَّ معنى اختص به الخالقُ تعالى بعد هذه المنزلة، وماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث لخالقه من الأمر؟[(١)].

معاشر المسلمين! هذه نماذجُ من شركيات وغلو في جانب الرسول ﷺ، كانت ولا تزال تتكرر في مناسبات المولد المزعوم؟

ويتجاوز المادحون فيها حدود الشرع والعقل، وما هي إلا بدعٌ ابتدعوها

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص١٨٧، ١٨٩، ١٩١.

وسَنَّها أصحاب المللِ والنحلِ والطرق الصوفية، فراج سوقُها عند طوائفَ من المسلمين، ظنها البعضُ منهم عبادةً وقربة، وهي منكرات وشركيات مبتدئة. ومن عجب أن هؤلاء المادحين وأصحاب الأعياد البدعية لا يكاد بعضُهم يعرف النبي ﷺ إلا بهذه المناسبة، وهم أجهل الناس بسنته، وأزهدهم في هديه، فصار حظُّهم منه ﷺ وهم أجهل بالأشعار والقصائد والغلو الزائد، مع عصيانهم له في أمره ونهيه.. وذلك نوعٌ من تلاعب الشيطانِ بالإنسان، نسأل الله السلامةَ والعافية لنا ولإخواننا المسلمين.

أيها المسلمون لقد حَمى المصطفى ﷺ حمى التوحيد، وسدَّ طرق الشرك، وهو القائل للوفدِ الذين وفدوا عليه، وقالوا له: أنت سيدُنا، فقال: «**السيدُ اللهُ تبارك وتعالى**»، قالوا: وأفضلنُا فضلًا وأعظمُنا طَوْلًا، فقال عليه الصلاةُ والسلام، «**قولوا: بقولِكم أو بعضِ قولِكم ولا يستجرينكم الشيطان**»[(١)].

ونهى وحذر عليه الصلاة والسلام أمتَه قبل موتِه من إطرائه والغلو فيه فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا عبد الله ورسوله**».

ومستقرٌ عند العلماء أن: «**من الشرك أن يستغيث المرءُ بغير الله أو يدعو غيره، قال الله تعالى**: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ

---

(١) رواه أبو داود بسند جيد (تيسير العزيز الحميد ص٦٦٢).
(٢) سورة الرعد، آية: ١٤.

لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١].

قال شيخ الإسلام: **من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم، ويدعوهم ويسألهم كَفَر إجماعًا**. ونقله عنه غير واحد من أهل العلم مقرين له.

وقال ابن القيم: **ومن أنواع الشرك طلبُ الحوائجِ من الموتى والاستغاثةُ بهم، والتوجهُ إليهم، وهذا أصل شركِ العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلًا لمن استغاث به، أو سأله أن يشفع إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوعِ عنده، فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمالُ التوحيد..**»[٢].

عباد الله إن صحةَ المعتقد شرط في المغفرةِ ودخول الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[٣]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٤].

وإن فساد المعتقد وانتشار البدع في مجتمعات المسلمين معوِّق من أهم معوقات النهوض ببلاد المسلمين، ولن يستكمل المسلمون أسباب النصر حتى تصفو عقائدهم، ويصدقوا في إخلاصِ العبادة لله وحده لا شريك له. تلك خلاصة دعوة الرسل عليهم السلام وما أوحى الله به إليهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٥].

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

(٢) شرح المنازل .. عن تيسير العزيز الحميد ص١٩٥.

(٣) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

الخير المكروه[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: أيها الناس اتقوا الله، فتقوى الله أمانٌ من كلِّ خوف، وبها المخرجُ عند كل فتنة، بها تُكفر السيئاتُ، وتُعظَّم الأجورُ، وتتوفر الأرزاق، وتُيسر الأمور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾[3].

أيها المسلمون وكثيرةٌ هي توجيهات القرآن وحقائقهُ التي تسترعي الانتباه، وتستحق التوقفَ عندها، وأخذ العبرةِ منها، وكلنا -لغفلتِنا وتقصيرنا- نمرُّ عليها مرَّ الكرام، فلا تُحدِثُ في أنفسنا الأثرَ المطلوب، ولا تهذبُ سلوكياتنا، ولا تكسرُ حِدةَ الشهوةِ والطمع في نفوسنا، وهي كفيلةٌ لو آمنا بها - حق الإيمان- وصدقنا- بتوفيرِ السعادة وتحقيق الرضا، وتثبيتِ اليقين.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢١/٣/١٤١٨هـ.

(٢) سورة الحشر، آية: ١٨.

(٣) سورة الحج، آية: ١.

ومن هذه الحقائق: أن الخيرَ قد يكونُ فيما تكرهه النفس ابتداءً لجهلها بما يؤول إليه، وقد يكون الشرُّ فيما تحبه النفس وتهواه.. إن الخير المكروه، والشرَّ المحبوب حقيقة وقدرٌ إلهي، أشار إليهما القرآن وكشف فيهما عن علم الله، وجهل الإنسان، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(١)].

وهذه الآيةُ وإن نزلت في إيجابِ جهادِ الأعداء، حتى قال الزهريُّ -يرحمه الله-: الجهادُ واجبٌ على كل أحدٍ غزا أو قعد. القاعدُ عليه إذا استُعينَ أن يُعينَ، وإذا استُغيث أن يُغيثَ، وإذا استُنفر أن ينفرَ، وإن لم يُحتجْ إليه قعد. ودعا الله أن ينصر المسلمين.

وفي الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: «**من مات ولم يغزُ ولم يُحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية**»[(٢)].

فمعنى الآية أعمُّ، وأن الخير يكون فيما تكرهه النفسُ أحيانًا، وأن الشرَّ يكون فيما تهواه النفسُ أحيانًا وتحبه، والله وحده يعلم والناس لا يعلمون.

ومن عجب أن يقضي الله قضاء لابن آدم، يبيت بسببه غضبانَ أسفًا، وقد اختار الله له الخيرَ وهو لا يدرك، ولربما بات فرحًا جذلًا جراء مسرةٍ ظاهرةٍ واتته، وقد يكون فيها حتفه، ولذا جاء توجيهُ القرآن بلسمًا شافيًا ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[(٣)].

معاشر المسلمين إن هذه الحقيقة القرآنية تبدو واضحة على مستوى الفردِ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٩٤.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٣.

والمجتمع والأمة، وهي حقيقة يشهد بها الماضي ويؤكدها الحاضر، وستظل ماثلةً في المستقبل تشهد بإعجاز القرآن، وتؤكد علمَ وتقديرَ الرحمن.

أما على مستوى الفرد فقد كتب الله على كل إنسان حظَّه من الفقر والغنى، والمرضِ والشفا، ومحبوباتِ النفسِ ومكروهاتها، والمهمُّ أن المرض ربما كان فتحًا للمريضِ تحول به من حال إلى حال، وكذا الفقر ونحوهما من مصائب الدنيا، ولربما كان الغنى سببًا للطغيان والفجور، ولربما كانت الصِّحةُ سبيلًا للغفلةِ والفسوق، ولا يعني ذلك بحال أن يتمنى المرءُ المرضَ أو الفقر، وإنما القصد أن يشكرَ المسلمُ ربَّه حال السراء، ويصبرَ نفسه ويَرضى بقضاء الله وقدره له حال الضراء، وهو في كل أحواله ينتقل من عبودية إلى عبودية أخرى.

أما على مستوى المجتمع فقد يُبتلى الناس بالشرِّ والخيرِ فتنة، وحينها يميز الله الخبيثَ من الطيب، ويتبين الصادقون من الكاذبين، وتتحول الضراءُ والفتنُ عند بعضهم إلى سراءَ ومنح لا يعلم مداها إلا الله، وتنقلب السراء الظاهرةُ عند البعض منهم إلى بلايا ومحن يتمنون المخرج منها. ولرب نازلة يضيق بها الفرد أو الملأ، تحولت إلى خير ونعمة مع الصبر والإيمان والتقى، وشواهدُ ذلك كثيرة تفوق العد والإحصاء.

إخوة الإسلام! ومن شواهد الماضي أسوق لكم نموذجًا وقع في خير القرون مؤكدًا حقيقة: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

فقد عقد رسول الهدى ﷺ مع مشركي مكة (صلح الحديبية) وكانت شروطُه -فيما يبدو ظاهرًا- مجحفة بحق المسلمين، فالمسلمون المُحرمون يحلون إحرامِهم دون عمرة، ويقضونها في العام المقبل، ومن جاء إلى المسلمين من

---

(١) سورة النساء، آية: ١٩.

قريش بغير إذن وليه، يُرد، ولو كان مسلمًا فارًا بدينه. ومن جاء قريشًا من المسلمين يُقبل ولا يُرد -إلى غير ذلك من بنود الصلح، الأمر الذي تذمَّر منه المسلمون وتألموا له، وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لم يتمالك نفسه حتى جاء إلى النبي ﷺ يقول: ألسنا على الحقِّ وهم على الباطل؟ فقال: «**بلى**»، فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «**بلى**»، قال (عمر) فعلامَ نُعطي الدنيةَ في ديننا؟ فأجابه الرسول ﷺ: «**يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا**».. ثم ذهب إلى أبي بكر، وقال له نحوًا من ذلك[(١)].

أما رواية ابنِ إسحاق فقد جاء فيها: أن المسلمين حين رأوا ما رأوا من الصلح، وما تحمَّل رسول الله ﷺ على نفسه دخل الناسُ من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا أن يهلكوا..[(٢)].

ومع ذلك فقد انجلت هذه الشدةُ التي كرهها المسلمون في البداية وتحولت- بقضاء الله وتقديره -إلى فتح مبين، ونزلت البشارة للنبي ﷺ بذلك قبل أن يصل المدينة قافلًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وقرأ رسول الله ﷺ سورة (الفتح) إلى آخرِها على عمر، فقال: يا رسول الله: أو فتح هو؟ قال: «**نعم**»[(٣)].

إخوة الإيمان! وإذا كان هذا فيما تكرهه النفسُ وفيه الخير لها، ففي ما تحبه النفوس وإن كان فيه ضيرٌ عليها، يحدثنا الإمام القرطبيُ يرحمه الله عن واقع مُرٍّ ابتلي به المسلمون في بلاد الأندلُس، ويقول هو يُفسر قوله تعالى: ﴿كُتِبَ

(١) هذه رواية البخاري ح ٣١٨٢ كتاب الجزية.

(٢) ابن هشام ٣/٣٠٨، ومسند أحمد ٤/٣٢٥، ومرويات الحديبية ص١٧٢.

(٣) رواه البخاري.

عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآية- قال: والمعنى: عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقةِ وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتُؤجرون، ومن مات مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعةَ وترك القتال، وهو شرٌّ لكم في أنكم تُغلبون، وتُذلون ويذهب أمرُكم، قلتُ (القرطبي): وهذا صحيحٌ لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهادَ، وجبنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار، فاستولى العدوُّ على البلاد، وأيَّ بلاد؟ وأسر وقتل، وسبى، واسترق، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته[١].

إخوة الإسلام! أما النموذج الثالث فيجليه لنا الإمام ابن تيمية رحمه الله، وهو يشهد في عصره اجتماعَ الأحزاب على إبادة المسلمين، فيسلي المسلمين ويشحذ هممَهم، ويتفاءلُ بالشرِّ يعقبه الخير، وبالشدة يتلوها الفرج، ويقول مقارنًا بين غزوة الأحزاب في زمن النبوة، وغزو التتر والفرس والنصارى للمسلمين في زمنه: «.. **كذلك -إن شاء الله- هؤلاء الأحزاب من المغول، وأصنافِ الترك، ومن الفرس والمستعربة، والنصارى ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام، الآن نغزوهم ولا يغزونا، ويتوب اللهُ على من يشاءُ من المسلمين، الذين خالط قلوبهم مرضٌ أو نفاق بأن ينيبوا إلى ربِّهم، ويَحْسنُ ظنُّهم بالإسلام، وتقوى عزيمتهُم على جهاد عدوِّهم.. بل وينظر الشيخُ للحادثات الكونية التي يبدو فيها الضرُّ نظرةَ خيرٍ وإن كرهها غيره فيقول: «وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاءَ غير مرةٍ، وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرةٌ عظيمة، وفيه لله حكمةٌ وسرٌّ، فلا تكرهوه، فكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان**

(١) تفسير القرطبي ٣/ ٣٩.

وجنودَه حتى أهلكهُم، وهو كان فيما قيل سببَ رحيلهم، وابتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفرُّ عن طاعتِه وجهاد عدوه»[١].

وكذلك ينظر أهلُ القرآن بنور الله، وما أحوج الأمة إلى رجال كهؤلاء يعيدون الثقةَ إلى النفوس، ويبعدون الناس عن اليأس والإحباط، مهما ادلهمت الخطوب وكثر المكروه وتجمعت الأحزاب، وساءت الظنون ولف الكون خيوطُ الظلام -فالعسرُ معه اليسر، والصبر معه النصر، والغبارُ سيتجلى، والعاقبة للمتقين.. وصدق الله وهو أصدق القائلين.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾[٢].

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[٣].



(١) الفتاوى ٢٨/ ٤٦٢، ٤٦٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٥، ١٠٦.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٧.

الخطبة الثانية:

الحمد لله العليم الخبير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يَحكم ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة من أمرهم.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسولهُ عاش حياته راضيًا مرضيًا رغم ضيقِ العيش حينًا، وكيد الأعداءِ حينًا، ولم تكن حياته عليه الصلاة والسلام من الأكدار والمنغصات صفوًا.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى إخوانه وآله، وارض اللهم عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها المسلمون ومن صفحة الماضي إلى ظروف الحاضر نتأمل حقيقة القرآن ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ فبالأمس القريب تنمرت الشيوعية الحمراء وحكمت الشعوبَ المسلمة المحيطة بها بالنار والحديد، وبات المسلمون حينًا من الدهر يُصلون ويتلون القرآن في السراديب المظلمة والخلوات، وامتدت هذه الأفعى لتغزو أجزاءَ من عالمنا الإسلامي بقوةِ السلاح، بل امتد أثرها الفكري ليغزو العقولَ النخرة، ونبتت في العالم الإسلامي نابتةٌ يسارية الفكر والمعتقد، لغرضٍ أو لآخر. وحين بلغ السيلُ الزبى، وبلغ الكرهُ والتأففُ للواقع الإلحادي مداه.. كانت النهايةُ قاب قوسين أو أدنى، وأخيرًا تحطمت الدولة الشيوعية الكبرى على مرأى الناسِ ومسمع، وأصيب الأتباعُ بالذهول، وكانت البشرى للذين آمنوا وضاقوا من قبلُ بها ذرعًا، وتنفس المسلمون الصُّعداء، وعسى أن يكره الناس شيئًا ويجعل الله من بعده خيرا كثيرًا.

واليوم نشهدُ بأمِّ أعيننا غطرسةَ اليهودِ وتطرفَهم، وهم يسيئون إلى الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام، ويستفزون مشاعرَ أكثر من مليار مسلم، ويصل بهم التطرفُ والغطرسة إلى تصوير الرسول ﷺ على هيئة خنزير -قاتلهم الله أنى ينفكون -وتنشر هذه الصورُ المزريةُ على مرأى من العالم ومسمع؟!

ثم لا يقف التحدي العقديُّ عند هذا الحد، بل يُستخرج القرآن ويمزقُ أمام أعين المسلمين؟

لقد ضاق المسلمون ذرعًا بهذه التصرفات الرعناء، ومن قبلُ كره المسلمون وصول المتطرفين من اليهود لحكم إسرائيل. ولكن ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾.

أجل إن المتأملَ في الأحداث الجارية على الساحة يرى أن في هذا الشرِّ الظاهر خيرًا كثيرًا في الباطن.

فالأحداثُ تكشف أولًا حقيقة اليهودِ لمن به غبشٌ في الرؤية أو خداعٌ في النظرة، ويتولى اليهود بأنفسهم رسمَ الصورةِ الحقةِ لنفسياتهم ومعتقداتهم وأخلاقهم وطبيعة نظرتهم للأديان والشعوب، وهذه حقيقة لو مكث العلماءُ، والدعاةُ وأهلُ الاختصاص والخطباء حينًا من الدهر لكشفِها وبيانها للناسِ لم تصل أثرُ كلماتِهم وخطَبِهم إلى ما وصلت إليه أفعال اليهودِ أنفسِهم، فهل أبصرتم هذا الخير من وراء هذا الشر؟

وتكشف أحداثُ اليهودِ الراهنة ثانيًا عن حقيقة التطرف، وأصنافِ المتطرفين، ويتهاوى المصطلحُ العالمي الحائر بوصف المسلمين بالتطرف على أصداءِ التطرفِ الحقِّ لبني صهيون؟.

وثالثُ جوانبِ الخيرِ الذي نرجو أن يتحقق عاجلًا من وراء هذا الشر المستطير أن تستفزَّ هذه التصرفات المشينةُ مشاعرَ المسلمين، ويستيقظ أصحاب

السُّبات منهم على ضربات اليهودِ الموجعة، فيهبوا مدافعين عن عقيدتهم، وكأن اليهود بتصرفاتهم يقولون للمسلمين: هكذا نفعل بنبيكم وكتابكم، فأين أنتم؟ وماذا تفعلون؟!

إن هذا التحدي السافرَ حريٌّ بأن يوحدَ كلمة المسلمين، ويجمع شتاتهم، وينسيَهم أضغانهم، ويضيِّق هوةَ الخلافِ في اجتهاداتهم، فالخطرُ يهددهم جميعًا، والعدو يُكشر لهم عن أنيابه، وخطوة اليوم من إخوان القردة والخنازير سيتبعها خطوات أكثر جرأة، إذا لم يعِ المسلمون دورهم، ويستعدوا لمنازلة عدوِّهم.

أما الرابعة من جوانب الخير المتوقعة من وراء هذا الشر، أن تكون هذه الكبرياء وذلك السوءُ في المعتقد والخلق من يهود مؤشرًا لنهاية هذا الجسم الغريبِ في الأمة المسلمة، ومعجلًا بالمنازلة المحتومةِ النتائج مع اليهود «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهوديُّ من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله هذا يهوديٌّ خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقدَ، فإنه من شجر اليهود**»(١).

إن سلبيات واقعِنا المعاصر كثيرةٌ ومتنوعة، وإن رعودَ الشرِّ تبرق هنا وهناك، وإن الغصصَ والمآسي التي يراها المسلمُ أو يسمعها تدمي الفؤاد وتبكي العيون.. ومع ذلك فبإمكان المسلمين أن يحيلوا هذه السلبيات إلى إيجابيات حين يعودون إلى دينهم، ويعرفوا حقيقة أعدائهم وطبيعة المعركة معهم، ويأخذوا بأسباب العدة والنصر التي أمروا بها، ولا يركنوا إلى الذين ظلموا، ولا ينتظروا النصفَ والنصرةَ من أعدائهم فالكفرُ ملةٌ واحدة، ولن يرضى اليهود ولا النصارى عن المسلمين إلا باتباع ملتهم، وما النصر إلا من عند الله.

---

(١) الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة.

خير القرون[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه . . .

اتقوا الله عباد الله- ومن يتق الله يجعل له مخرجًا.

واخشوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفسه بما كسبت وهم لا يظلمون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

إخوة الإسلام وما أحوج الأمة إلى مُثُلٍ ونماذج صادقةٍ تحذو حذوها، ورجالاتٍ ذات هممٍ صادقةٍ وعاليةٍ يقتدى بها، ويُستضاء بتاريخها.

وفي أمةِ الإسلام نجومٌ ومصابيحُ دجى أشرق نورها فترة من الزمن في هذا الوجود، ولئن ماتوا بأجسادهم فلا زال تاريخُهم ولن يزال غضًا طريًا يستنهض الهمم ويجلو الريب، ويبعث على الجهاد والتضحية في سبيل الله، إنهم صحابة رسول الله ﷺ خير القرون، وأولئك القومُ الذين اختارهم الله لصحبة رسوله ﷺ، وخصهم بفضل الصحبة -دون سواهم- وما كان اختيارهم على غيرهم فُرُطًا، بل كان قدرًا -من عند الله- مقدورًا.

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٩/ ٤/ ١٤١٨هـ.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.

قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: إن الله نظرَ في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد، بعد قلب محمدٍ ﷺ فوجد قلوب أصحابه خيرَ قلوبِ العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيء»[(١)].

هم القوم أعلى شأنهم القرآن، وأثنى الله على المهاجرين والأنصار، ورضي الله عن أصحاب البيعة تحت الشجرة، وتاب على الذين اتبعوه في جيش العسرة من بعد ما كاد يزيغُ قلوبُ فريق منهم، ولئن فضل الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا على من أسلم بعدهم، فكلًا وعد الله الحسنى وكفاهم فخرًا -أن يقول الله فيهم ومن اتبعهم بإحسان-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[(٢)].

صحابة رسول الله ﷺ أمنةٌ للأمةِ، وبذهابهم أتى الأمةَ ما كانوا يوعدون، قال عليه الصلاة والسلام: **«النجوُم أمنةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما توعد، وأنا أمنةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»**[(٣)].

قال صاحب النهاية: والأمنة في الحديث جمعُ أمين وهو الحافظ، وفي الحديث إشارةٌ بالجملة إلى مجيء الشر عند ذهاب أهل الخير[(٤)].

---

(١) رواه أحمد، ١/ ٣٧٩ (٣٥٩٩).

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٣) رواه مسلم ٤/ ١٩٦١.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٧٠، ٧١.

أمةَ الإسلام، لقد أخبر الصادقُ المصدوقُ عن فضلهم وحكم بعلو منزلتهم فقال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

قال عمران بن حصين ﵁ -الراوي- فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة -«**ثم إن بعدَهم قومًا يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن**»[(١)].

ونهى عليه الصلاة والسلام وكرر النهي عن سبهم حين قال: «**لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثلَ أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفه**»[(٢)].

وأجمع أهل السنة والجماعة على عدالتهم، حتى قال الخطيب في الكفاية: «**والأخبار في هذا المعنى تتسعُ، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميعُ ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحدٌ منهم مع تعديل الله تعالى لهم، المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحدٍ من الخلقِ لهم، فهم على هذه الصفة إلى أن يثبتَ على أحدٍ ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصدَ المعصية، والخروج من باب التأويل، فيُحكم بسقوط العدالة، وقد برأهم الله من ذلك، ورفع أقدارهم عنده- إلى أن قال الخطيب: على أنه لو لم يرد من الله ﷻ ورسوله فيهم شيء مما ذكرنا لأوجبتِ الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد والمناصحةِ في الدين، وقوة الإيمانِ واليقين، القطعَ على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتِهم، وأنهم أفضلُ من المعُدِّلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبدُ الآبدين**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما(جامع الأصول ٨/ ٥٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤٠) (جامع الأصول ٨/ ٥٥٣).

(٣) الكفاية في علم الرواية ص٩٣-٩٦.

أيها المسلمون! ولفضل الصحابة يُفتح للمسلمين إذا كانوا فيهم، ويفتح لمن صحبهم، أو صحب من صحبهم، وتلك كانت هي فترات القوة للبعوثِ الإسلامية، والجهاد إلى بلاد الكفار، أخرج الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي على الناس زمانٌ يغزو فيه فئامٌ من الناس، فيقولون: هل فيكم من صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحبَ من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم»**[(١)].

وفي لفظ: **«هل من فيكم من رأى رسول الله ﷺ»**.

وهذا الحديث يستفاد منه عدةُ أمور ومنها:

أن النبي ﷺ علق الحكمَ بصحبته وعلق برؤيته، وجعل فتحَ اللهِ على المسلمين بسبب من رآه مؤمنًا به، وهذه الخاصيةُ لا تثبت لأحدٍ غير الصحابة، ولو كانت أعمالهم أكثر من أعمال الواحد من أصحابه ﷺ[(٢)].

٢ -قال الحافظ ابن حجر: ويستفاد من الحديث بطلان قول من ادعى في هذه الأعصار المتأخرة الصحبةَ، لأن الخبرَ يتضمن استمرارَ الجهاد والبعوث إلى بلاد الكفار، وأنهم يسألون: هل فيكم أحدٌ من أصحابه؟.. وكذلك في التابعين، وفي أتباع التابعين. وقد وقع كلُّ ذلك فيما مضى، وانقطعت البعوث عن بلاد الكفار في هذه الأعصار، بل انعكس الحال في ذلك على ما هو معلومٌ

---

(١) جامع الأصول ٨/ ٥٥١.

(٢) نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية (الفتاوى ٤/ ٤٦٥).

مشاهدٌ من مدةٍ متطاولة ولا سيما في بلاد الأندلس»[١].

وإذا كان هذا في زمن ابن حجر، فكيف لو أبصر حال المسلمين اليوم؟ وقد أصبحت بعوثهم التنصيرية تغزو بلاد المسلمين، وتدرس في السياسات الخارجية للدول الكبرى مشروعات تنصير المسلمين، ومحاولة الضغط عليهم بالمنح والقروض، ولكن ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[٢].

اللهم انفعنا بالقرآن، وهدي محمد عليه الصلاة والسلام...



(١) الفتح ٧/ ٥.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، يختص برحمته من يشاء، وهو العليم الحكيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فضَّل هذه الأمة بالتراحم فيما بينها، فيستغفر اللاحقون للسابقين، على - حين كانت الأممُ الجاهلية قبلهم يلعن بعضُهم بعضًا؟ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أوحى إليه ربُّه أفضليةَ قرنِه، وشهد لصحابته بالخيرية على من سواهم، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

أيها المسلمون! ويقول القاضي رياض -يرحمه الله- عن ميزة الصحابة: «**وفضيلةُ الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عملٌ، ولا تنال درجتُها بشيء، والفضائل لا تؤخذُ بالقياس**»[١].

أما عمَّا شجر بينهم، فيقول الذهبي يرحمه الله: «**كما تقرر الكف عن كثير مما شجر بينهم، وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمرُّ بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثَر ذلك منقطع وضعيف، وبعضُه كذبٌ.. فينبغي طيُّه وإخفاؤه، بل إعدامُه، لتصفوا القلوب، وتتوفرَ على حبِّ الصحابة والترضي عنهم، وكتمانُ ذلك متعينٌ عن العامة وآحاد العلماء..**

إلى أن يقول: فأما ما تنقله الرافضةُ وأهل البدع في كتبهم من ذلك فلا نُعرِّج عليه، ولا كرامة، فأكثره باطلٌ وكذبٌ وافتراء، فدأب الروافض روايةُ الأباطيل، أوردُّ ما في الصحاح والمسانيد، ومتى إفاقةُ من به سُكران»[٢].

---

(١) شرح مسلم ١٦/ ٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء١٠/ ٩٣، ٩٢.

هذه معاشر المسلمين مقتطفات عاجلةٌ من معتقد أهل السنة والجماعة في الصحابة، وتلك قناعات ومنطلقات شرعية لا تهتز بإرجاف المرجفين، ولا تتأثر بتشكيك المشككين. !!

وإذا كانت أعراض المسلمين -بشكل عام- مصونةً في الإسلام، فأعراض الصحابة وهم أهل الفضل والسابقةِ والجهاد أولى بالصيانة والدفاع قُربة لله ﷻ، وتقديرًا لمآثرهم وجهادهم. وقد نص العلماء قديمًا على تحريم سبِّ الصحابة، وأرشدوا إلى عقوبات تعزيريةٍ لمن فعل ذلك معهم.

قال الإمام النووي يرحمه الله: واعلم أن سبَّ الصحابة ﷺ حرام من فواحش المحرمات، سواءٌ من لابس الفتن منهم وغيره»[1].

وقال الإمام أحمد: إنه يجب على السلطانِ تأديبه وعقوبته، وليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ويستتيبه»[2].

واعتبر القاضي عياض تعزيرَ من سب الصحابة مذهبَ الجمهور»[3].

بل نقل عن بعض المالكية؛ أنه يُقتل. وحكم الإمام أحمدُ يرحمه الله على نوعية الطاعنين في الصحابة فقال: فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو أحدًا منهم، أو تنقصه أو طعن عليه أو عرض بعيبهم أو عاب أحدً منهم فهو مبتدع رافضي.

أيها المسلمون! لماذا هذه العناية بأعراض الصحابة؟ ولماذا الدفاع عنهم؟ لأن هناك مكمنَ خطرٍ في سبِّهم أو التعريض بهم وعدالتهم، فهم نقلةُ الدين،

---

(١) النووي: شرح مسلم ١٦/ ٩٣.

(٢) رسالة السنة ص٧٨، وانظر: السلمي، في منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص٢١٩.

(٣) شرح مسلم ١٦/ ٩٣.

والطعن فيهم وسيلة للطعن في الدين.

وهذا ما نبه إليه الإمام أبو زرعة الرازي يرحمه الله حين قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسننَ أصحابُ رسول الله ﷺ. وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى وهم زنادقة[١].

عباد الله! لابد من التنبه لمثل هذه الأفكار المتسللة، التي تحاول بين الفينة والأخرى الطعنَ في أحدٍ من صحابة رسول الله ﷺ، سواء كانت بعبارات صريحة أو ملفوفة، أو استخدمت أسلوب التشكيك في وجود هذا الصحابي وأسطوريته، فتلك رغم ما فيها من جُرأةٍ تحطم الحجبِ الواقيةَ لهذا التاريخ المجيد، الذي أجمعت عليه الأمة، هو كذلك إشغالٌ للأمة بقضايا جانبية، لا يحتمله تاريخُ الأمة المثقلُ بكثير من القضايا والهموم، ليس اجتماع الكيد الصليبي مع التطرف اليهودي على العبث بمقدسات المسلمين ومحاصرةِ وتجويع أبنائهم إلا واحدةً من هذه القضايا المؤلمة، التي تحتاج من المسلمين إلى عملٍ دؤوب وصدق في اللقاء، يدفع الله به كيدَ الكائدين.

وإذا قُدر لهذه القضايا أن تبحث فينبغي أن يوسدَ الأمر إلى أهله، وأن يتوفرَ على ذلك علماءٌ متمكنون في علمهم صادقون في توجههم، برآءٌ من أي تهمةٍ في سلامة معتقدِهم، وأن يكون على مستوى الخاصة، وألا تفتنَ به العامةُ، وألا تكون قضيةً مطروحةً للمزاد، يعرف فيها من لا يعرف، ويظن الجاهل أن من حقه أن يوافق أو يخالف.. وليت شعري كم تنطق الرويبضةُ! ويتصدر السفهاء

(١) الكفاية في علم الرواية ص٩٧.

إذا غاب عن الساحة صوتُ العلماء، أو توارى خلفَ الحجبِ رأيُ النبلاء.. ومع ذلك فالزبد سيذهبُ جفاء، ويمكث في الأرض ما ينفع الناس، وكذلك اقتضت حكمةُ الله في الصراع بينَ الحق والباطل قديمًا وحديثًا، ليميز الله الخبيث من الطيب، وينحاز الصادقون، وينكشف -ولو بعد حين- الكاذبون، اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.



المسلمون والإعلام(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين، وارض اللهم عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فأما بعد: فاتقوا الله أيها المسلمون لعلكم ترحمون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

أيها المسلمون! تحتاج أي أمة من الأمم إلى وسيلة تنشر بها تراثها، وتوصل -عن طريقها- للآخرين أساليب حضارتها، ومقومات فكرها، أيًا كانت هذه الحضارة، وأيًا ما كان نوعُ هذه الأفكارِ المصدرة.

وتتشكل هذه الوسيلة -لنقل الحضارة والأفكار- حسب ظروفِ الزمانِ والمكان، وتتطور وفق تطورِ الحضارات وتفوقِ الأمم.

هذه الوسيلةُ اصطلح عليها مؤخرًا باسم «**وسائل الإعلام**» وحين يعرفه الغربيون بأنه «**التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت**»(٢).

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٤/ ٥/ ١٤١٨هـ.

(٢) الإعلام الإسلامي، د. محيي الدين عبد الحليم ص٢١.

فهو في نظرة المسلمين أداةٌ هامة؛ لنقل الخير والدعوة إليه، والتعريف بالشر والتحذير منه، أو هو باختصار كما قال أحدُ المختصين المسلمين بالإعلام: هو إعلاءُ كلمة الله في كل عصر بكافةِ وسائل الاتصال المناسبة لكل عصر، والتي لا تتناقض مع مقاصد الشريعة الإسلامية»[١].

أجل لقد استخدم الأنبياء عليهم السلام وسيلة البلاغ للناس أسلوبًا من أساليب الدعوة إلى دين الله، والتعريف بخالق الكون والحكمة من الوجود في هذه الحياة، وذلك بالأسلوب واللغة التي تناسبهم، كل ذلك ليتحقق البلاغ، ويصل البيان، وتقوم الحجة، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٢].

وقيل لخاتمهم محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[٣].

فبلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وأشهدهم على البلاغ، أشهد ربَّه -وهو به أعلم- أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟**» قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت، ونصحت، فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء، وينكثها إلى الناس: «**اللهم اشهد**» ثلاث مرات.

إخوة الإيمان! ومنذ القدم عرف الناسُ البلاغ ووسائل التأثير، فهذا موسى عليه السلام -في سبيل دعوته لفرعون وقومه- رغب أن يكون إحقاقُ الحقِّ

---

(١) د. زين العابدين الركابي، النظرية الإسلامية في الإعلام، عن: وسائل الإعلام وأثرها.. الغلاييني ص٤٦.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٤.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

وإبطالُ الباطل على ملأ من الناس، وفي يوم اجتماعهم: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾(١).

وفرعون في المقابل يبعث في المدائن حاشرين مثيرًا ومُضللًا: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾(٢).

وينقلب السحر على الساحر، ويعلو الحقُّ الأصيل، وينكشف الباطل المزيف!

وسليمان عليه السلام يستخدم الكتاب أسلوبًا من أساليب الدعوة لملكة سبأ التي قالت: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وكانت النتيجة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

والعرب قبل الإسلام انتشرت لديهم وسائل كثيرةٌ للاتصال تتلاءم مع طبيعة تلك المرحلة، فعن طريق التجارة كانوا ينقلون الأخبار ويطلعون على الأحوال، وأسهمت البعثات اليهودية والنصرانية المتتابعة لأرض الجزيرة العربية في نقل أفكار الأمم المجاورة ومعتقداتها، وكانت إمارتا الحيرة والغساسنة على تخوم الفرس والروم صلة الوصل بين العرب والأمم التي تجاورها، وبين العرب أنفسهم كانت توجد وسائل اتصال فيما بينهم عن طريق الشعر والخطابة، والأعياد والأسواق وإشعال النار على رؤوس الجبال، وعقد الندوات والمشاورات(٤).

---

(١) سورة طه، آية: ٥٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٥٤-٥٦.

(٣) سورة النمل، آية: ٤٤.

(٤) محمد موفق الغلاييني، وسائل الإعلام ص٣٦.

وحين جاء الإسلام استبقى ما هو صالح للبقاء من هذه الوسائل وزاد عليها، فكان المسجدُ قاعدة ينطلق منها المسلمون إثر تجمعهم وتشاورهم، وكانت خطبة الجمعة بلاغًا للحاضر والباد، ونافح الشعراءُ والخطباء المسلمون عن الإسلام ونبي الإسلام، مؤيدين بملائكة السماء «**اهجهم وروح القدس يؤيدك**».

وكتب عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الأرض، وأرسل الرسلَ يدعوهم إلى الإسلام، وكانت البعثات التعليمية والدعوية الموجهة من الرسول ﷺ تجوب جزيرة العرب وسطها وأطرافها، فبلغت الدعوة اليمن والبحرين والحبشة، وأرض فارس والروم، ومقوقس مصر.. وغيرهم.

ثم جاءت حركة الفتوح الإسلامية والجهاد في سبيل الله لتنشر دين الله في الآفاق، ولم يبق بيت وبر ولا مدر، ولا أحمرَ ولا أسود إلا بلغتهم الدعوة. ووقف المجاهد الشهم في سبيل الله على ساحل البحر ليقول كلمته: والله لو أعلم أن خلف هذا البحر بشرًا لم تبلغهم دعوة الإسلام لخضت البحر إليهم.. الله أكبر، ويفوح شذى الذكريات، وإن كانت مؤرقة.

إني تذكرت والذكر مؤرقة   مجدًا تليدًا بأيدينا أضعناه

أنى اتجهت إلى الإسلام في بلد   تجده كالطير مقصوصًا جناحاه؟

واستمر المسلمون، والعالم الآخر من حولهم يعنون بوسائل الإعلام وأساليب التأثير -ولكلٍّ وجهة هو موليها- حتى إذا كان العصر الحاضر تطورت وسائل الإعلام، وبلغت في تنوعها وتقنيتها وأساليب تأثيرها شأوًا بعيدًا، وأصبح العالم الكبير يعيش وكأنه في قرية واحدة -كما يقال- ولا تخفى أحداث الغرب على من هو في الشرق، ولا من هو في الشمال على من هو في الجنوب، والعكس. ولكن المؤلم والمؤسف أن مراكز القيادة الإعلامية، وقنوات التأثير الكبرى، ووكالات الأنباء العالمية من نصيب غير المسلمين، ويمتلكها مناوئون

للإسلام وقومٌ خصمون للمسلمين، يكفي -دليلًا على ذلك- أن تعترف الصحف الغربية نفسها بسيطرة اليهود على الصحافة العالمية -وخاصة في أوربا وأمريكا- ومنذ أمد بعيد[١].

وليس يخفى سيطرة اليهود كذلك على أغلب وكالات الأنباء، وهذا يفسر التعتيم الإعلامي على كثير من قضايا المسلمين من جانب، وإشغال الناس بقضايا تافهة وفرضها على الإعلام العالمي، لأنها تخدم أغراضًا معينة يريد تصديرُها أولئك المنتقدون من جانب آخر -والله المستعان.

أيها المسلمون! ومكمنُ الخطر أن وسائل الإعلام باتت وجهة للرأي العام -بشكل عام- والمتفوق في هذا الميدان يفرض حضارته، ويصدر أفكاره، ويحشر الآخرين معه في اهتماماته ولو كانت ساذجة، ويؤثر في مشاعر الناس في أحداثه ولو كانت ساقطة.

أجل أن من أبرز الآثار التي خلفها الإعلام المعادي على مجتمعات المسلمين زعزعة المعتقد عند بعضهم، ونشر الأفكار الهدامة عند بعضهم الآخر، كما أثرت في تصدير العوائد والأخلاق الرديئة، وساهمت في خلخلة بناء الأسرة المسلمة، وروجت للاقتصاد الحرِّ بزعمهم -وهو عين الربا والاحتكار، وشوهت صورة الإسلام، واختارت أبشع الصور لإلصاقها بالمسلمين، كما اختارت أسوأ المصطلحات المنفرة لترمي بها -زورًا وبهتانًا- أبناء المسلمين -ولو كانوا يُدافعون عن حقوقٍ مغتصبة- ولو حوصروا في معاشهم وضيق عليهم المستعمر أوطانهم، وأساءَ إلى مقدساتهم!

مصيبة عُظمى حين تُؤَثِّر وسائل الإعلام المعادية في مجتمعات المسلمين،

(١) اعترفت بذلك صحيفة الجرافيل اللندنية عام ١٨٧٩م (الغلاييني، وسائل الإعلام ص٢٤٠).

فيستوردون من عوائدهم القبيحة ما يستوردون، وينقلون من زبالة أفكارهم ما يجعلهم في ذيل القافلة وهم مؤهلون للقيادة.

مصيبة أن يحزن المسلمون أو يتأثروا لمن يحزن أو يتأثر له الآخرون وهزيمةٌ فكرية حين تصبح قضاياهم النكدة قضايا مطروحة في بلاد المسلمين دون أن يتضح الفرق في طرحها باختلاف القيم والموازين، وتباين المعتقدات واختلاف قيم الحضارات؟!

إذا كان خبر المسلم الفاسق لابد من أن يتبين ويمحص، فكيف بأخبار الكفار المعاندين، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، يديل الأممَ والأيام بعلمه وحكمته، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يعلم ما كان وما يكون وما سيكون، وهو العليم الخبير.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ترك الأمة على محجةٍ بيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

إخوة الإسلام: بين إشراقة الصورة في نماذج الإعلام الإسلامي فيما مضى، ونتائجه المثمرة في الوجود أمنًا وإيمانًا، وسلامًا وإسلامًا، وعملًا وصدقًا، وبين قتامة الصورة ونتائجها المرةِ، وظلمةِ الواقع وجور الإعلام العالمي المعاصر، لابد للإعلام الإسلامي المعاصر من دورٍ بنَّاء، وموقعٍ متميز، وتحمل المسؤولية بكل صدق وأمانة . . وعلى كاهل رجالهِ الأوفياء تقوم المسؤوليات التالية:

١- رعاية التنميةِ، والتنميةُ بمفهومها الشامل، وبجوانبها المختلفة، الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية ونحوها، وما يتفرعَ عنها -مما لا يتسع الوقت لتفصيلها.

٢- حمايةُ مكتسبات الأمةِ -عبر تاريخها الطويل- والتنبهُ لكل من يريد العبثَ بها، أو بترَ حاضرِ الأمةِ عن ماضيها، أو صياغة مستقبلها خارج إطار الشريعة الإسلامية ونُظمِ الإسلام الكاملة المتفوقة.

٣- فضحُ أتونِ الحضارةِ المعادية ومنعُ تسرب أخلاقها وعوائدها الموبوءةِ

النكدةِ!، وحمايةُ الأمةِ من مخاطرها الآنية والمستقبلية، مع الاستفادة من الضَّالةِ المنشودة. فالحكمة مطلوبة أيًا كان موقعها، وفرق بين هذا وذاك!

٤- كشف تحيزِ الإعلام العالمي، لقضاياه الخاصة، ووفق سياساته التسلطية المستعمرة، وتجهيل العالم بقضايا العالم الإسلامي أو رسمها بالصورة المشوهة، وقيام الإعلام الإسلامي بالدور الغائب تجاه قضايا الشعوب المظلومة والمطالبةُ بحقوقهم المستباحة.

إخوة الإيمان من المفارقات العجيبة أن تجدَ هذا الإعلام المتحيز يُعنى بأخبار القططِ والكلاب، ويعرض صورًا للكاسيات العاريات، ويبلغ الاهتمام بخصوصيات الفرد هناك إلى درجة تقتل معه عدسات التصوير مشاهير القوم -كما زعموا- وإنما قتلهم زيادة نسبة الكحول في عقول المخمورين وقادة السيارات!

والحقُّ أنهم في عدادِ الموتى قبل أن يقتلوا، يوم أن وأدوا الفضيلة والحياء، وليسوا بمشاهير -في نظر الإسلام- والقضية باختصار: كفرٌ وعهر وخلاعة ومجون، عقول مخمورة، وقلوب خربة واهتمامات ساقطة، ونهايةٌ مؤلمة!

عباد الله! ليس غريبًا أن يحدث هذا في مثل هذه البيئات الموبوءة، التي تنكرت لشرائع السماء، وأفاء الله عليها من النعم ما شاء، فكفرت بأنعم الله.. ليس بعد الكفر ذنب.. وليس مع العلمنة وتقديس المادة ما يؤسف عليه بالبقاء.. إنها لوحة معبرة عن حضارة الرجل الأبيض -شاء المنهزمون والمعجبون بهم أم أبوا- وهي مؤشر للصيرورة إلى الزوال -طالت المدة أم قصر الزمان- فتلك سنةٌ إلهيةٌ، جاء بيانها في القرآن ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ

بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾(١).

ولكن الغريب -يا عباد الله- أن تُصدَّر هذه المخازي إلى بلاد المسلمين، وأن يفرض الإعلام المتفوق على من دونه حتمية الصورة، وتناقل الخبر بنوع من الشراهةِ، يُضلل العامة، وربما فتن الحدث والمرأة، ودون تعليق يوضح الحقيقة، ويكشف المأساة، ويبعد شُبهة التقليد وفتنة المحاكاة!

أيها المسلمون! لابد أن نفهم الصورة في أحداث الإعلام المعادي بهذه الصورة، ومن رام غير ذلك فقد جعل الأسود أبيض، والظلمة نورًا، والكذب المزيف صدقًا وعدلًا!

والصورة باختصار: إعلامٌ متورم، وشعبٌ مغرور متفوق، وحضارة غارقة في المادية، وبلغت الوحلَ في الشهوانية، تريد تصديرَ هذه الزبالات بقناة الإعلام عبر الصورة المخرجة، والأخبار المتتابعة وتحت رقابة وكالات أنبائهم الخسيسة.

والهدفُ من ذلك حتى تدخل الأمة المسلمة جحر الضب الخرب وتسير في النفق المظلم ولا تدري نهايته.

ونحن أمة لها تأريخها وقيمها، وحضارتها المتميزة، نخبر أول الطريق وندرك ما ينتهي إليه، ونميز بين ما يضر وما ينفع، وما أعظم مسؤولية رجال الإعلام المسلمين، وهم المؤتمنون على توضيح الصورة، وإعادة الثقة للأمة، هم مسؤولون عما ينقلون وعما يكتبون وما يشاهدون.. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا. ومن غشَّ فليس منا، وظلم النفس جريمة، ولكن ظلم الآخرين واستلاب عقولهم أشد جرمًا، وليس

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٦، ١٧.

من الوفاء للأمة التابع لها جرها إلى ذيل قافلة الأمم الأخرى.. إن معركة اليوم انتقلت من حرب السلاح إلى حرب الفكر، ووسائل الإعلام بكافة وسائلها وميادينها ورجالُ الفكر والإعلام حراسُها.. فالله الله أن يؤتى الإسلامُ من قبل أي ثغرة نقف حراسًا لها.. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، والله غني عن العالمين، اللهم انصر وسدد.



عبودية السراء[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصي نفسي وإياكم أيها الناسُ بتقوى الله، ألا إن تقوى الله أمانٌ من الزلل، وبها المخرجُ عند الشدائد والكرب، وبها يتوفرُ سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

أيها المسلمون! ابتدأتُ معكم -في الجمعة الماضية- حديثًا عن الشكر، وأستكمل الحديث عنه في هذه الخطبة.

عباد الله! لماذا لا يكون الحديث عن الشكر، ونعم الله علينا كثيرٌ لا تعد ولا تحصى، ونحن في المقابل نبارزه بالمعاصي صباح مساء؟ ولِمَ لا نُكثر الحديث عن الشكر ونحن نخشى قوارع السماء، وقد أهلك الله من قبلنا أممًا كانوا أشد منا قوة وأكثر جمعًا؟

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٣/٦/١٤١٨هـ.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٩.

كيف لا يثير الشكر كوامن النفوس، وفينا ما يبيتون على أنعم الله، ويستيقظون على معاصي الله، تمتلئ بطوننا من رزق الله، وننام ملء جفوننا بنعمة الله، لا يعكر ذلك مرضٌ ولا خوفٌ، ولا قلق، يعسعس الليل، ويتنفس النهار، فلا صعدت المؤذن يحرك فينا ساكنًا، ولا انشقاق الفجر أو ظلمة الليل تذكرنا بعظمة الباري، فنزداد لله ذكرًا وتعظيمًا، ولأنعمه علينا شكرًا كما أراد الله لنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(١).

إخوة الإسلام! نحتاج لمزيد الحديث عن الشكر، لأنه صمام الأمان لبقاء النعم وزيادتها، وأمانٌ من العذاب إذا توفر الإيمان كما قال ربنا ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(٢).

قال العارفون: ويا عجبًا أي مقام أرفعُ من الشكر، الذي يندرج فيه جميعُ مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها، فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها(٣).

أيها المسلمون! إذا علم حقيقة الشكر ومنزلتهُ، وحاجتنا جميعًا إليه، فما هي الأسباب المعينة على الشكر، وما هي المعوقات عنه؟

إن مما يعين على الشكر رضاك بما قدر الله لك، واعتقادك الخير فيما أصابك، فلستَ تدري الخيرُ فيما أوتيتَ أو منعت، قال عليه الصلاة والسلام: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره له كله خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له!**

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٢.

(٢) سورة النساء، آية: ١٤٧.

(٣) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٢٥٩.

وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

٢- والنظرُ في الدنيا لمن هو دونك يزيد من قناعتك وشكرك. والنظر في أمور الدين لما هو فوقك يزيد في همتك، ويدعوك للمسارعة في الخيرات، يقول عليه الصلاة والسلام: «**انظروا إلى من هو أسفلُ منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[(١)].

٣- ومما يعينك على الشكر أن يمتدَ بصَرك إلى نعيم الآخرة، وألاَّ تكون الدنيا محط رحالك ونهايةَ آمالك، وهناك في الجنان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لمن آمن وعمل صالحًا، هذا الشعور يجعلك تقنعُ بأي نعيم في هذه الحياة الفانية، متطلعًا إلى النعيم الباقي، متأملًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[(٢)].

٤- وكيف لا تشكر يا ابن آدم وقد سخر لك من الدواب والأنعام ما تركب وتأكل، وهيأ لك من المسكن ما تكن إليه وتأوي وأفاء عليك من نعم الأموال والأولاد والأزواج ما تأنس به، وتتزين وإليه تسكن، وكم من نعمةٍ أنعم الله بها عليك وقد تعلم بها وقد لا تعلم، أفلا تستحق هذه وتلك منك الشكر للمنعم، ودونك تذكير القرآن بواحدة من هذه النعم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[(٣)].

٥- والإكثارُ من تلاوة كتاب الله وتدبر آياته، يزيد في إيمانك وشكرك، وهو

(١) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه: صحيح الجامع الصغير ٢/ ٣٢.

(٢) سورة القمر، الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٣) سورة يس، الآيات: ٧١-٧٣.

خيرٌ مذكرٍ لك بأنعمِ الله عليك، كيف لا وفيه سورة تدعى سورة (النِّعم) بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده.. هي سورة (النحل)[1].

٦- ومما يعينك على الشكر أن تتذكر أحوال الضعف التي مرت بك، وكيف صيرك الله إلى حال قوة وغنى، فلا يطغيك الغنى، ولا تنسيك النعمُ الشكر، وتذكر حالتك الأولى، ومن فقه أبي هريرة وشكره أنه رُئِيَ في الليل يُكبِّر، فلحقه رجلٌ ببعيره، وقال: من هذا؟ قال: أبو هريرة، قلت: وما التكبير؟ قال: شكرٌ. قلتُ: على مه؟ قال: كنتُ أجيرًا لبسرة بنت غروان بعُقبةِ رجلي وطعام بطني، وكانوا إذا ركبوا سُقت بهم، وإذا نزلوا خدمتهم، فزوجنيها الله، فهي امرأتي[2].

٧- والنظر في سير الشاكرين يعينك بإذن الله على الشكر، فآلُ داود الذين امتدحهم الله بالشكر بقوله ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ ورد أنهم لم يأت عليهم ساعة إلا وفيهم مصلٍّ[3].

وإبراهيم الخليل الأمةُ القانت كان شاكرًا لأنعمه اجتباه. ولم ينس يوسفُ عليه السلام بعد خروجه من السجن وتبوئه خزائن الأرض أن يذكر نعمة الله، ويقول: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ إلى قوله: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[4].

وموسى عليه السلام يأمره ربُّه أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٦٥.

(٢) تهذيب السير ١/ ٢٠٠.

(٣) ابن القيم؛ عدة الصابرين ص١٩٦.

(٤) سورة يوسف، الآيتان: ١٠٠، ١٠١.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[١].

ويطول ذكر سير الشاكرين. . ولكنه خُلقُ الأنبياء والتابعين لهم بإحسان، قال رجلٌ لابن تيمية يرحمه الله: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين، لا أدري أيتهُما أفضل، ذنوبٌ سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي»[٢].

بل كان الصالحون يتجاوزون بشكرهم خاصة أنفسهم، ويفرحون بالنعمة يهبها الله لإخوانهم المسلمين؛ نصرةً للدين، وإعلاءً لشأن المسلمين. وفي هذا ذكر عبد الله بن المبارك يرحمه الله أن (النجاشي) يرحمه الله أرسل ذات يومٍ إلى جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه، وهو في بيتٍ، عليه خلقان، جالسٌ على التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أُبشركم بما يسركم، إنه جاءني من نحو أرضكم عينٌ لي، فأخبرني أن الله قد نصر نبيه ﷺ، وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان، وقتل فلانٌ وفلان بواد يقال له (بدر). . حتى قال له جعفر: ما بالك جالسًا على التراب، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاق؟ قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام: أن حقًا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعًا عندما أحدث الله لهم من نعمه، فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع[٣].

يا أخا الإسلام! العلم نافذة تفتح لك آفاقًا واسعةً في الشكر، ويدرك العالمون الربانيون من آلاء الله ونعمه، مما يستوجب الشكر ما يفوق غيرهم، بل

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٤.

(٢) عدة الصابرين ص١٩٩.

(٣) عدة الصابرين ص٢١٣.

إن فعل الشكرِ وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله، ومعرفة ما يكرهه، ولهذا ميز الله الذين يعلمون عن الذين لا يعلمون ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

والأصل كلما ازداد علم الإنسان زاد شكره وخشيته لله، ومن يضلل الله فما له من هاد، وصلاح القلب وقوة الإيمان مكملات للعلم وبهما يتحقق الشكر، وبالجهل والفجور والطغيان يحل الهلاك والدمار.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1].



(١) سورة القصص، آية: ٥٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، يشهد بآلائه الإنس والجن، خيرُه للناس نازل وشرهم إليه صاعد، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾(١).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس العطاء منه دليل الرضى، وليس المنعُ منه علامةَ سخطٍ وعذاب، يبلو بالسراء ليرى مدى الشكر، والضراء ليعلم -وهو أعلم- بالصابرين.. وهو العليم الحكيم.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أصابته الضراء فصبر، وحين أفاء الله عليه من النعم شكر واستغفر، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين.

أيها المسلمون أما معوقات الشكر فكثيرةٌ، ومنها:

الجهل والكبْرُ، والغفلة، فالجاهلُ لا يعرفُ نعمَ الله عليه، وأنَّى له أن يشكر ما لا يعرف، والكبْر داءٌ يتعالى به الفرد وينسى فضل المنعم، ويخيل إليه أن ما حوله من نعم بحوله وقوته، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾.

والغفلة آفة تُنسي النعم، ويظل صاحبها يرمق نعمة الله على الآخرين، غافلًا عما أنعم اللهُ به عليه، وإذا لم يتنبه الغافل في العلم، فسبيله للشكر أن يشهد المرضى تارةً، ويشهد أصحاب الحدود تارة أخرى، ليستيقن فضلَ الله بالعفو والعافية فيشكر اللهَ.

ويلحق بذلك عائقُ الشحِّ والطمع والحسد، فمن ابتلي بذلك قل شكرهُ وكثرت شكواه، وأصبح كالعطشان يرد البحر فلا هو ارتوى منه، ولا البحر سقا

---

(١) سورة فاطر، آية: ٥٥.

ظمأه، وفي التنزيل ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(١)].

واختر لنفسك ما تشاء من مراتب الإجابة، فكلُّ عبدٍ سئل عن حال فهو بين أن يشكر، أو يشكو، أو يسكت.

يا أخا الإيمان! لا يغب عن بالك أن الشيطان بوسوسته وإغوائه معوق عن الشكر، كيف لا وقد أخذ العهد على نفسه بذلك.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[(٢)].

وهاك نموذجًا لإعاقة الشيطانِ للإنسان عن الشكر، قال بكرُ بن عبد الله المزني: «**ينزل بالعبد الأمرُ فيدعو الله فيصرفُ عنه، فيأتيه الشيطان فيضعفُ شكره، يقول: إن الأمر كان أيسرَ مما أذهب إليه قال: أو لا يقول العبد كان الأمر أشدَّ مما أذهب إليه ولكن الله صرفه عني**»[(٣)].

يا أخا الإيمان!

ومن المعوقات عن الشكر احتقارك نعمةً وهبها الله لك، فتظل تنظر إلى ما أوتيت على أنه شيء قليل، وتنسى أن المعافاة من البلايا نعمة، وأن السلامة من الأمراض نعمة، وهكذا مما صرف الله عنك، فكيف إذا أضيف إليها ما وهبك الله من نعم، ولا تنس أن النعمَ قد تكون مادية وقد تكون معنوية.

يُحكى أن بعض القراء اشتد به الفقرُ، حتى ضاق به ذرعًا، فرأى في المنام كأن قائلًا يقول له: أتودُ أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألفتَ

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧

(٣) ابن القيم: عدة الصابرين ص٢٠٤.

دينار؟ قال: لا، قال فسورة هود؟ قال: لا، قال فسورة يوسف؟ قال: لا، فعدد عليه سورًا، ثم قال: فمعك قيمة مائةِ ألف دينار، وأنت تشكو، فأصبح وقد سري عنه[١].

أجل لقد كان العارفون يشكرون الله على كلِّ نعمة وهبهم الله إياها.

وهذا الإمام المزني -تلميذ الشافعي- يرحمهما الله، كان مجابَ الدعوة، وذا زهد وتأله، أخذ عنه خلق من العلماء، وبه انتشر مذهب الإمام الشافعي في الآفاق، وألف مختصرًا في الفقه امتلأت البلادُ به، حتى قيل: كانت البكرُ يكون في جهازها نسخةٌ من مختصر المزني، هذا الإمامُ بلغ من شكره كما قال الذهبي: إنه كان إذا فرغ من تبييضِ مسألة، وأودعها مختصره صلى لله ركعتين[٢].

أيها المسلمون! وإذا زادتكم سيرُ الشاكرين شكرًا، فإن نهاية الجاحدين للنعم تنهاكم وتخوفكم من الكفرِ بالنعم، وقصصُ القرآنِ للذكرى والعبر، لا لمجرد السلوةِ والنظر، وهاكم نموذجين لعدم الشكر وعاقبةِ الجحود في القرآن، يمثل الأول (سبأ) الذين كانوا في نعمةٍ وغبطة، وعيش هنيء رغيد، بلادهم رخيَّة، وأماكنهم آمنة، وقراهم بالخيرات متواصلة، حتى أن مسافرهم لا يحتاج لحملِ زادٍ ولا ماء بل يجد ذلك أنَّى نزل، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى، فلما أعرضوا ولم يشكروا أنزل الله بهم بأسه، وخرب ديارهم، وفرق جمعهم وجعلهم أحاديث للناس، حتى أن العربَ لتقول في القوم إذا تفرقوا (تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ، وتفرقوا شهر مذر).

---

(١) الإحياء ص٢٢٧٦.

(٢) سير أعلام النبلاء١٢/ ٤٩٣، ٤٩٥.

وصدق الله ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[١].

أما النموذج الثاني فيمثله أصحاب القرية الذين قال الله فيهم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٢].

عباد الله! ليس من الشكر لله تضييع الواجبات كإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحوها من شعائر الدين. وليس من الشكر فعلُ المحرمات كالزنا وتناول المسكرات والمخدرات، وتعاطي الربا وقطع ما أمر الله به أن يوصل ونحوها من المحرمات.. ليس من الشكر فشو العداوةِ والبغضاء والتنافر بين المسلمين، والمودة والموالاة للكافرين..

لابد أن تلهجَ ألسنتنا بالذكر والشكر لله، ولابد أن تصح القلوب من الغل والحقد والحسد، ولابد أن تشهد جوارحنا على ذلك بعملِ الصالحات والبعدِ عن المحرمات.

تذكر يا عبد الله أن شكرك لنفسك وأن الله غني عنك ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٣].

وكن على يقين بزيادة النعم بعد الشكر، قال الفضيل بن عياض: من عرف

---

(١) سورة سبأ، الآيات: ١٥-١٧.

(٢) سورة النحل، آية: ١١٢.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٢.

نعمة الله بقلبه، وحدث بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[(١)][(٢)].

اللهم ما أصبح بنا من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر.

اللهم زدنا ولا تنقصنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، اللهم أعطنا ولا تحرمنا. هذا وصلوا...



(١) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٢) عدة الصابرين، ١٩٤.

اليقظة ورقة القلب[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له..

وأشهد أن لا إله إلا الله...

أيها المسلمون! التقوى وصية الله للأولين والآخرين، وهي سببُ النجاة والفلاح في الدارين: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٢].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣].

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم آت نفوسنا تقواها، اللهم زكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

عباد الله! فرق كبيرٌ بين الغفلة واللهو وقسوة القلب وبين اليقظة ورقة القلب وخشوعه وإنابتهِ إلى الله. وتبلغ قسوة القلب عند بعض الناس إلى درجةٍ ينقلب فيها القلبُ إلى حجر صلد، لا يترشح منه شيء، ولا يتأثر بشيء، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٤].

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٨/٧/١٤١٨هـ.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ٧٤.

وصاحب هذا القلب وإن تقلَّب بين الناس حيًا، فهو في عداد الموتى، تمر عليه الآيات والزواجر، ويبصر في الكون وفي ذات نفسه من آلاء اللهِ ما يهز القلوب الحيَّة، وتتصدع له الجبالُ الرواسي، ولكنها لا تحرك فيه ساكنًا، لا تؤثر فيه موعظةُ الموت، وإن شيع أكثر من جنازة، بل ربما حمل الجنازة بنفسه، وواراها بالتراب، ولم تتحرك منه عبرةٌ أو تنزل له دمعة، ولربما سار بين القبور كسيره بين الأحجار؟!

ولو قُدر له أن يناجيَ أهلَ القبور قائلًا: ماذا عندكم؟ وما هي أمانيكم؟ لقالوا: تركنا كلَّ شيء، ولم نحزن على شيء من الدنيا، سوى ساعة مرت بنا لم نعمل بها صالحًا، وما من حسرة هي أشدُّ علينا من لحظة عصينا الله وبارزناه بالمعاصي إن سرًا أو جهرًا.. ولكنا نرجو رحمة الله فأنفسنا رهينة بما كسبت، ولو خرجنا إلى الدنيا لرأيتم كيف نعملُ للآخرة، ولكن هيهات، وحقٌ على الأحياء أن يتعظوا بالأموات، لقد تزوجت نساؤنا، وقُسِّم ميراثُنا.. وما بقي لنا أنيسٌ في ظلمة القبر سوى أعمالُنا الصالحة.. وكم تمنينا أن بيننا وبين ما عملنا من سوءٍ أمدًا بعيدًا.. وحق على الأحياء أن يستدركوا ما فات الموتى؟

ترى أيُّ قسوة للقلب تجعل صاحبها غافلًا لاهيًا عما خلق له، منهمكًا في جمع ما ليس له، يُعلق قلبَه بغير خالقه، ويخشى فوات ما هو مقدور له ويزهد في عمل هو سُر سعادته وأنسه -ألا إن قسوة القلب وغفلته عقوبةٌ معجلةٌ له، والويل له إن لم يتدارك نفسه ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١).

قال مالك بن دينار: «**ما ضرب عبدٌ بعقوبةٍ أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم**»(٢).

---

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٤٨.

أيها المسلمون! أما أهلُ الإيمان وأصحاب القلوب الحية الخاشعة فأولئك الذين أنعم الله عليهم وشرح صدورهم، وهم على نورٍ من ربهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[1].

ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قلنا يا رسول الله: كيف انشراحُ الصدر؟ قال: «**إذا دخل النور القلبَ انشرح وانفتح**»، قلنا: يا رسول الله: وما علامة ذلك؟ قال: «**الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**».

وفي الحديث الآخر من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلًا قال: «يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ قال: «**أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم له استعدادًا، وإذا دخل النورُ في القلب انفسح واستوسع**» قالوا: فما آية ذلك؟ فذكر الخصال الثلاث.

قال القرطبي -معلقًا على الخصال التي بها يُستحصل على انشراح الصدر- ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان، فإن الإنابة إنما هي أعمال البر، لأن دار الخلود إنما وضعت جزاءً لأعمال البر.. فإذا جدَّ العبدُ في أعمال البر فهو إنابتُه إلى دار الخلود، وإذا خمد حرصُه عن الدنيا ولهى عن طلبها وأقبل على ما نعنيه منها فاكتفى به وقنع فقد تجافى عن دار الغرور، وإذا أحكم أموره بالتقوى، فكان ناظرًا في كل أمر واقفًا متأدبًا متثبتًا حذرًا، يتورع عما يريبه إلى ما لا يريبه فقد استعد للموت، فهذه علامتهم في الظاهر[2].

عباد الله إذا كان للقسوة مظاهرها وآثارها على أصحابها، فللرقة والخشوع

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/٢٤٧.

آثارُها، فهي من علائم الإيمان. وسيما أولي الألباب ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[1].

وهي أمارة العلم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2].

وبالخشية والخشوع والرقة تتحات الخطايا وقد ورد «**إذا اقشعر جلدُ المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقها**».

وبه يحرمه الله على النار، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اقشعر جلدُ عبدٍ من خشية الله إلا حرمه الله على النار**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلجُ النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعودَ اللبن في الضرع...**» الحديث[3].

وبالخشية والبكاء الصادق أمانٌ - بإذن الله من عذاب يوم القيامة قال عليه الصلاة والسلام: «**من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيبَ الأرض من دموعه لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة**»[4].

---

(١) سورة الرعد، الآيات: ١٩- ٢١.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧- ١٠٩.

(٣) المستدرك ٤/ ٢٦٠، الترمذي ١٦٣٣، ٢٣١١. وقال حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الحاكم (٤/ ٢٦٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

والخاشع الباكي خاليًا لذكر الله أحدُ السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . . **«ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**.

وما من شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين، قطرة من دموع من خشية الله، وقطرةُ دمٍ تُهراق في سبيل الله، وأما الأثران، فأثرٌ في سبيل الله، وأثر فريضة من فرائض الله»[١].

ومن آثار الخشية والرقة والخشوع قبولُ الدعاء، ذلكم لأن قلبَ الخاشع هنا حاضرٌ مع الله مستشعرٌ عظمته وضعفَ نفسه، عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء ﵂ قالت: إنما الوجلُ في قلب الرجل كاحتراق السعفة أما تجد إلا قشعريرة؟ قلتُ: بلى، قالت: فادع فإن الدعاءَ عند ذلك مستجاب. وكان أحدُهم يعلم استجابة دعوته من وجل قلبه ودموع عينيه.

وعن ثابت البناني قال: قال لي فلان: إني لأعلم متى يُستجابُ لي، قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي وفاضت عيناي فذلك حين يستجاب لي[٢].

إخوة الإيمان ما أحوجنا إلى طول الخشية والرقة والبكاء في الدنيا . . حتى نأمن ونفرح بلقاء الله، يوم التلاق.

خطب رسول الله ﷺ أصحابه يومًا فقال: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضعٌ جبهته ساجدًا لله! والله لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**،

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ووافقه على تحسينه غيره. صحيح سنن الترمذي ٢/ ١٣٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٥٠.

وما تلذذتم بالنساء على الفرشِ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله..»(١).

وفي صحيح البخاري قال عليه الصلاة والسلام: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين(٢).

عباد الله يا من تبحثون عن النجاة تأملوا في أنفسكم وابكوا على خطاياكم، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتُك، وابك على خطيئتك**»(٣).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾(٤). نفعني الله وإياكم.



(١) رواه الترمذي وحسنه، وحسنه غيره (صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٦٨)، وصححه ابن العربي (عارضة الأحوذي ٩/ ١٩٤، الأربعون حديثًا في الرقة والبكاء ص٢٩).

(٢) كتاب التفسير. سورة المائدة ٥/ ١٩٠، الأربعون في الرقة؛ محمد خير يوسف ص٢٧.

(٣) رواه الترمذي حسنه (صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٨٧).

(٤) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧- ٦١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين وعد من خافه جنتين، وتوعد من عصاه نارًا وسمومًا وظلًا من يحموم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ الظالم لم يفلته، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، كان يسمع لصدره -إذا صلى- أزيز كأزيز الرحى، أو كأزيز المِرْجل من البكاء.. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين.

عباد الله، هناك أمور وأسباب تدعو للرقة والبكاء(١) ومنها: مسحُ رأس اليتامى، وإطعام المساكين.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبهِ، فقال: «**امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**»(٢).

وزيارةُ القبور تُرقق القلوب، كما قال ﷺ لأبي ذر ﷺ: «**زُر القبور تَذكرُ بها الآخرة، واغسل الموتى فإن معالجة جسدٍ خاوٍ عظةٌ بليغة، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين في ظل الله يوم القيامة**»(٣).

وقراءة القرآن قراءة متدبرةً تخشع لها القلوب، وتلين لها الجلود وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ

---

(١) وعلى من يجدون قسوة في قلوبهم أن يستعينوا الله بفعلها.

(٢) رواه أحمد، وقال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/ ١٦٣).

(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٣٣٠).

جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[١].

ومن دواعي البكاء والخشية لله استشعار العبدِ مِنَّةَ اللهِ عليه لخير أصابه، فشكر الله عليه ولم يتمالك عينيه من البكاء، وهذا رسول الله ﷺ يقول لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن**»، قال أبى: آللهُ سماني لك؟ قال: «**الله سمَّاك**» فجعل أُبي يبكي.

وفي رواية للبخاري أيضًا: قال أبي: آلله سماني لك؟ قال: «**نعم**» قال: وذكرت عند رب العالمين؟ قال: «**نعم**»، فذرفت عيناه...[٢].

ومما يرقق القلب ويُبعد وحشته ويخفف قسوته مجالسةُ العلماء ومصاحبةُ الأخيار، فهؤلاء يذكرون الآخرة، قال الحسنُ البصريُ يرحمه الله: إخوانُنا أغلى عندنا من أهلينا، فأهلونا يذكروننا الدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة»[٣].

ومما يرقق القلب تعاهُده بالإيمان إذا ضعف، والمبادرةُ إلى عمل الحسنة بعد السيئة حتى تمحو أثرها، وقد ورد ما يفيد تقلب القلب وأن الله يقلبه كيف شاء، وورد أيضًا في حديث صحيح أن رسول الله ﷺ قال مشبهًا للقلب بضوء القمر: «**ما من القلوب قلبٌ إلا وله سحابةٌ كسحابةِ القمر، بينا القمرُ مضيء إذ علته سحابة فأظلم، إذ تجلت عنه فأضاء**»[٤].

وإذا كان هذا شأن القمر، فقلبُ المؤمن تعتريه أحيانًا سحبٌ مظلمة من

---

(١) سورة الزمر، آية: ٢٣.

(٢) الحديث متفق على صحته في كتاب التفسير (لمن يكن) ومناقب الأنصار (مناقب أُبي) ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل..).

(٣) المنجد، ظاهرة ضعف الإيمان ص٢٤.

(٤) رواه أبو نعيم وهو في السلسلة الصحيحة ٢٢٦٨، ظاهرة ضعف الإيمان ص٣٢.

المعصية فيحجب نورَه، فيبقى صاحبُه في ظلمة ووحشة، فإذا سعى لزيادة إيمانه واستعان بالله في عمل الصالحات انقشعت تلك السحب وعاد نورُ قلبه يضيء كما كان.

ولهذا قال بعض السلف: من فقه العبدِ أن يتعاهدَ إيمانَه، وما ينقص منه، ومن فقه العبد أن يعلمَ أيزدادُ إيمانُه أو ينقص؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطانُ أنى تأتيه؟[1].

أيها المسلمون مستحيل أن يسلمَ العبدُ من الذنوبِ والأخطاء، ولو شاءَ اللهُ ذلك لجعلَ في الأرضِ ملائكة مقربين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، بل اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الخليفة في الأرض بشرًا يحقق العبودية لله في أرضه، يذنبُ فيستغفر ويخطئ فيتوب، ويذكر الله إذا نسي، ولقد نسي أبو البشر آدم ما عهد إليه ربه، وأزله وزوجه الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه، وأهبط إلى الأرض فكانت مستقرًا لهما ولذريتهما، واستمر الشيطان يوسوس لهم ويزين، ولم تقتصر وسوسةُ الشيطان على الفجار والمجرمين بل شملت المتقين، ولكن ميزة هؤلاء أنهم يتذكرون ويستغفرون فيبصرون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[2].

وهذا يعني أن الإنسان لا يمكن أن يستمر طيلة حياتهِ على الرقةِ والخشوع والبكاء إذ هو إنس مفتونٌ مُبتلى في هذه الحياة، وحسبُه أن يجاهد نفسه على الثبات على دين الله، وتجديد التوبة وكثرة الاستغفار، وألا يصر على كبيرةٍ ولا يستخف بصغيرة، وعليه أن يتذكر إذا ذُكِّرَ.

---

(١) شرح نونية ابن القيم لابن عيسى ٢/ ١٤٠، ظاهرة ضعف الإيمان ص٣٣.

(٢) سورة الأعراف، ٢٠١.

يقول عليه الصلاة والسلام: «**ما من عبدٍ مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة أو ذنبٌ هو مقيمٌ عليه لا يفارقُه حتى يفارق الدنيا، إن المؤمنَ خُلق مُفتنًا، توابًا، نسيًا، إذا ذكِّر ذكر**»[(١)].

يُقال هذا حتى لا ييأسَ قساةُ القلوب من رقتها إذا تعاهدوا أنفسهم، وجاهدوا أهواءهم وشياطينَ الجنِّ، وإخوانهم الذين يمدونهم في الغيِّ ثم لا يقصرون، وحتى لا يقنط المسرفون على أنفسهم بالمعاصي من رحمة الله، فالله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب إليه واسترجع، ويقال ذلك حتى لا يداخل نفوسَ الخيرين العجبُ بأعمالهم، ولذا قال ابن القيم ﵀: «**فلولا تقديرُ الذنبِ هلك ابنُ آدم من العجب**» وقال ابن الجوزي: «**إن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شرٌّ من فوتِ ما فاتها وهو العجبُ بحالها والاحتقار لجنسها..**».

عباد الله إن تغييب الخاتمة عن الإنسان سرٌّ عجيب، وفيه حكمة بالغة وتدبير لطيف لأنه لو علم وكان ناجيًا أُعجب وكسل، وإن كان هالكًا ازداد عتوًا فحُجِب عنه»[(٢)].

عبادَ الله وإذا كان الفرق كبيرًا بين أهل اليقظة وأهل الغفلة فأهلُ اليقظة أنفسهم متفاوتون في سيرهم إلى الله، يقول الشيخ السعديُّ يرحمه الله: «**سبحان من فاوت بين أهل اليقظة في قوة السير وضعفه، وفي استغراقِ جميعِ الأوقاتِ في العبادة وعدمِه، منهم من يكون سيرُه مستقيمًا في ليله ونهاره، ومع ذلك يتخيرُ من الأعمال أفضلها وأكملها، ولا ينزل من فاضلها إلى مفضولها إلا لمصلحة تقترن بالمفضول توجبُ أن يساويَ العملَ الفاضلَ، ويزيدَ عليه وقد**

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس، وهو في صحيح الجامع ٥/ ١٧٢.

(٢) معالم في السلوك ص١٠٠، عن السلوم: إذا صح الإيمان ص١٠٣.

يكون المباحُ في حقِّ هذا عبادةً لكمال إخلاصه، ونيتُه بذلك المباحِ أن يُجمَّ به نفسه ويتقوى به على الخير، فتراه ينتقل في مقامات العبودية في كل وقت بما يناسبه ويليق به، لا فرق عنده بين العبادة المتعلقة بحقوق الله المحضة، وبين العبادة المتعلقةِ بحقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وأحوالهم. .»[١].

هذا فضل من الله يؤتيه من يشاء. . اللهم لا تحرمنا فضلك، واسلك بنا سبيلك، وأعنا على أنفسنا ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

هذا وصلوا . . .



(١) الفتاوى السعدية ص٤٩- ٥١.

بين الآباء والأبناء(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٤).

أيها المسلمون الذرية في شريعة الإسلام نعمةٌ وهبة، وزينةٌ ومفخرة، وفي الوقت نفسه هم فتنةٌ وعدوٌ، وهم مجبنةٌ مبخلة.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(٥).

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٤١٨/٨/٥هـ.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٥) سورة الشورى الآيتان: ٤٩، ٥٠.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وما فتئ الصالحون يدعون لأبنائهم ويرفعون أكف الضراعة لهدايتهم، ويبذلون ما في وسعهم لاستقامتهم كيف لا؟ وهم زينتُهم وقرةُ عيونهم ما داموا أحياء والوارثون لهم والداعون لهم إذا كانوا أجداثًا رممًا ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾(٣).

كذا قال أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وقال زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾(٤).

ويصدق الداعون ويستجيب الله الدعاء، والدعوة ذات هدف ومعنى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

(١) سورة الكهف، آية: ٤٦.
(٢) سورة التغابن، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٣) سورة إبراهيم الآيات: ٣٧-٤٠.
(٤) سورة مريم، الآيتان: ٥، ٦.

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١].

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٢].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ الآية[٣].

لذا تتجه أنظار الأنبياء بالدعوات الصادقة للأبناء وهدفُهم من الذرية تحقيق العبودية لله، يقيمون الصلاة، ويشكرون أنعم الله، فليست دعواتهم لذرية مطلقة كلا بل مقيدة بالصلاح «**ذريةً طيبة**»، ومن أولياء الله «**فهب لي من لدنك وليا**».

أوابين له ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٤].

ويستمر الآباء في الدعوة والدعاء للأبناء وإن أحسوا منهم جنوحًا عن سبيل الهدى، وانحيازًا عن ركب المؤمنين ولكن الهداية بيد الله وحده لا يملكها الأنبياء المرسلون، ولا الملائكة المقربون.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[٥].

وحين ألح نوحٌ في الدعاء ونادى ربه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

قال الله له: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة ص، آية: ٣٠.

(٣) سورة النمل، آية: ١٦.

(٤) سورة ص، آية: ٣٠.

(٥) سورة هود، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[١].

ترى هل يتخذ الآباء من سلوك الأنبياء منهجًا وقدوةً؟

إخوة الإيمان . . من الأبوة إلى البنوة لنقف على نماذجَ عالية في الدعوة والطاعة والرضا والتسليم طاعةً للوالدين وإحسانًا إليهما . .

وتأملوا هذا الأدب الرفيعَ والحوار المعبر والدعوة الحانية للخير بلطف في العبارة ولهف للاستجابة: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[٢].

وإذا كان هذا خطاب الابن المسلم لأبيه الكافر فماذا ينبغي أن يكون خطاب الابن المسلم لأبويه المسلمين؟

والبر لا يبلى، فقد وهب الله إبراهيم عليه السلام ذرية صالحة وجعل فيهم النبوة والكتاب، وحين امتُحن أحدُهم، وكان البلاء المبين وَفَى الابنُ لأبيه، واستسلم الأبُ والابنُ لأمر الله طائعين، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[٣].

أجل لقد بقيت كلمات إسماعيل عليه السلام برهانًا للصدق والوفاء والطاعة والاستسلام بوعي، والصبر عن يقين ورضا . . ، وما من شكٍّ أن الموقف حَرجٌ، وأن المطلوب صعبٌ. . لكنه برُّ الأبناء. . والوفاء للآباء ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ

(١) سورة هود، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٤١- ٤٥.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣، ١٠٦.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١).

ويظل يوسف عليه السلام يذكر آباءه بخير وهو في غياهب السجن: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾(٢).

ولا ينسيه المُلك أو يطغيه الجاهُ والسلطان عن طلب والديه وأهله وحين دخلوا عليه مصر ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾(٣).

أيها الأبناء تأدبوا غاية الأدب جمع والديكم وقولوا لهما قولًا كريمًا، وقدوهما حقَّ قدرهما.

أورد النوويُ يرحمه الله في كتاب (الأذكار) في باب نهي الولد والمتعلم والتلميذ أن يُنادي أباه ومعلمه وشيخه باسمه فقال: روينا في كتاب ابن السُّني عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلًا معه غلام، فقال للغلام: «**من هذا؟**» قال: أبي، قال: «**فلا تمش أمامه، ولا تَسْتَسِبَّ له، ولا تجلس قبله، ولا تدعُه باسمه**»، قلت (النووي): معنى لا تستسب له: أي لا تفعل فعلًا يتعرضُ فيه لأن يَسبَّك أبوك زجرًا لك وتأديبًا على فعلك القبيح.

أيها الآباء أدبوا أولادكم بآداب الإسلام واسألوا الله لهم الهداية والصلاح فالله هو الهادي والمصلح.

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٠٢

(٢) سورة يوسف، آية: ٣٨.

(٣) سورة يوسف، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

روى البخاري في الأدب المفرد عن الوليدِ بن نمير بن أوس أنه سمع أباه يقول «**كانوا يقولون: الصلاحُ من الله والأدبُ من الآباء**»(١).

أعوذ بالله من الشيطان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.



---

(١) بناء شخصية الطفل المسلم، محمد عثمان جمال ص٨٥، ٨٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إمام المتقين وقائد الغر المحجلين، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين.

أيها المسلمون: من مقامات الأنبياء إلى وصايا الحكماء يقص القرآنُ علينا نموذجًا لتربية الآباء ووصاياهم للأبناء، وفضلُ الله يؤتيه من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ولو كان الحكيمُ عبدًا حبشيًا، قصيرًا، أفطسَ الأنف، ذا مشافر عظيم الشفتين، مشقق الرجلين. وكذا كان لقمانُ الحكيم.. ولكن الله رفع ذكرَه بالإيمان والتقى والصدق واليقين، فقد كان عبدًا صالحًا وآتاه الحكمة ولم يكن نبيًا(١).

وبدت حكمتُه لسيده حين أمره قائلًا: اذبح لي شاةً وائتني بأطيبها مُضغتين، فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيء أطيب من هذين؟

فسكت، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له: ألق أخبث مضغتين فيها، فألقى اللسانَ والقلب، فقال له: أمرتُكَ أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب وأمرتك أن تُلقيَ أخبثَها فألقيت اللسانَ والقلب؟ قال لقمان: إنه ليس شيء أطيبَ منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثًا(٢).

إخوة الإيمان كم يمرُّ بنا ذكرُ لقمانَ ووصاياه العظام فلا تلفت أنظارنا كثيرًا، وربما لم تحرك عند البعض منا ساكنًا، وفي وصايا لقمانَ لابِنه وهو يعظه دروسٌ

(١) تفسير القرطبي ٤ ٩/ ٥٩، ابن كثير ٣/ ٧٣١.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٦١.

للآباء والأبناء، وفي مواعظِه ما يحيي به اللهُ القلوبَ الغافلة ذكرانًا كانوا أم إناثًا أن أولَ ما تتجه له عاطفةُ الأب الناصح لابنه أن يدعو بعبادة الله وحده ولا يشرك به شيئًا: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فالعبوديةُ لله وحده هدفُ الوجود.. وهي أساسُ دعوة الرسل، والشرك محبطٌ للأعمال موجب للخسران ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

ولئن قيل إن ابن لقمان، وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما[3].

فحري بالآباء أن يُحذِّروا الأبناء من طرائق الشرك ووسائله وإن كانوا في الأصل مسلمين، وكذلك نزل القرآنُ محذرًا المؤمنين عن الشرك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[4].

قد شقت هذه الآيةُ على الصحابة حين نزلت، وقالوا للنبي ﷺ: وأينا لا يظلم نفسَه، فأجابهم رسول الله ﷺ ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[5]. ويلفت لقمانُ نظرَ ابنه إلي عظيم قدرةِ الله فالحبةُ وإن كان قدرها صغيرًا، والحسُّ لا يدرك لها ثقلًا، ولا تُرجِّح ميزانًا لخردلة، فالله يعلم وجودها، ولو كانت محصنة محجبة داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض فإن الله يأتي بها فلا

---

(١) سورة لقمان، ١٣.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

(٣) ذكره القشيري، تفسير القرطبي ١٤/ ٦٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

(٥) الحديث رواه مسلم.

تخفى عليه خافية ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾(١).

قيل أن لقمان هنا وعظ ابنه ألا يشغله الرزقُ عن أداء فرائض الله فلو كان رزقُ الإنسانِ مثقالَ حبةِ خردلِ في هذه المواضع جاء بها الله حتى يسوقها إلى من هي رزقُه.

وقيل المعنى تخويفٌ عن اقترافِ المعاصي وتنبيهٌ لرقابة الله ولو ظن العاصي أنه لا يُرى.

فقد روي أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبتِ إن عملتُ الخطيئةَ حيث لا يرانا أحدٌ كيف يعلمها الله؟ فقال له لقمان: يا بُني إنها إن تك مثقال حبةٍ من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتي بها الله.. فما زال ابنه يضطربُ حتى مات ذكره مقاتل، ونقله القرطبي(٢).

أيها المسلمون لا يزال لقمانُ يوصي ابنه، وينقله من موعظةٍ إلى أخرى.. وتحتاجُ بقيةُ الوصايا إلى خطبة أخرى ولكني أقفُ في النهاية مستخلصًا أعظمَ ما ينبغي أن يمنحه الآباءُ للأبناء، ومن الاستعراض الموجزِ لسلوكيات الأنبياءِ أو الحكماء نعلم حاجة الآباء إلى تخصيص أبنائهم بالدعوة والدعاء، وأن يمنحوهم الأدب، ويمحضوهم النصحَ، ويخصوهم بالوصايا والعظاتِ النافعة، «**فما نحل والدٌ ولدًا من نحلٍ أفضل من أدبٍ حسن**»(٣).

وعلى الأبناء أن يخلصوا الطاعة لله، وأن يكونوا مثالًا للطاعة بالمعروف

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٦٧.

(٣) رواه الترمذي.

والبرِّ والإحسان إلى والديهم، والشكر لهم، كيف لا، وقد قرنَ شكرُ الله بشكرهما «**أن اشكر لي ولوالديك**» قيل: الشكرُ للهِ على نعمةِ الإيمانَ وللوالدين على نعمة التربية، وقال سفيانُ بنُ عيينة: «**من صلى الصلوات الخمسَ فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما**»[(١)].

ما أحوجَ الأبناءَ للقول الكريم للآباء والله يقول: «**وقل لهما قولًا كريمًا**».

أورد القرطبي في أدب الخطاب مع الوالدين عن أبي البَدَّاح التُجيبي قال: قلت لسعيد بن المسبب: كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفتُه إلا قوله: «**وقل لهما قولًا كريمًا**» ما هذا القولُ الكريم؟ قال ابن المسيب: قولُ العبدِ المذنب للسيد الفظِّ الغليظ»[(٢)].

اللهم وفق الآباء وأصلح الأبناء، واجعلنا جميعًا ممن ينتفع بمواعظ القرآن وطرائق الأنبياء ووصايا الحكماء.



(١) تفسير القرطبي ١٤/ ٦٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٤٣، وانظر: محمد جمال، بناء شخصية الطفل ص٨٤.

دروس من جلاء بني قينقاع[(١)]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(٣)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٤)].

أيها المسلمون لا بد بين الفينة والأخرى من إطلالة على سيرةِ المصطفى ﷺ، تُنير الطريقَ للسالكين وتكشف حقائقَ الأعداءِ والأصدقاء للناس أجمعين فسيرةُ محمدٍ ﷺ، وهديُه فصلٌ عند التنازع والاختلاف.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[(٥)].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٩/٨/١٤١٨هـ.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣٥.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

وبسنتِه يتعَبد المسلمون الذين يرجون الله واليوم الآخر.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[(١)].

وليس يخفى أن حياته ﷺ كلَّها جهادٌ ونصيحة وصبرٌ ومصابرة حتى أظهر الله الدينَ ونصر المسلمين ولئن طارده قومُه في مكة وآذوه وأصحابه حتى فروا بدينهم مهاجرين إلى المدينة.. فلم تكن الحياةُ بالمدينة صفوًا من المكدرات، أو نوعًا من حياةِ الدعةِ والكسلِ والبعدِ عن المنغصات.

لقد ابتدأت بالمدينة مرحلةُ الجهادِ في سبيل الله إعلاءً لكلمةِ الله -وتكاثرت الخصومُ، بين يهودٍ حاسدين شامتين ومنافقين متربصين مرجفين، وفي أطراف المدينة أعرابٌ مشركون يتطلعون إلى ثمار المدينة وخيراتها بشراهة ومن وراء هؤلاء وأولئك الخصومُ الأولون كفارُ قريش يؤلِّبون ويُحرِّضون ويدعمون بأموالهم، ويدفعون بأبنائهم لخوضِ المعارك حتى لا تقومَ للدين قائمة ويأبى اللهُ إلا أن يتمَّ نورَه ولو كره الكافرون.

دعونا -معاشر المسلمين- نقف على خصمٍ من هذه الخصوم في المدينة.. كان له أثره في إنشاءِ ورعايةِ خصوم آخرين إنهم اليهود، ومن اليهود سأقصر الحديث على (يهود بني قينقاع) وفي أحداثهم ومواقفهم عبرةٌ لمن تأمل.

أيها المؤمنون وليس يخفى أن اليهود بشكل عامٍ كان لهم وجودٌ مؤثرٌ في المدينة، وإن لم يكونوا أكثريةً فيها، فبأيديهم المال، ولديهم قدرةٌ خبيثةٌ على إذكاء الحروب بين الأوس والخزرج، وهم أهلُ علمٍ وكتاب، ومن حولهم جهلةٌ لا يدرون ما الكتابُ ولا الإيمان.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

ولذا استطاعوا أن يُدخلوا في دينهم بعضَ أهل المدينة فكان في المدينة يهودُ أصلاءِ، ومتهودون متأثرون بهم (كيهود بني عوف مثلًا) بل بلغت فتنةُ اليهودِ بالمدينة أن المرأةَ من نساءِ الأنصار تكون مقلاةً -أي لا يعيش لها ولد- فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوِّدَه، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندعُ أبناءَنا فأنزل الله ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

ولأهميةِ وجودِ اليهودِ في المدينة عاهدهم الرسول ﷺ حين عاهدَ أهلَ المدينة -وتضمنت بنود المعاهدة ما يكفلُ حقوقهم ويمنع شرورهم، ويهيئ الفرصة للنبي ﷺ لكي يسلمَ من أذاهم ويتفرغَ وصحبُه لجهادِ غيرهم ونشر الدين الحقِّ في المدينة وخارجها، حتى إذا انتشر الدين وكثر الداخلون فيه قلَّ أثرُهم وأمكن القضاءُ عليهم، أو جلاؤهم.

عباد الله لقد كان اليهودُ شوكة في حلوق المؤمنين قبلَ المعاهدةِ وبعدَها، وفي أولِ مقدمه المدينة، وبعد أن استقرَّ فيها.

أخرج أبو داود وغيرهُ بسند صححه ابنُ حجر قال كعبُ بن مالك الأنصاري رضي الله عنه: «**كان المشركون واليهودُ من أهلِ المدينة حين قدمها رسول الله ﷺ يؤذون النبي ﷺ وأصحابَه أشدَّ الأذى، فأمر الله نبيه ﷺ بالصبر على ذلك والعفو عنهم، وفيهم أُنزلت الآية: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا﴾**»[2].

ثم كتبت وثيقة المعاهدة مع اليهود، وتضمنت فيما تضمنت «أن بينهم النصر

(١) أخرجه أبو داود في سننه وغيره بسند صحيح ٣/ ١٣٢، د. العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٩٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٩، سنن أبي داود ٣/ ٤٠١، أسباب النزول للواحدي ص١٢٩، العمري ١/ ٢٨٩.

على من حارب أهلَ هذه الصحيفة، والنصحَ والبر دون الأثمن».

بل تضمنت بنودُ الوثيقةِ أن اليهودَ ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين (بنود ٢٤، ٢٧) إلى آخر بنود الوثيقة فهل التزم اليهود بالمعاهدة، والرسول ﷺ هو المعاهد؟

لقد كان يهودُ بني قينقاع أولَ يهودٍ نقضوا العهد مع الرسول ﷺ وَنقضِهم للعهدِ جاء بطريقة خسيسةٍ لئيمة، وأيًا ما كان أحدُ السببين أقوى سندًا من الآخر، ففي كليهما تتكشف أخلاقُ اليهودِ وحقدُهم على المسلمين.

أما السببُ الأضعفُ سندًا -وإن كان مشهورًا، فيشير إلى أن امرأةً مسلمة قدِمت بجلبٍ لها فباعتهُ بسوقِ بني قينقاع، وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغُ إلى طرفِ ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتُها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديًا، فشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع[(١)].

أما السببُ الآخرُ -في جلاء بني قينقاع- فقد رواه ابنُ إسحاق بسند حسنه ابنُ حجر، وهو يكشف عن غرورِ اليهود وعجبهم بأنفُسهم واحتقار غيرهم وإن لم يكن لذلك أثرٌ ورصيدٌ على صعيد الواقع، ويكشف كذلك عن حسدِ اليهود لأي نعمةٍ تنزل بالمسلمين، فقد ذكرت كتبُ السير -في هذا السبب- أن الرسول ﷺ حين انتصر على المشركين في معركة بدر، رأى أن يجمع بني قينقاع

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٤٢٧، وانظر: من معين السيرة للشامي ص٢٢٣، وقد نقل ضعفها، والعمري في السيرة ١/ ٣٠٠ كذلك، ومهدي ص٣٧٠.

وينصحَهم ويذكِّرهم العَهد ويخوِّفهم الغدرَ ولعله سمع شيئًا من ذلك عنهم، فاجتمع بهم في سوقهم وقال: «**يا معشر يهود احذروا من اللهِ مثل ما نزل بقريشٍ من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهدِ الله إليكم**»، قالوا: يا محمد: إنك ترى أنَّا قومك؟ لا يغرنَّك أنك لقيتَ قومًا؛ لا علم لهم بالحربِ فأصبتَ منهم فرصةً إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، ونزل فيهم قولهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ كما نُقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

وليس يخفى ما في هذه الكلمات من تهديدٍ، وإظهار الروحِ العدائية للمسلمين، ونكوصٍ عن قبول الحق، واستهجانٍ بقوة المسلمين رغم انتصارهم فإذا أضيف إلى ذلك ما ورد في السبب الأول -إن صح- يتبين لنا نقضُ اليهودِ للعهودِ، وتحينُهم الفرصةَ للغدر بمن يعاهدون ولو كان المعاهدُ نبيًا مرسلًا.. ولو كان العهدُ بالنصر قريبًا فإذا كان هذا واقعهم مع من يعرفون نبوتَه كما يعرفون أبناءهم، وتلك حالُهم مع المسلمين في وقت عزِّهم واجتماع كلمتهم فكيف يكون حالُهم بعد وفاة الرسولِ ﷺ وفي حالِ ضعف المسلمين وفرقتهم؟

إن الذين يعتقدون التزامًا صادقًا من اليهود بالعهود والمواثيق، أو ينشدون صلحًا آمنًا وسلامًا دائمًا من وراء معاهداتِ السلام معهم، إنما يجرون وراء السراب الخادع ويحرثون في البحر الهائج.. كيف لا وقد حكم ربُّنا وربُّهم عليهم بنقضِ العهود، وليس ذلك حكمًا لفئةٍ منهم بل أكثرهم لا يؤمنون، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٤٢٦، ٤٢٧، الفتح ٧/ ٣٣٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين كتب العزة والغلبة لأوليائه الصادقين وجعل الذلَّ والصغارَ للكافرين والمنافقين وما ربُّك بظلام للعبيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يمتحن الناس في إيمانهم ويبلو صبَرهم، وحقٌّ عليه نصرُ المؤمنين، ويجعل العاقبَّة للمتقين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله جاهد في الله حق جهاده، وفي سيرته وسنته عبرٌ للناظرين..

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين ومن تبعهم إلى يوم الدين.

إخوة الإسلام إذا كان الدرسُ الأولُ في حادثةِ بني قينقاع يكشف عن طبيعة نفسيات اليهود، وتلبُسِهم بالغدر والخيانة وانطواء نفوسهم على الحسدِ والبغضاء والاحتقار للآخرين.

فالدرسُ الثاني يكشف عن حلفائهم وإخوانهم من المنافقين الذين نشأوا على أيديهم، واستمر ودُّهم فيهم، وإن أظهروا للمسلمين المودة وحسبوا عليهم.

أخرج ابنُ إسحاق -بسند صحيح- أن بني قينقاع كانوا أولَ يهود نقضوا ما بينهم وبين رسولُ الله ﷺ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحُد، فحاصرهم رسوله الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقام عبدُ الله بنُ أبي ابنِ سلول إلى رسول الله ﷺ حين أمكنه اللهُ منهم، فقالَ: يا محمد: أحسن في مواليَّ، فأعرضَ عنه، فأدخلَ يدَه في جيبِ درعِ رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **أرسلني**، وغضب حتى رؤي وجه رسول الله ﷺ ظلال، فقال له: **ويحك أرسلني**، فقال: والله لا أرسلك حتى تُحسنَ في موالي أربعمائةِ حاسرٍ، وثلاثمائة دارع منعوني من الأحمرِ

والأسود تحصدهم في غداة واحدة، أي والله، إني لامرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»(١).

إنه الدفاع المستميتُ عن اليهود يصنعه المنافقون، ولو غضب لذلك رسول الله ﷺ، والحرصُ الشديدُ على سلامتهم ولو كان في بقائهم شرٌ وبلاءٌ مستطير، والمنافقون لا يثقون بقوتهم الخاصة، ولا يثقون إلا باليهود تحسبًا لوقوع الدوائر.

ولئن عفى رسولُ الهدى عليه الصلاة والسلام عن ابن أُبي، وتكرم بترك قتلهم استجابةً لمطلب هذا المنافق اللئيم.. فقد تولى اللهُ كشف الحقائق، واقتضت حكمته أن يكشف عن العلاقة بين اليهود والمنافقين في كل زمان ومكان، ونزل قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾(٢).

أجل لقد تتابعت آياتُ القرآنِ الكريم تكشف ما بين اليهود والمنافقين من ودٍّ وتعاون، وإخاءٍ نصَّ الله عليه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾(٣).

ويأبى الله إلا أن تتكشف حقيقةُ النفاق، وينفضحَ المنافقون إثر علاقاتهم المريبة مع اليهود على مرِّ العصور واختلاف الزمانِ والمكان.

---

(١) السيرة لابن هشام، صحيح السيرة النبوية؛ إبراهيم العلي ص١٩٨.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٣) سورة الحشر، آية: ١١.

وإذا حكم اللهُ بالأخوة بين المنافقين واليهود فلا مزيد على هذا الوصف والبيان.

أيها المسلمون.. أما الدرسُ الثالثُ من حادثةِ يهود بني قينقاع فهو درس في الإيمان، اختص اللهُ به أهلَ الإيمان الذين يوالون في الله ويعادون في الله، ويحبون للهِ ويبغضون للهِ وتلك أوثق عرى الإيمان.. ويمثل هذا الموقف الإيماني عبادةُ بن الصامت ﷺ، وتأملوا الفرق بين موقفه مع اليهود الناكثين، وبين موقف عبد الله بن أبي رأسِ المنافقين.

فقد أخرج ابنُ إسحاق في السيرة -بسند صحيح- قال: لما حاربت بنو قينقاع رسولَ الله ﷺ تشبث بأمرهم عبدُ الله بنُ أبي، وقام دونهم، فمشى عبادةُ بنُ الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحدَ بني عوف بنِ الخزرج لهم من حلفهم مثل الذي لهم من حلف عبدِ الله بنِ أُبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم فقال: يا رسول الله: أتبرأُ إلى اللهِ وإلى رسولهِ من حلفهم وأتولى اللهَ ورسولَه والمؤمنين وأبرأ من حلف الكفارِ وولايتهم، ويقال فيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

وهكذا يتضح الفرق بين المنافقين والمؤمنين في الولاء أو البراء من الكافرين.. والمسافة لا شك هائلةٌ بين منافق يُغضب رسول الله ﷺ في سبيل الدفاع عن اليهود والصدِّ عن قتلهم.

وبين مؤمن يتولى أمر جلائهم، فقد كان ذلك لعبادةِ بن الصامت ﷺ منقبةً، ولابن أُبي فضيحةً وخزيًا إلى يوم الدين. ألا ما أحوج الأمة إلى رجالٍ كعبادةِ بن

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

الصامت يقدمون الولاء لله ولرسولهِ وللمؤمنين على كلِّ ولاء، ولا تقعد بهم مصالحهم الشخصية دون مصلحةِ الأمةِ وعقيدتها.. تلك تربيةُ محمد ﷺ وأولئك أفراخ اليهود وربائبهم. وفرق بين الثرى والثريا. وهكذا تظل سيرةُ محمد ﷺ بأحداثِها ودروسها معلمًا هاديًا ودرسًا بليغًا، وَعَتْه الأجيال المسلمة فيما مضى، وينبغي أن تعيَه في زماننا.. وهنا يردُ السؤالُ المهم: إلى متى سيظل المسلمون غافلين عن هدي السيرةِ النبوية؟ وإلى متى سيبقون يتمرغون في أوحال الذلِّ والهزيمة، ويتجرعون كؤوس الفرقة والشتات يرجون اليهودَ تارةً، ويتسيدون النصارى تارة ويقود ركابَهم المنافقون تارة.. ويستثمر اليهود والنصارى هذه الأوضاع المأساوية، فيستحلون المقدسات، ويزيدون في بناء المستوطنات ويُستذل المسلمون، وتستباح المحرمات، ويستحوذ على المقدرات. الجواب باختصار كامن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.



الأيام الفاضلة والأضاحي(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين..

اتقوا الله عباد الله وعظموا شعائر الله، ومن يعظم شعائرَ اللهِ فإنها من تقوى القلوب.

أيها المسلمُ اعمل لدنياك بقدر بقائك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، وإياك والتسويف فالموتُ أمامك والمرضُ يطرُقك والأشغال تتابعك، وحوادثُ الزمان ستفاجئك، والخلاصُ بأمان من ذلِك كلِه أن تستعين بالله، وتبادر إلى عمل الصالحات وتثمِّنَ الأيامَ الفاضلات، وليس يخفاك فضلُ عشرِ ذي الحجة التي أنصرم شطرُها، وشطرُها الآخر يسير على عجل لا ينتظر الغافلين حتى يتذكروا ولا الغارقين في سبات نوم عميق حتى يستيقظوا.

أيها المترددُ في الذهاب للحج وليس ثمة ما يمنعك من مرض أو حاجة.. استعن بالله واعقد العزم فلا يزال في الأمر فرصة، والحجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة. إلا أيها المتقاعسُ عن المسارعة للخيرات في هذه الأيام الفاضلة استدرك ما فاتك، والحق من سبقك، واعمل صالحًا لنفسك، فلا يزال في الأيام فرصةٌ لمن تحركت فيه هممُ الشوقِ إلى الجنان..

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٦/ ١٢/ ١٤١٨هـ.

ألا أيها الراغب في الأضحية يمكنك أن تنوي ذلك وإن لم تعقد العزمَ عليه قبل ذلك، وإذا نويت فأمسك عن الأخذ من شعرِك وبشرتك، ولا إثم عليكم فيما أخذته قبل النية، أما من نوى قبلُ فعليه الإمساكُ عن ذلك من حين دخول العشر(١).

أيها المسلم وإن فاتك الصومُ في هذه الأيام أو بعضها فاحرص ألا يفوتك صيامُ يوم عرفة ففيه من الفضل تكفيرُ ستين (سنةً قبله وسنةً بعده) كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح.

تعرض لنفحات الله في هذا اليوم، فلله في يوم عرفة عتقاءُ من النار، روى مسلمٌ في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**ما من يوم أكثرُ من أن يُعتقَ اللهُ فيه عبدًا من النار من يوم عرفة**».

فاحرص على صيام هذا اليوم، واحرص على الابتهال إلى الله بالدعاء، والذكرِ وتلاوة القرآن، ويوم عرفة لا يتكرر في السنة إلا مرة.

أيها المسلم.. ويوم النحر يوم عظيم من أيام الله، ويغفل عن ذلك اليومِ وجلالةِ شأنِه كثيرٌ من المسلمين، مع أن بعضَ العلماء يراه أفضل أيامِ السنةِ على الإطلاق، مستدلين بقوله ﷺ: «**إن أعظمَ الأيامِ عند الله يومُ النحر ثم يومُ القر**»(٢).

ويوم القرِّ هو الحادي عشر وهو يومُ الاستقرار بمنى للحجاج فليحرص المسلمُ على إدراك فضلِ هذا اليومِ حاجًا كان أم مقيمًا، وعلى غير الحاج في هذا اليوم أن يغتسل ويتطيب ويذهبَ لصلاة العيد، ولا يتهاون في أدائها، فهي

(١) ابن عثيمين: أحكام الأضحية.
(٢) رواه أبو داود بسند صحيح (صحيح الجامع الصغير رقم ١٠٧٥).

سنةٌ مؤكدة عن المصطفى ﷺ، ومن العلماء المحققين من يراها واجبة، كشيخ الإسلام ابن تيمية، مستدلًا بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ وتشهد النساءُ صلاةَ العيد حتى الحُيَّض والعواتق، وتعتزل الحيض المصلى.

ومن السُّنة ألا تأكل شيئًا قبل الذهاب لصلاة عيد الأضحى حتى تعود وتأكل من أضحيتك، فقد كان ﷺ لا يطعمُ حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته فليكن لك فيه أسوة.

واحرص على التكبير في هذه الأيام وحتى عصرِ آخرِ أيام التشريق قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

صلْ أقاربك وجيرانك وإخوانك في أيام العيد فهي من الأعمال الصالحة وهي سببٌ للألفة والمحبة، واعطف على المساكين، وتصدق على المحتاجين.

يا أخا الإسلام أما الأضحية فأجرها عظيم، وهي سنة أبينا إبراهيم، ونبينا محمد عليهم الصلاة والسلام، ومشروعيتُها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[(٢)].

وروى البخاري ومسلم -رحمهما الله- في صحيحيهما أن النبي ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين[(٣)]، ذبحهما بيده وسمَّى وكبر[(٤)].

---

(١) سورة الكوثر.

(٢) سورة الحج، آية: ٣٦.

(٣) والأملح ما يخالط بياضه سويد، والأقران: ماله قرن.

(٤) فقه السنة ٣/٣١٨.

وفي فضلها ورد حديثٌ -وإن ضعفه بعض أهل العلم- قال عليه الصلاة والسلام: «**ما عمل آدميٌّ من عمل يوم النحر أحبَّ إلى الله من إهراق الدم، إنها لتأتي يوم القيامةِ بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسه**»(١).

أيها المضحي طِب نفسًا بأضحيتك، واختر من الأضاحي أحسنَها إن كنت قادرًا على ذلك، ولا تهدي إلى الله ما تستحي أن تهديه إلى نفسِك، وإليك وصية عروة بن الزبير لبنيه، فقد رَوى مالك في الموطأ -بسند صحيح- إلى عروة -يرحمه الله- أنه كان يقول لبنيه: يل بَنيَّ لا يُهدينَّ أحدُكم من البدنِ شيئًا يستحي أن يهديه لكريمه إن الله أكرم الكرماء، وأحقُّ من اختير له.

(وكريمُ الرجل: من يَكْرُم عليه، ويَعزُّ عليه)(٢).

إخوة الإسلام: ومن فضل الله ورحمته ويسر الإسلام أن الأضحية الواحدة تجزئ عن الرجل وأهل بيته ويصل ثوابها الأموات والأحياء، إذا شملهم بها وإياكم والمباهاة بالأضاحي، أخرج مالكٌ والترمذي عن أبي أيوبٍ الأنصاري ﷺ قال: ما كنا نضحي بالمدينة إلا بالشاة الواحدة، يذبحها الرجل عنه، وعن أهل بيته، ثم تباهى الناسُ بعدُ، فصارت مباهاة»(٣).

قال الترمذي: حسن صحيح والعملُ على هذا عند بعضِ أهل العلم، وهو قول أحمد وإسحاق. أهـ، ونُقل أنه قولُ مالك والليث والأوزاعي وغيرِهم، أن الشاةَ الواحدة تجزئ عن أكثرِ من واحد(٤).

---

(١) رواه الترمذي وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٥/ ١٠٣.

(٢) الموطا١/ ٣٨٠ في الحج وسنده صحيح كما في جامع الأصول ٣/ ٣٢٩.

(٣) ٣/ ٣٢٢

(٤) حسن صحيح، انظر: جامع الأصول ٣/ ٣٢٢.

بل إن من يُسر الإسلام أن من لم يجدِ الأضحية وهو راغبٌ فيها، فأجره على الله، وتأملوا هذا الحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي -بسند صحيح- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت بيوم الأضحى عيدًا جعله اللهُ لهذه الأمة**»، قال له رجلٌ: يا رسول الله: أرأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى (والمنيحة هنا: هي الناقةُ أو الشاةُ تُعارُ لينتفعَ بلبنها، وتُعادُ إلى صاحبها) أفأضحي بها قال ﷺ: «**لا، ولكن خُذ من شعركِ وأظفارك وتقصُّ شاربك، وتحلقُ عانتَك، فذلك تمامُ أضحيتك عند الله**»[(١)].

عباد الله وتنبهوا لوقتِ الذبح، وعليكم بسنةِ محمد ﷺ في الصلاة ثم النحر، وهو القائل: «**إن أولَ ما نبدأُ به في يومنا هذا: نُصلي ثم نرجعُ فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سُنتنا، ومن ذبح قبل فإنما هو لحمٌ قدمه لأهله، ليس من النُّسكِ في شيء**»[(٢)].

قال بعض العلماء: «**ويشترط في الأضحية ألا تذبح إلا بعد طلوع الشمس من يوم العيد، ويمر من الوقت قدر ما يصلى العيد ويصح ذبُحها بعد ذلك في أي يوم من الأيام الثلاثة في ليل أو نهار، ويخرج الوقتُ بانقضاء هذه الأيام**»[(٣)].

أعوذ بالله من الشيطان ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٤)].

---

(١) جامع الأصول ٣/ ٣١٨.

(٢) رواه البخاري ومسلم أو أحدهما(جامع الأصول ٣/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) فقه السنة ٣/ ٣٢٢.

(٤) سورة الحج، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إمامُ المتقين وسيدُ ولدِ آدم أجمعين. . اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

معاشر المسلمين من السنةِ أن يذبح الإنسانُ أضحيته بنفسه رجلًا كان أو امرأة(١)، وتقول حال الذبح: بسم الله والله أكبر اللهم هذا عن فلان -ويسمي نفسه ومن أشركهم في أضحيته- فعل ذلك رسولُ الهدى ﷺ.

فإن كان لا يحسن الذبحَ فليشهده ويحضره -إن كان حاضرًا- أو ينيب عنه من يذبحها له أن كان مسافرًا.

ومن السنة شحذُ المدية، وإرجاع الذبيحة على شقها الأيسر ويضع الذابحُ رجله اليمنى على عنقها، مستقبلًا بها القبلة ويسمي ويكبر، ويقوله: اللهم منك وإليك اللهم تقبل مني كما تقبلت من إبراهيم خليلك، قال ابن تيميه يرحمه الله: ومن أضجعها على شقها الأيمن وجعل رجلَه اليسرى على عنقِها فهو جاهلٌ بالسنة، مُعذبٌ لنفسه وللحيوان(٢).

أما الإبلُ فالسُّنة نحرها قائمةً معقولةً يدُها اليسرى قائمةً على ما بقي من قوائمها، ومن أضضعها خالف السنة أخرج البخاريُ ومسلم وأبو داود عن زياد بين جبير قال: رأيت ابنَ عمر رضي الله عنهما أتى على رجل قد أناخ بدنته ينحرها، فقال ابعثها قيامًا مقيدةً، فهذه سنة محمد ﷺ(٣).

---

(١) جامع الأصول ٣/ ٣٥٦.

(٢) الفتاوى ٢٦/٣٠٩.

(٣) جامع الأصول ٣/ ٣٥٤.

ومن السنةِ كذلك أن يأكل منها ويهدي ويتصدق.. قال العلماء: ولا يجوز بيعُها ولا يبيعُ جلدها، ولا يعطى الجزارُ من لحمها شيئًا كأجرٍ، وله أن يكافئه نظير عمله[١].

عباد الله تأكدوا -في ضحاياكم وهديكم- من السِّن المجزئ في الأضاحي والهدي.. ويجزئ من الإبلِ ماله خمسُ سنين، ومن البقر ماله سنتان، ومن المعز ماله سنة ومن الضأن ماله سنة أو ستةُ أشهر -على خلاف بين الأئمة[٢].

واحذروا من العيوب المانعة من الإجزاء، وقد قال ﷺ: «**أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البيِّنُ عورُها والمريضة بينٌ مرضُها، والعرجاءُ بين ضلعها، والكسيرة التي لا تُنقي**» -وفي رواية: «**العجفاء التي لا تُنقي**»..

قال البراء -راوي الحديث- قلتُ: فإني أكرهُ أن يكون في السن أن نقص؟ قال: ما كرهتَ فدعه وإلا تُحرمه على أحد[٣].

ألحق أهلُ العلم بذلك: الغضباءُ التي ذهب أكثر أذنِها أو قرنها، والهَتماء التي ذهبت ثناياها من أصلها والعصماءُ وهي ما انكسر غلافُ قرنها، والعمياء، والتولاء -وهي التي تدور في المرعى ولا ترعى- والجرباءُ التي كثر جربها[٤].

عباد الله- كلوا واشكروا ربَّكم حيث أغناكم وهيأ لكم ما تذبحون وتأكلون وسخرها لكم واستحضروا تقوى الله فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم.. فإن فقه العبادات في الإسلام مطلبٌ وقليل من الناس من

(١) فقه السنة ٣/ ٣٢٤.

(٢) فقه السنة ٣/ ٣٢٠.

(٣) رواه أبو داود والنسائي وسنده صحيح: جامع الأصول ٣/ ٣٣٣، ٣٣٤.

(٤) فقه السنة ٣/ ٣٢٢.

يتفطن لذلك.. كما أن القليلَ من عباد الله الشكور.

ومن شُكر الله ذكرُه في هذه الأيام الفاضلة وعدم التجاوز على حدود الله، فقد قال عليه الصلاة والسلام عن أيام التشويق: أيام أكلٍ وشربٍ وذكر لله وهنا فائدتان: الأولى كما قال ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أن الأكل والشربَ في أيام العيد إنما يُستعان بها على ذكر الله وطاعته، وذلك من تمام شكر النعمة.. فمن استعان بنعم اللهِ على معاصريه فقد كفر نعمة الله، وبدلها كفرًا وهو جديرٌ أن يُسلبها كما قيل:

إذا كانت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فشكرُ الإله يزيل النقم[(١)]

الفائدة الثانية: إنه لا يجوز التطوعُ بصيام أيام التشريق لأنها أعيادُ أهل الإسلام، كما ورد في الحديث: «**يوم عرفة ويومُ النحرِ، وأيام التشريق عيدُنا أهل الإسلام**»[(٢)].

اللهم هيىء للمسلمين حجهم، وتقبل من الصائمين والمضحين والمتقربين إلى الله أعمالهم آمين.



(١) اللطائف لابن رجب ص٣٣٢ عن الفوزان، مجالس عشر ذي الحجة.

(٢) الفوزان: مجالس عشر ذي الحجة ص١١٦، ١١٧.

الأمل والأجل بين عامين[(١)]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين يكوِّرُ الليلَ على النهار، ويكور النهارَ على الليل، فالقُ الإصباح وجعل الليل سكنًا، والشمسَ والقمرَ حسبانًا ذلك تقديرُ العزيز العليم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يُقدر الأعمارَ، ويعاقب الأيام، وبقدرته تتعاقب الأعوام، وتفنى أجيالٌ وتخلفها أجيالٌ أخرى وكلٌّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله حل في هذه الدنيا ثم ارتحل، ولو قدر لأحدٍ الخلودُ فيها لكان المصطفى حيًا مخلدًا، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أما بعد فأوصي نفسي وإياكم معاشر المسلمين بتقوى الله ومراقبته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[(٣)].

واحذروا معاشر المسلمين أن تطغى مراقبتُكم لخلق الله على مراقبة الله فتكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[(٤)].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٢/ ١٤١٨هـ.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٥.

(٣) سورة غافر، آية: ١٩.

(٤) سورة النساء، آية: ١٠٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[1].

أيها المسلمون: حريٌّ بكم أن تقفوا مع أنفسكم محاسبين على الدوام، وأن يزيدَ في تذكركم ومحاسبتكم لأنفسكم انصرام عامٍ ومجيء عام.

كم نلهوا ونغفل، وكم نعظم من أمر الدنيا ما هو أحقرُ وأذل، وكم نزهد في عمل الآخرة وهي أكرمُ وأبقى والباقيات الصالحات خير عند ربِّك ثوابًا وخيرٌ أملًا.

عبادَ الله كتب الحسنُ البصريُّ يرحمه الله إلى عمرَ بن عبد العزيز يرحمه الله، يدعوه للتفكر، ويذكره بحقيقة الدنيا وحقارتها ويحذره من الاغترار بها، ومما قاله:

اعلم أن التفكرَ يدعو الخير والعمل به، والندمُ على الشر يدعو إلى تركه، وليس ما يفنى وإن كان كثيرًا يعدل ما يبقى وإن كان طلبهُ عزيزًا، واحتمال المؤونةِ المنقطعةِ التي تعقبها الراحةُ الطويلةُ خيرٌ من تعجيلِ راحةٍ منقطعة تعقبها مؤونةٌ باقيةٌ، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة، التي غرت بغرورها، وقتلت أهلها بأملها.. إلى أن يقول: فاحذرها فإن أمانيها كاذبةٌ، وإن آمالها باطلة، عيشُها نكدٌ، وصفوها كدرٌ، وأنت منها على خطر، إما نعمةٌ زائلة، وإما بليةٌ نازلة. وإما مصيبةٌ موجعة، وإما منيةٌ قاضية.. فلو كان الخالقُ تعالى لم يخبرْ عنها بخبر، ولم يضربْ لها مثلًا، ولم يأمرْ فيها بزهد، لكانت الدارُ قد أيقظت النائمَ، ونبهت الغافلَ، فكيف وقد جاء من الله تعالى عنها زاجرٌ، وفيها واعظ، فما لها عند الله ﷻ قدرٌ.. ثم يقول مشخصًا أيام الدنيا: وإنما الدنيا إذا فكرت

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

فيها ثلاثةُ أيام: يومٌ مضى لا ترجوه، ويوم أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه، ويوم يأتي لا تدري أنت من أهله أم لا، ولا تدري لعلك تموتُ قبله، فأما أمس فحكيمٌ مؤدب، وأما اليوم فصديقٌ مودع، غير أن أمس وإن كان قد فجعك بنفسه فقد أبقى في يديك حكمته، وإن كنتَ قد أضعته فقد جاءك خلفٌ منه، وقد كان عنك طويل الغيبة، وهو الآن عنك سريع الرحلة، وغدًا أيضًا في يديك فيه أملُه، فخذِ الثقةَ بالعمل، واترك الغرور بالأمل قبل حلول الأجل.. ولو أن الأمل في غدكِ خرج من قلبك أحسنت اليوم في عملك، واقتصرت لهمِّ يومك غير أن الأملَ منك في الغد دعاك إلى التفريط ودعاك للمزيد في الطلب...»[1].

إخوة الإسلام: تعيشون هذه الأيام نهاية عامٍ مضى بما فيه، أفلح العاملون السائرون إلى الله.. وخاب وخسر المبطلون، عامٌ مضى بأحزانه وأفراحِه، وسرَّائه وضرائه.. عُدْ بذاكرتك قليلًا إلى ما مضى، وانظر ما قدمت فيه من عمل صالح فاشكر الله عليه، واسأله القبول وما عملت من سوءٍ فتأسف واندم عليه فقد قيل: إن الندمَ توبة. واختم ما بقي من العام بالاستغفار، والتوبة النصوح، واعمل صالحًا تختمُ به العامَ المنصرم.

أما عامك الجديد فاستقبله بالعزيمة الصادقة على عمل الصالحات، واستفد مما مضى عبرةً لما تستقبله، فما الدنيا إلا ساعةٌ بين ساعتين، ساعةٌ ماضيةٌ، وساعةٌ آتية، وساعةُ أنت فيها، فأما الماضيةُ والباقيةُ فليس تجدُ لراحتهما لذَّةً ولا لبلائهما ألمًا، وإنما الدنيا ساعة أنت فيها، فخدعتك تلك الساعةُ عن الجنةِ وصيَّرتك إلى النار، وإنما اليومُ إن عقلت ضيفٌ نزل بك وهو مرتحل عنك، فإن أحسنت نُزله وقراه شهد لك وأثنى عليك بذلك وصَدَق فيك، وإن أسأت ضيافته

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٣٤- ١٣٩.

ولم تُحسن قراه جال في عينيك، وهما يومان بمنزلة الأخوين نزل بك أحدُهما فأسأت إليه ولم تُحسن قراه فيما بينك وبينه، فجاءك الآخرُ بعده فقال: إني قد جئتك بعد أخي فإنَّ إحسانك إليَّ يمحو إساءتك إليه ويغفر لك ما صنعت، فدونك إذ نزلتُ بك وجئتك بعد أخي المرتحلِ عنك، فلقد ظفرت بخُلفٍ منه إن عقلت، فَدَارِكْ ما قد أضعت، وإن ألحقت الآخرَ بالأول فما أخلَقَك أن تهلكَ لشهادتهما عليك(١).

يا أخا الإسلام: مجردُ التحسر على ماضٍ مطيةُ الكسالى والعاجزين. والهمةُ والعزيمة على العملِ في الحاضر والمستقبل سيما أهلِ الجد والصدق واليقين.. ودونك تشخيصُ العارفين بما بقي من العمر وقيمته.. فقد قالوا: إنَّ الذي بقي من العمر لا ثمن له ولا عدلَ، فلو جُمعت الدنيا كلها ما عدلَت يومًا بقي من عمرِ صاحبه، فلا تبع اليومَ ولا تعدلْه من الدنيا بغير ثمنه، ولا تكوننَّ المقبورُ أعظمَ تعظيمًا لما في يديك منك وهو لك فلعمري لو أن مدفونًا في قبره قيل له: هذه الدنيا أولُها إلى آخرها تجعلها لولدك من بعدك يتنعمون فيها من ورائك فقد كنتَ وليس لك همٌّ غيرهم، أحبُّ إليكَ أم يومٌ تُترك فيه تعملُ لنفسك لاختار ذلك(٢).

يا عبد الله اتعظ بمن مات، واستدرك ما فات وإياك وغرور الأماني، وأن توافيك المنيةُ على غير أهبةٍ واستعداد، جِدَّ في السير إلى مولاك، ولا يكن همُّك الدنيا وحطامُها.. ودونك حديث المصطفى ﷺ فاعتبره إذ يقول: «**ما طلعت الشمسُ قطُّ إلا وبجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان مَنْ على الأرض غير الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى**»(٣).

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٣٩.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٣٩.

(٣) صحيح الأخبار في الزهد والرقائق، عمرو سليم ص٧٩.

ودونك أنموذجًا في القناعة والزهد:

كتب سليمانُ بنُ عبد الملك إلى أبي حازم: ارفع إليَّ حاجتك قال: هيهات، رفعتُ حاجتي إلى من لا يختزنُ الحوائجَ فما أعطاني منها قنعت، وما أمسك عني منها رضيت»[1].

وقال أبو واقدٍ الليثي: تابعنا الأعمالَ، نقولُ أيها أفضل؟ فلم نجدْ شيئًا أبلغَ في طلب الآخرةِ بزهادةٍ في الدنيا[2].

يا أخا الإيمان احرص على أن يكون لك في كل عمل خير سهمٌ نافذ فما أجملَ أن تروض النفسُ على عمل الخير فيصبح لها سجيةً وطبعًا، ومن داوم على شيء ألِفه وسهل عليه القيامُ به.

وهذا سفيان الثوري يقول: ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديثٌ قطُّ إلا عملت به ولو مرة» وهذا منه محمولٌ على فضائل الأعمال.. وهو منه أيضًا تأكيدٌ على العمل بسنة محمد ﷺ وشدة العناية بها، أكثر من العمل، وأقلل من الذنوب.. ففي ذلك سلامةٌ لا يعدلها شيء، وفي الزهد لابن المبارك عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح أنه سئل: رجلٌ قليلُ العمل قليلُ الذنوب أعجبُ إليك، أو رجلٌ كثير العمل كثير الذنوب؟ قال لا أعدل بالسلامة شيئًا[3].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٣٧، وسنده صحيح، المرجع السابق ص٧٩.

(٢) صحيح الأخبار، عمرو سليم في ٥٥.

(٣) الزهد لابن المبارك ص٦٦، وصحيح الأخبار ص٣٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

عبادَ الله على مشارف عامٍ ينتهي، وإطلالة عام يبتدي وقفةٌ وعبرة.

فنهايةُ عامٍ يعني أن الله متَّع ابنَ آدم فيه ما يزيدُ على ثمانية آلاف وخمسمائة ساعة، وكم في هذه الساعات من نبضات قلبٍ ما كان له أن يعيشَ لو أنَّ اللهَ أوقفها لحظةً من الزمن وكم صعد خلالها النفسُ وما كان له أن يعيش لو كتمه اللهُ لحظة من الزمن.

عامٌ يمضي يعني توفير نعمٍ كثيرة لهذا الكائنِ الحي، وتسخير وجوداتٍ كثيرةٍ في هذا الكون لهذا الإنسان -قد يعلم بعضها ويجهل أكثرها.

عام يمضي يعني امتلاءُ السجلات بما كسبت يداك وسطره الكرامُ الكاتبون، وغدًا سيكشف عن المخبوء، وتبلى السرائر، فأعد للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، عام يمضي يعني سقوط ورقةٍ من أوراق الشجرة ذات الأوراق المحددة، وبها يتناقص الموجود، ويزداد الذابلُ المفقود، ولربما كانت الورقةُ ما قبل الأخيرة أو كان بعدها أوراقٌ أخرى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

عام يمضي يعني قربك من الآخرة وبعدَك عن الدنيا ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وعامٌ يستجد، وأنت فيه في عداد الأحياء يعني أن الفرصةَ بيدك لتداركِ ما فاتك، وإبدالِ السيئات بالحسنات، واللهُ في غناه عنك وعن غيرك أشد فرحًا

بتوبتك منك إذ أضعت راحلتك في أرض فلاة وعليها زادك ومتاعك وحين أيست منها استسلمت للموت، فلما كنتَ كذلك إذا بها على رأسك وعليها ما ينقذك، فسبق لسانك وقلت من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك.. أخطأت من شدة الفرح.

يا أخا الإسلام وحين تُذكَّر بهذا فلا يطل أمدُك، ولا تنس مفاجأة الموت لك.. وأنت ترى وتسمع بين كلِّ حين وآخر مفاجأةً لفلان، ومصيبةً جماعيةً لآلِ فلان، ولربما قلت من هول الصدمة وحداثة المفاجأة.. أمات فلان حقًّا؟ نعم لقد مات.. وستموت أنتَ.. ومَنْ وراؤك ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

وهنا وقفةٌ أُذكر بها، وأشاطرُ الجهات المسؤولة في التنبيه لمخاطِرها، والحذر من التهور فيها.. إنها الحوادث المروِّعة التي باتت تحصدُ الأنفس حصدًا، وينشأ عنها ترمُّل النساء، ويُتْمُ الأطفال، وتشتت الأسرِ بعد اجتماعها.. وهذه التي نحذر منها هي الناشئةُ عن تهور في القيادة، أو استهتار في أنظمةِ المرورِ المساعدةِ بإذن الله على السلامة.. كيف هانت عليك نفسك فعرضتها للخطر بسبب سرعةٍ جنونية كان لها عواقبها السيئة عليك وعلى أسرتك وعلى المجتمع من حولك.. ولئن هانت عليك نفسُك.. أفيحق لك أن تستهتر بأرواح الآخرين وهل يعجبك أن تكون مصدرَ شقاءٍ للآمنين؟

وإذا أردت أن تتصور الكارثةَ بإنصاف، فما موقفك من شخصٍ تسبب في حادث مؤلمٍ لأسرةٍ قريبةٍ منك وفيها رجالٌ ونساء، وشيوخٌ وأطفال، وهذا جريح وهذا كسير، وذاك نَزفَ من الدماء حتى فارق الحياة، ورابعٌ فاضت روحُه في الحال، وخامسُ عاش في غيبوبة أمدَ الحياة.. أو فترةً طويلةً أو قصيرة من الزمن.. ولربما استيقظ يوم أن استيقظ وهو مشلولُ الأطراف أو بعضها كيف تكون نظرتك لمن تسبب في مصير هذه الأسرة فكانت كما ذكرتُ أو أقلَّ أو

أكثر؟ لا شك أنك ستلومه وترسل عليه الدعوات، وهو في عينك شخصٌ عابث مستهتر ولو أخذ رأيُك في الحكم عليه لكان لك معه شأنٌ آخر؟ أفلا تُطبق هذه النظرةَ على نفسِك يوم أن تتسبب في إلحاق الضرر بالآخرين؟!

إخوة الإسلام.. لقد باتت حوادثُ المرور تشكل خطرًا يلتهم الأُسر.. ويُفقد بسببها العالمُ، والرجلُ الفاضل والمرأةُ المربية، والشابُ في ريعان الشباب، والطفلُ ببراءتِه ولم يسلم من آثارها وعوائدها الرجلُ المتعقلُ في قيادتها..

وهذه وتلك استثارة همم المسؤولين، فعقدت لها الاجتماعات والندوات، وصدرت لأجلها ولا تزال تصدر التوصياتُ والمجتمعُ بأسره شريكٌ في المسؤولية.. ولابد من المساهمة لعلاج هذه الظواهر السيئة، ولو أن كلًا منَّا التزم بنفسِه وحض أولاده على الالتزام بالأنظمة المرورية وقواعد السلامة.. لكان في ذلك نفعٌ كبير.. كيف لا وفي شريعتنا الغراء حمايةٌ للنفس وردٌّ للصائل، وأخذٌ على أيدي السفهاء، وتعاون على البرِّ والتقوى، ومساهمةٌ في النصح والتوجيه، وحفظٌ للطاقات، ونهي عن التسرع والإسراف، ورعايةٌ لآداب الطريق إنَّ من الذوق والمروءة أن تقدر- مشاعر الآخرين، ومن الفظاظة والرعونة أن تعيشَ متبلدَ الإحساس، لا ترعى للآخرين حرمة، ولا تُقدر لحراس الأمن مسؤولية.

ألا فليكن إسلامُك وخُلقك في المسجد وفي الطريق، مع أهلك وذويك ومع الناس أجمعين.. ساهم في السلامة بوعيك وحسن قيادتك، واعتبر بما حصل لك أو لقرابتك في سبيلِ تأمين الأمن والحماية للآخرين.. وإذا كانت الآجالُ محدودة، والأنفاسُ معدودةً فاتخاذ الأسباب المشروعة مطلبٌ، واتقاءُ التهلكة بالنفس محرم، وبقدر ما تتمثل من أخلاق عالية بقدر ما تكون محبوبًا عند الله وعند خلقه.

انحراف الشباب مسئولية من؟[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الهادي إلى سواء الصراط يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فما له من سبيل وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه هدى اللهُ به من الضلالة إلى الهدى وفتح الله به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غُلفًا -اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3].

أيها المسلمون حديث اليوم استجابةٌ لمطلب كريم من الجهاتِ المسؤولة- وهو في الوقتِ نفسه حديثٌ بالغُ الأهمية عن فئةٍ عزيزةٍ في المجتمع.. بات يكثر عددُها ويتنامى خطرُها، ويحمل واقعُها نُذرًا لا بد من توعيتها وتقييمها والمسارعة بعلاجها.

حديثُ اليوم عن فئةٍ من الشباب - لا بل عن طائفةٍ من الشباب بدأت تجنح في سلوكها، وتقلق المجتمعَ بتصرفاتها تُسيء إلى نفسها... وتصل إساءتها إلى غيرها.. وتدمر ما حولها، وربما دمَّرت نفسَها..

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٢) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٩/ ١/ ١٤١٩هـ.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٩.

إنها فئةٌ من الشباب، لم نولها من العنايةِ ما تستحق، واكتفينا بلومها وانتقاد تصرفاتها.. ولكننا لم نقترب منها، ونكتشف أسبابَ جنوحِها، وأنسب الطرقِ لعلاجها..

هذه الفئةُ -حين نريدُ تشخيص حالها- نقول: إنها فئةٌ منطويةٌ على نفسها.. أو على ما يشابهها.. كسولةٌ في أداءِ العبادات المفروضة، غيرُ قادرةٍ على تحمل المسؤوليات الأسرية - مزعجةٌ داخل بيوت أهلِها، هاويةٌ للاجتماعات الصاخبة في زوايا الشوارع، محبةٌ للسهرِ ليلًا، مكثرةٌ للنوم نهارًا، المدرسةُ تشكو من ضعفها الدراسي، وما بها لله ﷻ ضعفٌ في الفهم ولكنها تحضر بجسدها وعقولُها خارج المدرسة، ويشكو منها الجيران لسوءِ تصرفاتها، ولربما تخوفوا على أبنائهم منهم وحذروهم الاختلاط بهم، تتخذ من السيارةِ وسيلةً لإزعاج الآخرين، وربما استخدمتها وسيلة للاقتناص والتغرير بالأطفالِ والمراهقين - ولربما دمرت نفسها أو دمرت الآمنين من حولها بقيادتها الهوجاء.. هذه الفئة تطربُ للأغاني الماجنةِ ولربما اضطرت الآخرين لسماعِها بسبب رفعها للصوت عمدًا وبلا مبالاة، تفتخر بالسيجارة تتعاطاها.. وتظنها بطولةً أمام الأحداث من حولها.. والأمر أدهى حين تبدأ في مسلسل المخدرات والخمور والمنبهات.. يضيع جزءٌ من وقتها في العكوف على مشاهدةِ الأفلام الخليعة.. ويتأثر فكرُها وسلوكُها بالمسلسلات الجنسية، أو بأحداث العنفِ البوليسية تركز على المجلات الهابطة.. ونصيبها من الصحف زوايا الفنِّ والرياضة.

هذه الفئة لا ترعى للوالدين حقًا، ولا تطيع لهما أمرًا.. وتنساق مع الأصحاب وتطيعهم أكثر من غيرهم، وما أسرع ما يقع الخصومةُ بينهم ولأتفه الأسباب.. تشتكي منهم الجهاتُ الأمنية.. ولربما كانتِ إساءتهم أكثر للعمالةِ الوافدة.

إخوةَ الإسلام ليس المقصودُ تشخيصَ الداء، إلا بالقدر الذي يوصَفُ به الدواء.. ودعونا نتصارح، ولا نُلقي باللائمة كلِّها على هؤلاء الشباب.. ونرى مدى أسهامنا -بعلمٍ أو غيرِ علم- في بروز هذه الظواهرِ المنحرفة.

فأنت أيها الأب قد تكون منزعجًا لهذه الظاهرة لكنك لم تساهم في علاجها وتظن أن مجردَ شكواك منها كافي في علاجها، بل ربما كنت أيها الأبُ وراء المشكلةِ في بدايتها حيث لم تُعن بالتربية المبكرة للأبناء، ولم تهتم كثيرًا باختيار الأصدقاءِ، أو على الأقل التعرفِ على من يصادق الأبناء فتشجعُ على مصاحبة الأخيار وتنهى وتحذر من مصاحبة الأشرار، وتستخدم في ذلك كلَّ وسيلة مستعينًا بالله ثم بالخيرين من حولك ومتصلًا بالمدرسة لمعرفة سلوكيات ابنك ولربما أخذتك العاطفة فوفرت للابن سيارة لا يحتاج إليها.. أو لا يحسن التصرفَ في قيادتها.. فألقيت ابنَتك المسكين في اليمِّ وقلت له إياك أن تبتل بالماء، وقد تمانع في البداية فينضم صوت الأمِ إلى صوت المراهق فتبدأ المشكلة.

وأنت أيها المعلمُ الكريم ما الجهدُ الذي قدمته في سبيل استصلاح هذه الفئة.. أتُراه يكفيك أن تتذمر من وجودهم في المدرسة.. أم تراه يُغنيك أن تلوذ بكثرة الحصص وتعتذر بالأعباء التدريسية عن المساهمة في توجيه هؤلاء وإسداء النصح لهم والمساهمة في تربيتهم وما أعظم الخطب حين تُشعرهم -أيها المعلم- بالدونية، أو تكرس فيهم أنكم شبابٌ لا خير فيكم، وقد يكون فيهم أو في بعضهم خيرٌ كثيرٌ يحجبه طبقةٌ رقيقةٌ من الغبار الخادع.. ولا يسوغ لك بحال -أيها المربي- أن تُنقص شيئًا من درجات يستحقونها بسبب ما يبدو لك من انحرافهم، فتلك توغر صدورُهم، وتزيد من انحرافهم.. وما هكذا تورد يا سَعدُ الإبل؟!

أيها المعلم تحفظ في الكلمة تلقيها.. واختر في الحديث مع هؤلاء بخاصة ومع غيرهم بعامة أطيب الكلام.. فللكلمة الطيبة وقعُها في الآذان أولًا وفي القلوب ثانيًا، ويكفيك أن الكلمةَ الطيبة صدقة. ولا تقنط أو تيأس من هداية هؤلاء.. ولا يرد إلى مخيلتك أن الشرَّ دائمًا مصاحبٌ لهؤلاء.. وقدِّر موقعك ولربما تأثروا بك أكثر من غيرك وحين تتحدث عن دور المعلم مع الطلاب فالحديث عن المدير والوكيل والمرشدِ الطلابي من باب أولى.

أيها الأئمة والخطباء أنتم عليكم كفلٌ من المسؤولية بالتوجيه والنصح والزيارة والهدية.. والموعظة بالحسنى، وعدم الاكتفاء باللوم والتقريع والاستهزاء.. وكم هو جميلٌ أيها الإمام أن تستعين بعدد من الأخيار المجربين للذهاب لهؤلاء الشباب ومناصحتهم والتعرف على مشكلاتهم وحوائجهم ودعوتهم للمسجد.. وإذا نجحت في ذلك بدأت تباشيرُ السعادة على محياهم وما أسرعَ ما تتغير سلوكياتُهم.

- أما أنتم معاشر الشباب الملتزم فكم أنتم غائبون عن هؤلاء.. وسائلو أنفسكم ماذا قدمتم لهم.. وكم يستغرق الاهتمام بهم من أوقاتكم؟ إنهم إخوانُكم وجِيرانكم، ولهم عليكم حقُّ النصح، وأنتم مسؤولون عن حسنِ دعوتهم، ولابد من الصبر على ما يصيبَكم من أذاهم، إنكم قد تستلذون الجلوسَ إلى العلماء في دروسهم ومحاضراتهم، وترتاحون للجلوس مع بعضكم وترون الوقتَ غاليًا فلابد من حفظه بحفظ كتابِ الله، أو القراءة في كتب العلم النافعة، أو الاستماع لأشرطة مفيدة.. وكل ذلك أمرٌ طيب، لا تثريب عليكم فيه.. ولكن قدروا فيما علمكم الله.. وفيما هداكم الله.. حقًا للسائل والمحروم.. ومن شكرِ الله على نعمةِ الهداية التي أنعم بها عليكم أن تدعوا

هؤلاء.. وترغبوهم في الخير، وتحذروهم من عواقب الشرِّ والفساد، والطرق المناسبة والوسائل المفيدة.

أيها المسلمون لا يعفي ذلك كلُّه بحال رجالات الأمنِ من مسؤوليةِ المتابعة لهذه الفئة من الشباب، وكان اللهُ في عون العيون الساهرة وهي تراقب وتتابع، ويُباح لها ما لا يُباح لغيرها ويتخوف منها الشباب أكثر من غيرها.. فهل يقدر رجالات الأمن دورهم ويستشعرون مسؤوليتهم في الحفاظ على أمنِ المجتمع، وردع المعتدي وتأديب المخالف ومطاردة المجرم، وكشف ما في الزوايا المظلمة ومراقبةِ التجمعات المشبوهة، والوعي بمخاطر المخدرات والمسكرات والأفلام الخبيثة... وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

أخي رجلَ الأمن إياك أن تبقى متفرجًا على انحراف الشباب وتجمعاتهم دون مراقبة ومتابعة وتقدير للمخاطر المستقبلية، وإذا نُصحت بأن لا تكون فظًا غليظًا في المعاملة، فإياك أن تغلبك العاطفةُ وترضى بالاعتذار الخادع، وقدِّر سعةَ انتشار الداء إذا لم تسارع بالحزم في اختيار الدواء.. ولا تنسي أنك عضو في هذا المجتمع مسؤول عن وقايته حتى وإن كنت لحظة رؤياك الانحرافَ مدنيًا، رعاك اللهُ وسددك ونفع بك وآجرك على قدر إخلاصك ومتابعتك.

رجالات الهيئة الأعزاء مهمتُكم لا تقف عند حدود النهي عن المنكر، فهذا على أهميته جزءٌ من رسالتكم، ولكن الجزءَ الآخر يتمثل في الأمر بالمعروف والدعوة للخير.. وما أروع الرسالةَ حين تلحظ تجمعًا مشبوهًا للشباب فتصطحبهم للهيئة وتحدثهم برفق، وتثير فيهم كوامن الخير، وتذكرهم بقيمة أسرهم في المجتمع، وعظيم الفضيحة لهم ولأهليهم إذا وقع منهم المكروه.. وتشعرهم بقربهم منك وعطفك عليهم، ثم تختم ذلك بإهدائهم شريطًا موجهًا أو كتيبًا نافعًا، أو مطوية مفيدة مختصرة.

إخوة الإيمان وهكذا تتكامل عناصرُ التوجيه، وتساهم الجهات والأفراد -كلٌّ حسب اختصاصه- بالتوعية والمتابعة.

وما بلغ الشباب في مجتمعنا -والحمد لله- مبلغًا من الشرِّ والفساد والعناد، حدًا لا يمكن ضبطهم أو يصعب توجيههم ولكنها طفرة النعمة، وآثار الفراغ، وقلة المتابعة، وعدم التجديد في الوسائل المصلحة بإذن الله للشباب.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١].



(١) سورة هود، الآيتان: ١١٦، ١١٧.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين يمن على من يشاء بالهداية والتوفيق ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه من الأنبياء.

إخوة الإسلام حين نتحدث عن انحراف بعض الشباب ونشرك في المسؤولية عددًا من الجهات والأشخاص، فلابد أن نستحضر ما لوسائل الإعلام -بكافة قنواتها- من أثر بالغ على انحراف الشباب أو استقامتهم، كيف لا وهي تخاطب عقولهم، وتحرك عواطفهم، وبإمكانها أن تختار النماذجَ الخيِّرة أو الساقطة لتبرزها مجالًا للقدوةِ أمام ناظريهم وكم افتتن شابٌ أو شابةٌ بصورةٍ خليعة أو مشهدٍ مثير فحركت كوامنَ الشبابِ فيهم، وهيجت عواطفهم فراحوا يبحثون عن إشباعها بطرق غير مشروعة.

وكم لوَّث فكرهم مقالٌ نشر وفيه تمجيدٌ للرذيلة أو محاربةٌ للفضيلة، وكيف نلوم الشبابَ على الانحراف إذا كنا نمجد نماذج ساقطةً تتمرغ في أوحال الرذيلة في فكرها المُعطى.. وفي شعرِها المكتوب.. ويقل أن نسوق نماذج عاليةً في أخلاقها، قممًا في سلوكها..

ألم تمجد وسائلُ الإعلام الإسلامية الهالكةَ ديانا من قبل.. ومعلومٌ ما تمتلكه هذه من وسائل الدعاية والشهرة؟ وهي بكل حالٍ لا تتفق وقيمنا وأخلاقنا!

ثم راحت تمجد الهالكَ نزار قباني من بعد.. وهو شاعر الفسق والإلحاد.

أيها المسلمون إن الأمرَ عظيم، والخطابُ جليل.. ما أعظم الكارثة حين ينحرف الشباب وهم عمادُ الأمة وأملُها في المستقبل.. وما عاد الانحراف يخفى ونحن بين الفينة والأخرى نسمع عن جرائم خلقيةٍ يندى لها الجبين، ونحن مسؤولون أمام اللهِ عن هؤلاء الشباب الذين تفشت بينهم المخدرات وحطمت مستقبلهم في الدنيا وجعلتهم على شفير الهاوية في الآخرة.. كما نحن مسؤولون عن انتشار الفاحشة في عدد منهم تلك التي تذهب رجولتهم، وتهدر طاقتهم، وتذهب حياءهم وتقتل طموحات الرجالِ في نفوسهم.. والخطبُ كبير حين يمتلك هؤلاء المراهقون أسلحةً فتاكة فيوجهونها إلى الأبرياء من حولهم ولربما قتلوا بها أقرب الناس إليهم.. بل ربما اعتدوا بها على أنفسهم.

لا بد من قومة صادقةٍ لله وتوعية شاملةٍ للمخاطر تشمل الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات ورجالات الأمنِ والحسبة، والأئمة والخطباء والشباب الغيور على دينه وأبناءِ أمته.. ورجالات الإعلام والمفكرين والأدباء القادرين على الكتابة ومخاطبة جمهور الأمة وشبابها وشاباتها على الخصوص.

ولا بد مع ذلك من الحزم في العقوبة لمن لا يجدي معه النصحُ ولا يستفيد من التوعية ولا شك أن العقوبات في الإسلام ذاتُ أهدافٍ جليلة وإن ظنها الجهلةُ للوهلة الأولى شديدةً على من أقيمت عليه.. ولا ضير أن يهلك شخصٌ في سبيل حياة الآخرين والله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وكما ندعو إلى معاقبة أصحاب الجرائم الخلقية بما يكفل عدم انتشارها وتدميرها للشباب ندعو كذلك إلى التشديد في توفير السلاح عند الأحداثِ والمراهقين الذين لا يحسنون استخدامها.



الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فاتقوا الله أيها الناس، واخشوا يومًا لا يجزي والدٌ عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا، إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(٣).

أيها المسلمون.. ويهيم المحبون للدنيا بمحبتهم طرائق قددًا، فذاك متيم القلب لمحبوبته.. وذاك صريع العشق لمن استلبت فؤاده، وثالث محبٌ مفتون بماله أو ولده ورابع مغرور بملكه وسلطانه أو حرثه ونسله ولا تكاد تخرج هذه وتلك عن شهوات الدنيا الفانية، من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، وعنها قال تعالى:

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٦/ ١/ ١٤١٩هـ.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٩.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[١].

وتبلغ المحبة دركات الحضيض حين يتخذ الناس أندادًا من دون الله يحبونهم كحب الله. . .

أما المؤمنون. . فلهم في المحبة شأن آخر، فهم وإن أحبوا المال والأهل والولد، وأنسوا بما لذَّ وطاب مما أحل الله من متاع الدنيا، فهم مقتصدون في حبهم لها، وهم أشدُّ حُبًا لله منها، يأنسون بذكره، ويستلذون بطاعته يستكثرون به من قلة، ويأنسون به حين الوحشة، وتطيب في جنح الظلام مناجاتهم له، محبة الله غايتهم، ورضاه عنهم أحلى أمانيهم، يحبون ما يحبون لله. . ويبغضون ما يبغضون في ذات الله.

عباد الله: ومحبة الله تعالى في الإيمان ومقاماته كواسطة العقد بين حباته، فما بعد إدراك المحبة مقامٌ إلا وهو ثمرةٌ من ثمارها وتابعٌ من توابعها كالشوق والأنس والرضى، ولا قبل المحبة مقامٌ إلا وهو من مقدماتها كالتوبة والصبر، والزهد، وغيرها[٢].

المحبةُ يزكو بها العملُ القليل، ويُبارك بها في الجهد اليسير فلا المجتهد السابق مستغن عنها، ولا القاصد أو المقصر مفلحٌ بغيرها.

أخرج البخاري ومسلم رحمهما الله في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجين من المسجد، فلقينا رجلًا عند سُدَّةِ المسجد، فقال: يا رسول الله: متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «**ما أعددت لها؟**» قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله: ما أعددتُ كبير صلاة

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامه ص٣٢٢.

ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحبُّ الله ورسوله، قال: «**فأنت مع من أحببت**».

وفي رواية -لمسلم- قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**».

قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم(١).

هذه المحبة -يا أخا الإسلام- هي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، هي الحياة فمن حرمها فهو من جملة الأموات وهي النور فمن فقدها فهو في بحار الظلمات، وهي الشفاء فمن عُدمها حلَّت بقلبه جميع الأسقام..

كيف لا وهذا المحب صلوات ربي وسلامه عليه يقول: «**أتاني ربي ﷻ**» -يعني في المنام- (ورؤيا الأنبياء حق) «**فقال لي يا محمد؛ قل: اللهم إني أسألك حبَّك، وحبَّ من يُحبك، والعمل الذي يبلغني حبَّك**»(٢).

يا عبد الله.. يا من تبحث عن حلاوة الإيمان.. فلن تجد طعمه حتى يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما -ففي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسوله الله ﷺ: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه -كما يكره أن يُلقى في النار**».

---

(١) ح ٦١٧١، الفتح ١٠/ ٥٧٣، ومسلم ٢٦٣٩، ٤/ ٢٠٣٢.

(٢) الحديث رواه ابن خزيمة في التوحيد، والطبراني في الكبير، وأحمد، والحاكم والترمذي وحسنه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٩٨، وانظر شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله، عبد العزيز مصطفى ص٩.

فإن قلت: وما السبيل إلى محبة الله، وما الأسباب الجالبة لها؟

أجابك ابنُ القيم يرحمه الله في مدارج السالكين، بقوله: الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها عشرةٌ هي:

١- قراءةُ القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

٢- التقربُ إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

٣- دوامُ ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

٤- إيثارُ محابه على محابك عند غلباتِ الهوى، والتسنمُ إلى محابه وإن صعب المرتقى.

٥- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبادئها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطّاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

٦- مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبة الله.

٧- وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

٨- الخلوةُ به وقت النزول الإلهي لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

٩- مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، كما ينتقى أطايبُ الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.

١٠- مباعدة كلِّ سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

ثم قال ابن القيم يرحمه الله: فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران: استعدادُ الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق[١].

يا أخا الإيمان.. ولا يجتمع في القلب محبة الله ورسوله، وبغض الصالحين، ومعاداة أولياء الله المتقين والتحريشُ بهم، بل يلاحق الوعيدُ الإلهي من عادى لله وليًّا.. وفي مقابل ذلك تبدو آثار المحبة على من تقرب إلى محبوبه في سلوكياته واضحة جلية.. ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه**»[٢].

أيها المسلمون.. ولا عجب أن تتعلق قلوب الناس بأولياء الله من عباده الصالحين، وإن لم يمنحوهم من مُغريات الدنيا فتيلًا، ذلكم لأن واهب المحبة هو الله العليم الخبير، ومقادير المحبة تنزل من السماء، ولا توزع من

(١) المدارج ٣/ ١٧، ١٨.
(٢) المدارج ٣/ ٢٥.

الأرض.. والفرق كبيرٌ بين السماء والأرض، وفي دنيا الواقع يجد الناس مصداق قول رسول الهدى ﷺ في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إذا أحب الله العبد دعا جبريل فقال إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهلُ السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**» وذكر في بعض الروايات في المبغض من قبل الله عكس ذلك»[1] أعوذ بالله.



(١) المدارج ٣/ ٢٥.

الخطبة الثانية:

الحمد لله صاحب الفضل والنعم والإحسان، أحمده تعالى وأشكره ولا نحصي ثناءً عليه.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وإلاهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بعثه الله للناس مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين..

إخوة الإسلام.. وليست محبة الله دعاوى تجوز على كل لسان، أو أماني وظنون يوصف بها كل إنسان، وإن كان فضل الله واسعًا لا يستطيع حجره كائنٌ من كان ولكن الدعاوى تصدقها الأعمال أو تكذبها.

ومن براهين المحبة الصادقة لله اتباع شرع الله والرضا به والتسليم دون حرج أو تململ، وطاعة الرسول ﷺ فيما أمر به أو نهى، وفيما أحبت النفس أو كرهت.

قال تعالى -وقوله الفصل-: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

قال ابن كثير يرحمه الله: هذه الآية حاكمةٌ على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله[٢]. فإذا حصل الموجب الحقيقي للمحبة بالاتباع، كانت المحبة، بل كان ما هو أعظم منها، وهو محبة

---

(١) سورة آل عمران، آية ٣١.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٢.

الله للمحب، ولهذا قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِب، إنما الشأن أن تُحَبَّ.

هذه الآية -معاشر المسلمين- فيها امتحانٌ لمحبة العبد لربه، كما قال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قومٌ أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية(١).

عباد الله ومن براهين محبة الله.. أن يكون المُحب متواضعًا لإخوانه المؤمنين، متذللًا لهم، رحيمًا بهم، يحبهم لله، ويواليهم فيه -وإن لم يكن بينه وبينهم نسبٌ أو حسب- لكنها رابطة العقيدة وأخوّة الإسلام توجب عليه ألا يحقرهم ولا يخذلهم ولا يظلمهم.

وفي مقابل ذلك يكون المحب الصادق عزيزًا على عدوه وخصمه، شديدًا عليهم ويبغضهم لله، ويعاديهم لكفرهم به، وتطاولهم على شرع الله.

وهو في ذلك محتاج إلى المجاهدة في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وإعزاز الحق، ودفع الباطل وأهله.

فهل يصدق الحب من شخص لا يغار لمحارم الله؟ وهل يصدق الحب لله ممن لا يتمعر وجهه لفشو الباطل وكثرة المبطلين؟!

إن محبة الشيء تعني الدفاع عنه، والدعوة إليه.. والدفاع عن الحق، والدعوة للخير الذي يحبه الله.. هو برهان على محبة الله.. وأنَّى لشخص يَدَّعي محبة الله، وهو ناصبٌ نفسه للدعوة للشر، ومحاربة الخير، وأهله! والمحبون الصادقون لا تأخذهم في دعوتهم وجهادهم للخير لومة لائم.. أو إرجاف مرجف -أو تخذيل مخذل- إقرؤوا بتمعن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) ابن كثير ١/ ٥٦٢.

مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)].

وفي فترات ضعف الأمة تتبدل المفاهيم، وتنتكس الأحوال ولربما أصبح العدو صديقًا، والصديق عدوًا.

ولكن ذلك لا يؤثر على حقائق القرآن، ولا يغير سلوكيات أهل الإيمان، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

إنها قافلة محمد ﷺ والمؤمنين معه، تتجدد ما بقي القرآن حيًّا في قلوب الأجيال تردد ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[(٢)].

يا أخا الإيمان كُن من دعاة الخير يُحبك الله، فإن لم تستطع فأحب الخير حيث يحبه الله.. وكن من أهل الخير فهم أولياء الله وأحباؤه فإن لم تستطع اللحاق بهم، فأحبهم وتمنَّ اللحاق بهم يحبك الله ويعينك.. فالمرءُ مع من أحب.. والرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فهو معهم.. فضلًا من الله ورحمة، ليكن حبُّك لله وفي الله، وفق شرع الله وإياك أن تكون محبتك حيث يُحبُّ دهماءُ الناس فمن يحبون أو يبغضون وفقًا للأهواء والشهوات ليس إلا.

يا أخا الإيمان وإذا أردت أن تعلم درجة حبك لله فعد لهذه الأسباب العشرة التي ذكرها العلماء.. وانظر في نفسك ومدى قربك أو بعدك منها، وسدد ما فاتك منها.. فلا أراني وإياك إلا في أشدِّ الحاجة إليها في اليوم قبل الغد

(١) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٢) الفتح ٢٩.

لنستجمع منها لأنفسنا زادًا أثناء السفر وبعد انتهاء السفر حيث القرارُ في دار المستقر.

ابدأ -يا أخا الإسلام- من الآن في بناء مستقبلك الحقيقي هناك، أما المستقبل هنا فمجازٌ وألغاز، ولعبٌ ولهوٌ وزينة وتفاخر، ابدأ من الآن في البناء شابًا كنت أو هرمًا، رجلًا كنت أو امرأة.. واجتهد في إيداع الأرصدة هناك فالليلُ والنهار خزانتان تُملآن هنا وتفتحان هناك، فاجتهد في ملء تلك الخزائن ببراهين المحبة لله وعناوين الإخلاص، ودلائل الطاعة له.

ولا تنس الاستعانة بالله، وقل كما قال محمد ﷺ: «**اللهم إني أسألك حبَّك، وحب من يُحبك، والعمل الذي يبلغني حبك**».

وكلما فتر عزمك أو ضعف سيرك تذكر قرب الرحيل إلى ربك، واتخذ من أصحاب الخير عونًا لك في طريقك.. رعاك الله وسددك وجعلنا وإياك من أحبابه العالمين بكتابه، والسائرين على منهاجه. هذا وصلوا.



العناية بالقرآن(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خص هذه الأمة بأفضل كتبه، وخاتم أنبيائه ورسله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أيها الناس أوصيكم ونفسي بتقوى الله، ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣).

أيها المسلمون: كتاب الله طريق للتقوى وسبيلٌ لمحبة الله تعالى، وهو يهدي للتي هي أقوم هو -كما وصفه عليٌّ رضي الله عنه: (الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يُضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان زيادة في هدى، ونقصان من عمى. . إلى أن يقول: واعلموا أنه شافعٌ ومُشفع، وقائلٌ ومصدق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفع فيه، فإنه

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٣٠/ ٣/ ١٤١٩هـ.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٥.

ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حَرَثة القرآن).

«فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم واستنصحوه على أنفسكم، وأتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم»(١).

عباد الله وفي هذا الزمان يكثر في المسلمين هجرةُ القرآن إما حسًا أو معنى.. أو كليهما.. إذ لا يقيمون وزنًا لتلاوته ولا يتدبرون آياته..

ولا يعملون بتوجيهاته، ولا ينتهون عند حدوده ومحارمه.. حتى وإن قبلوه عند التلاوة.. أو رفعوه في أمكنة علية، أو ابتدأوا به في مناسباتهم العامة، أو قرؤوه على موتاهم!

ويوجد في المسلمين أيضًا من يحفظون كتاب الله، ويكثرون تلاوته.. ولكن يقل فيهم المتأدب بآدابه، والمستشعر لفضل الله ونعمته عليه به، ويقل فيهم العامل به، ويكاد يصدق في المسلمين اليوم مقولة ابن عمر ﵄ وهو يقارن بين السلف والخلف في العمل بالقرآن يقول: إذ كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به(٢).

أخوة الإسلام لقد استشعر السابقون من أهل الإيمان والتقى قدر القرآن، وعنهم قال الحسن بن علي ﵄: **«إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويعتقدونها في النهار»**(٣).

---

(١) أحكام القرآن، الكيل الهراسي ١/ ٦.

(٢) القرطبي. الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٠.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن، النووي ٢٨.

واعتبر من بعدهم تلاوة القرآن شرفًا وكرامة، حتى قال ابن الصلاح -يرحمه الله- قراءةُ القرآن كرامة أكرم الله بها البشر، فقد ورد أنَّ الملائكة لم يعطوا ذلك وإنها حريصة على استماعه من الإنس[١].

وليس يخفى أن أهل القرآن هم خيارُ الأمة.. بل هم أهلُ الله وخاصته، ففي قوله تعالى: «**كنتم خير أمة أخرجت للناس**»، وقوله ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

وقوله في حديث آخر: «**إن لله ﷻ أهلين من الناس**»، قيل من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»[٢]. في هذا كله ما يؤكد أن أهل القرآن خيارٌ من خيارٍ، وأنهم خاصة الخاصة.

«**وصاحب القرآن حامل لواء الإسلام كما قال القاضي عياض يرحمه الله: حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلغو مع مَنْ يلغو ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلهو مع من يلهو تعظيمًا لله تعالى**»[٣].

يا حامل القرآن أخلص في حمله، واعمل بما فيه، وأبشر بالخير والمثوبة عاجلًا وآجلًا، وردد، وقف، وتمعن قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٤] قال ابن عباس ﵄: فضل الله ودونك هذا الحديث -وما فيه من فضائل وكرامةٍ لصاحب القرآن- فقد روى الإمام أحمد، وابن ماجه، والدارمي، حديثًا وإن كان فيه ضعف فيحتمل التحسين -كما قال بعض أهل العلم عن بريدة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ القرآن يلقى**

(١) الإتقان، للسيوطي ١/ ٢٩.
(٢) رواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ١٧٨).
(٣) مختصر منهاج القاصدين ٤٥.
(٤) سورة يونس، آية: ٥٨.

صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره، كالرجل الشاحب، فيقول هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كلَّ تاجرٍ وراء تجارته، وإني لك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويُكسى والداه حليتين لا تقوم لهما الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن، ثم يُقال اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفها، فهو في صعود ما كان يقرأ هذا كان أو ترتيلًا»[١].

أيها المسلمون: كما يكرم ذو الشيبة المسلم، وذو السلطان المقسط.. فكذلك ينبغي أن يكرم حامل القرآن.. فذلك من إجلال الله.

فقد صح في الخبر عن رسول الله ﷺ: **«إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»**[٢].

عباد الله ما أضاع وقته من صرفه لحفظ القرآن أو تدبره أو أكثر من تلاوته، وما مرض قلبٌ عاش مع القرآن، وبم يترنمُّ من لم يتغَنَّ بالقرآن.. وبم يناجي ربه من لم يكن معه شيء من القرآن.. ألا وإن الذي ليس معه شيء من القرآن كالبيت الخرب.. وما هزمت أمة كان دستورها القرآن وما خاف الأعداء من شيء كخوفهم من القرآن، وما أقض مضاجعهم أكثر من عودة المسلمين للقرآن.

أيها المسلمون: عظموا كتاب ربكم واستشفوا به من أدوائكم، واطلبوا النصر به على أعدائكم، وميزوا به بين أعدائكم وأصدقائكم.. تأدبوا بآداب

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٣٠٤٨)، وأحمد (٣٤٨).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٠٥٣) ٣/ ٩١٨.

تلاوته ويرحم اللهُ أقوامًا كانوا إذا تثاءبوا وهم يقرؤون كتاب الله أمسكوا عن القرآن تعظيمًا له حتى يذهب عنهم التثاؤب، كما قال مجاهد يرحمه الله(١) وأنى لقوم تلك همهم وآدابهم أن يتشاغلوا حين تلاوته.. أو ينشغلوا عن تلاوته وتدبره.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢). نفعني الله وإياكم.



(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٧.

(٢) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين يمن على من يشاء بفضله، والله ذو الفضل العظيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فضل بعض خلقه على بعض في الدنيا.. ولكن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أكرمه ربُّه إذ أنزل عليه القرآن وكان خُلقه القرآن. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإيمان: لا تجارة أعظم من تجارة الإيمان وعمل الصالحات، وتلاوة كتاب الله ضمن التجارة التي وعد الله أنها لن تبور.. وهنيئًا لقراء القرآن لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾، قال قتادة: كان مطرف بن عبد الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القُراء[1].

ومع فضل الجهاد فقد سئل سفيان الثوري يرحمه الله، عن الرجل يغزو أحب إليك، أو يقرأ القرآن؟ فقال: يقرأ القرآن، لأن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

ويروى أن بعض فقهاء مصر دخلوا على الشافعي -يرحمه الله- وهو في المسجد وبين يديه المصحف، فقال له الشافعي: شغلكم الفقه عن القرآن، إني لأصلي العتمة، وأضع المصحف بين يدي، فما أطبقه حتى الصبح»[2].

وبقدر ما تكشف هذه النصوص عن قدر القرآن وقيمته وصرف الهمم له عند

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٦٢.

هؤلاء الأخيار، فهي تكشف عن جلدهم وطول مكثهم في تلاوته وتدبره، كيف لا والمشغول بالقرآن يُعطى أفضل ما يُعطى السائلون، ففي الحديث القدسي يقول الربُّ تبارك وتعالى: «**من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»(١).

عباد الله وقيمة التلاوة للقرآن بتدبره والتأثر به، وإنما أنزل القرآن ليتدبر ويعمل به، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

قال البقاعي -يرحمه الله- في تفسير هذه الآية، أي لينظروا في عواقب كلِّ آية وما تؤدي إليه، وما توصل إليه من المعاني الباطنة التي أشعر بها طول التأمل في الظاهر، فمن رضي بالاقتصار على حفظ حروفه كان كمن له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نتوجٌ لا يستولدها، وكان جديرًا بأن يضيع حدوده فيخسر خسرانًا مبينًا»(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٤)، وقوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٥). قال القرطبي: دلت هذه الآيات على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه(٦).

أيها المسلمون: إذا كانت قلةُ التدبر ظاهرةً فاشية فينا، فإنما أتينا من غفلتنا

---

(١) رواه الترمذي، (القرطبي ١/ ٤).
(٢) سورة ص، آية: ٢٩.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي ١٦/ ٣٣٧٥.
(٤) سورة محمد، آية: ٢٤.
(٥) سورة النساء، أية: ٨٢.
(٦) تفسير القرطبي ٥/ ٢٩٠.

عن أهمية التدبر من جانب، ورغبتنا أحيانًا لكثرة القراءة على أي حال كانت مع إنهاء السورة من جانب آخر، حتى قال أحد العارفين: إنما يؤتى أحدكم من أنه إذا ابتدأ السورة أراد آخرها»[١].

أما المنافقون فمن سيماهم الإعراض عن تدبر القرآن والتماس الهداية منه، وذلك لأن قلوبهم مريضة بالشهوات والشبهات ولذا عاب الله عليهم بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر في معانيه[٢].

يا أخا الإيمان فإن قلت فما السبيل لتدبر القرآن وكمال الانتفاع به؟ وجدت ذلك في قاعدةٍ جليلة جعلها ابن القيم رحمه الله على رأس الفوائد في كتابه الفوائد حيث قال: «**إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ، قال تعالى:** ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣] **إلى أن قال: فإذا حصل المؤثر -وهو القرآن- والمحل القابلُ، وهو القلبُ الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر**»[٤].

يا أيها الشيخ الكبير ماذا معك من القرآن، وما نصيبك من تلاوته وتدبره، ولئن فاتك منه شيء فيما مضى فاستدرك ما فاتك، فإن لم تستطع فشجع أولادك على حفظ كتاب الله والعناية به، ففضل الله واسع.

---

(١) البرهان ١/ ٤٧١، شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله، عبد العزيز مصطفى ص٢٠.
(٢) القرطبي ٥/ ٢٩٠.
(٣) سورة ق، آية: ٣٧.
(٤) الفوائد ص٣، شرح الأسباب العشرة ص٢٤.

أيها الموظف والمدرس والعامل النشط تُرى هل تستثمر شيئًا من نشاطك وفراغك في تلاوة كتاب الله وحفظ ما استطعت من حفظه، فالقوة يعقبها الضعف، والفراغ يعقبه الشغل، وتحية للمعلمين أو الموظفين وغيرهم الذين يجتمعون على حفظ كتاب الله وتدبره.

أيها الشاب الفتي ما نصيبك من كتاب الله حفظًا.. وما نصيبك منه تدبرًا، إياك أن يغلبك الفتيانُ في الحفظ في أيامك الأولى فتندم بعد على التفريط ولات ساعة مندم.

أيها المسلمون -رجالًا ونساءً- استوصوا بكتاب الله خيرًا، وأحلوه بالمنزلة التي أرادها الله له تفلحوا في الحياتين وتسعدوا في الدارين.

أما أنتم معاشر الحفاظ لكتاب الله فلي معكم حديث آخر يسره الله، اللهم أعنا جميعًا على العناية بكتابك وتدبره، واجعله لنا في الدنيا رفيقًا.



يا حامل القرآن(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٣).

أيها المسلمون لا ينتهي الحديث عن القرآن عند حدٍّ معين وعجائب القرآن لا تنتهي، والموعظة بالقرآن لا تقتصر على جيلٍ دون جيل، ولا عن فئة من الناس دون أخرى، لقد جعل الله القرآن مأدبته الأخيرة من السماء، لم ينزله جملة كغيره من الكتب، بل نجومًا متفرقة مرتلة ما بين الآية والآيتين والآيات، والسورة والقصة، في مدة زادت على عشرين سنة وذلك لتتلقاه الأمة بالحفظ ويستوي في تلقفه في هذه الصورة الكليلُ والفطن، والبليد والذكي والفارغ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٧/ ٤/ ١٤١٩هـ.

(٢) سورة الحشر، آية: ١٨.

(٣) سورة النساء، آية: ١.

والمشغولة، والأمي وغيرُ الأمي، فيكون لمن بعدهم فيهم أسوة في نقل كتاب الله حفظًا ولفظًا قرنًا بعد قرن وخلفًا بعد سلف(١).

عباد الله لقد نزل في وصف كتاب الله قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾(٢).

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى لنبيه ﷺ: «**إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرأه نائمًا ويقظان**»(٣).

وعلق النووي رحمه الله على الحديث بقوله: فمعناه: محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليها الذهاب، بل يبقى على مرِّ الزمانِ(٤).

يا حافظ القرآن هنيئًا لك بحفظ القرآن إذ كنت في عداد العلماء، فانظر يا هذا ماذا علمك القرآن؟ وماذا تعلم من علوم القرآن، وأسراره، وحكمه؟

يا حافظ القرآن.. لك البشرى إذ كنت في طليعة أمة جاء وصفها في الكتب المتقدمة بأن أناجيلهم في صدورهم(٥).

ألا ويح الأناجيل المكرمة إن لم تغن عن أصحابها شيئًا ألا ويح القراء والحفاظ، إن حملوا ما لم يُعظموا، أو جهلوا بما حملوا، أو لم يعملوا بما علموا؟

يا حافظ القرآن جاء في وصف القرآن الذي تحمله في صدرك قوله ﷺ: «**لو**

---

(١) الرازي، فضائل القرآن، ٤٩.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٩.

(٣) رواه مسلم ٢٨٦٥.

(٤) شرح مسلم ١٧/ ٢٠٤.

(٥) تفسير ابن كثير، عند آية العنكبوت ٣/ ٦٨٩.

جعل القرآن في إهاب ثم ألقي في النار ما احترق»[١].

وقد فسره بعض أهل العلم بأن المقصود بذلك حافظ القرآن، وقال أبو أمامة «**اقرأوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف فإن الله لا يعذب بالنار قلبًا وعى القرآن»**[٢].

وقال أبو عبيدة: «**وجه هذا عندنا أن يكون أراد بالإهاب قلب المؤمن وجوفه الذي قد وعى القرآن»**[٣] ألا فاغتبط بهذا الفضل، وعظم كتاب الله، وما أسعدك حين تكون في عداد الناجين -برحمة الله- من النار.

وفي لفظ: «**لو جُمع القرآن في إهاب ما أحرقه الله بالنار»**[٤].

يا حافظ القرآن وأنت مغبوط، بل محسودٌ على حفظ كتاب الله وتلاوته، روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا حسدَ إلا في اثنتين، رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناءَ الليل وآناء النهار...»**[٥] الحديث.

فهلا قدرت هذه النعمة، وهل تقوم بحقها فتتلو كتاب الله آناء الليل وآناء النهار.. تقرأه حضرًا وسفرًا راكبًا أو ماشيًا أو قاعدًا أو نائمًا.. ويظل يُسرج في قلبك حتى تضيء منه على الآخرين.. ويظل يمدك بالنور فتكشف به أمارات الطريق لمن ضلوا السبيل.

أجل لقد نزل القرآن أول ما نزل، ومهمته إخراج الناس من الظلمات إلى

---

(١) رواه أحمد والدارمي وغيرهما.

(٢) فضائل القرآن للرازي ١٥٥، ١٥٦، محمد الدويش: حفظ القرآن ٢٤.

(٣) فضائل القرآن: ٢٣.

(٤) صحيح الجامع ٥/ ٦٢.

(٥) ح ٥٠٢٦.

النور، وأوحى الله إلى نبيه ﷺ -فيما أوحى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[(١)].

وسائل نفسك يا حامل القرآن- ما نصيبك من إخراج من عمي في الضلالة إلى نور الهداية.. إن القرآن حجة لك أو عليك وأنت مؤتمن في حمله، ومسؤول عن العمل به، والدعوة إلى هديه.

يا حافظ القرآن وخليق بك أن تُعرف بخشوعك في صلاتك إذ بعضُ الناس عن صلاتهم ساهون، وبحسن سمتك إذا بدأ بعض القوم في حديث الباطل يخوضون، وببكائك وخوفك إذا ما الناس يضحكون وعن أهوال يوم القيامة غافلون، وبصدق أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر، إذا علمت البلوى بالمداهنة، وضعف جانبُ الأمر والنهي بين العامة والخاصة يا أهل القرآن أوتروا وليطل قيامكم بالقرآن، ولتمتلئ محاريبكم بالدموع خوفًا من الرحمن، وحزنًا على واقع أمة القرآن وأين هممكم من همة الشاب عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما -وقصته مشهورة في الصحيحين وغيرهما- قال: كنتُ أصوم الدهر واقرأ القرآن كلَّ ليلة، فإما ذُكرت لرسول الله ﷺ، وأما أرسل لي، فأتيته فقال: «**ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كلَّ ليلة؟**» قلتُ: بلى يا نبي الله، ولم أردْ إلا الخير، قال: «**فإن بحسبك أن تصوم من كل شهرٍ ثلاثة أيام**»، إلى أن قال: «**واقرأ القرآن في كل شهر**»، قال: قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فاقرأه في كل عشرين**»، قال قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فاقرأه في سبعٍ ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا، ولجسدك عليك حقًا..**» الحديث[(٢)].

(١) سورة إبراهيم، آية: ١.

(٢) انظر صحيح مسلم ح ١١٥٩.

يا أيها الحافظ فإن تقاصرت همتُك عن هؤلاء، وقلت في نفسك: تلك أمة قد خلت، ولا سبيل لمحاكاة رجالها.. ويصعب التعلق بقصص أولي العزم فيها؟ قلتُ دونك وفي همم المعاصرين ما يشحذ العزائم، ويجدد ذكرى السابقين وقد حدثني من أثق به أن الله فتح عليه وأعانه في مرحلة من مراحل عمره، فكان يختم القرآن كل ليلة، وما انقضت العشرُ الأواخر من رمضان حتى أتم معها عشر ختمات للقرآن. وكم لله من فضل على عباده وكم في المحن من منح إلهية، وفيما تكره النفس خيرًا كثيرًا.

إنها فتوحات ربانية، وعزائم بشرية صادقة.. تقوي العزائم وتجدد الهمم، وتثبت أن في النفس قدرة على العطاء إذا ما أُخذت بالجد، واستعانت بالواحد الأحد.. ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ومن لم يستطع أن يبلغ ما بلغه أولو العزائم فليتشبه بهم، وليحدث نفسه بسيرهم، وليحافظ على ما استطاع من ورده من القرآن فالعمل القليل الدائم يحبه الله، وهو وصية وسيرة رسول الله ﷺ، وليس في القرآن قليل، والآيتان منه خير من ناقتين كوماوين والثلاث خيرُ من ثلاث، وأربع خير من أربع ومن أعدادهن من الإبل، كذا قال المصطفى ﷺ في وصيته لأهل الصفة في الغدو إلى المسجد وتلاوة كتاب الله(١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾(٢).

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم (٨٠٣).

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥٥.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أنزل على عبده الكتاب لينذر به وذكرى للمؤمنين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أعلى منزلة القرآن بين كتبه المنزلة، وجعله نورًا يهدي به من يشاء من عباده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أمره ربُّه بقراءة القرآن على مُكثٍ، كما أوحى الله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[1] فقام به ﷺ حتى تفطرت قدماه، واستن بسنته أصحابه والتابعون وخيار الأمة سلفًا وخلفًا ولن تزال العناية بالقرآن حتى ينقضي الليلُ والنهار تحقيقًا لوعد الله بحفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2].

أيها المسلمون عمومًا.. وأيها الحافظون لكتاب الله خصوصًا استشعروا عظيم نعمة الله عليكم بالقرآن، وإياكم أن يكون أغلى ما عند الناس أرخص ما لديكم.

ومن وصايا الأئمة أسوق لكم قول الفضيل -يرحمه الله-: «**ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له حاجةٌ إلى أحد من الخلق وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه، وحامل القرآن حاملُ راية الإسلام لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلهو مع من يلهو**»[3].

ووصية الآجري -هي الأخرى- ذات قيمة فاعقلوها واعملوا بها، يقول -يرحمه الله-: فأول ما ينبغي لحافظ القرآن أن يستعمل تقوى الله في السر

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٩.
(٢) سورة الحجر، آية: ٩.
(٣) الآجري، أخلاق أهل القرآن (٣٧)، أبو نعيم ٨/ ٩٢.

والعلانية باستعمال الورع في مطعمه ومشربه، وملبسه ومسكنه، بصيرًا بزمانه وفسادِ أهله فهو يحذرهم على دينه، مقبلًا على شأنه، مهمومًا بإصلاح ما فسد من أمره، حافظًا للسانه، مميزًا لكلامه، همه في درس القرآن إيقاعُ الفهم لما ألزمه الله من اتباع ما أمر والانتهاء عما نهى، ليس همتُه: متى أختم السورة؟ بل همتُه: متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من المحسنين، متى أكون من المتوكلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟.. إلخ الصفات الحميدة والخلال الكريمة التي يسائل نفسه متى يبلغها؟[1].

أما أبو موسى الأشعري ﷺ وهو من يُعرف بحسن التلاوة لكتاب الله، فقد روي أنه جمع الذين قرءوا القرآن - وهم قريبٌ من ثلاثمائة، فعظم القرآن وقال: إن هذا القرآن كائن لكم ذخرًا وكائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن اتبعه القرآن زخَّ به في قفاه فقذفه في النار»[2].

يا حامل القرآن إياك أن ترائي بحمله، أو تتكبر فتغمط أحدًا حقه أن آتاك اللهُ القرآن.. ولا خير فيك إن لم يهذب القرآن خلقك، ويحببك للناس ويحبب الناس إليك، بل وينبغي أن تسجد لله شكرًا أن آتاك القرآن، وتحمده سرًا وجهرًا وظاهرًا وباطنًا أن جعلك من أهل القرآن، فلم تحفظه بحولك وقوتك، ولا بفرط ذكائك وقوة صبرك بل بحول الله وتوفيقه وإعانته.. فهناك من يفوقك في هذه الصفات كلها ولم تمكنه هذه القدرات كلها في حفظ كتاب الله. فاعقل وثمن نعمة الله عليك واعلم أنك ممتحن فيها، فاشكر الله عليها، وأدِّ حق الله فيها،

---

(١) الآجري، أخلاق أهل القرآن (٧٩)، محمد الدويش، حفظ القرآن ٦١.

(٢) الدارمي (٣٣٢٨)، والآجري (٣)، وانظر: حفظ القرآن ٦١.

وليرى الناس فيك أخلاق القرآن، وصفات المؤمنين، وسيما الخاشعين فيعلموا بها وبآثارها إنك من أهل القرآن وان لم يجزموا أنك من حفاظ كتاب الله.

يا حامل القرآن من حق الله عليك في هذه النعمة أن تعلم القرآن من احتاج إلى تعليمه.. وتذكر بقيمة تلاوته وتيسير حفظه من ظن ذلك أو توهمه أمرًا عسيرًا.. لتكن مصباحًا يضيء حيثما حلَّ أو ارتحل، ولتكن نموذجًا للعلم والوعي تذود عن حياض الإسلام سهام الموتورين، وتذود عن لغة القرآن كيد الكائدين.

أيها المسلمون كبارًا وصغارًا، ذكرانًا وإناثًا. هذه بعض مزايا وفضائل حفظ كتاب الله.. إلا وإن الفرصة لا تزال متاحة لمن فاته الركبُ في سني عمره الأولى.. فلا حدَّ للحفظ وإن كان في زمن الصبا أولى وأحرى بالثبات.. ولكن التاريخ يثبت والواقع يشهد بأن مجموعة من الناس حفظوا كتاب الله على كِبرَ، إنها الهمة الصادقة والعزيمة القوية والاستعانة بالله وحده تذلل الصعاب وتجعل العسير سهلًا والمستحيل أمرًا واقعًا.. فجدوا معاشر المسلمين في طلب كتاب الله وحفظه.. واحرصوا معاشر الآباء والأمهات على تنشئة أبنائكم وبناتكم على حفظ كتاب الله والعناية به، فمن أسرار القرآن وإعجازه أن الصبي قد يتهيأ لحفظ كتاب الله وهو بعدُ لا يعرف للحرف شكلًا، ولا يملك من اللسان العربي إلا كلماتٍ محدودة.. ثم ما يلبث زمنًا إلا وقد حفظ كتاب الله.

معاشر المسلمين لا يغب عن بالكم وأنتم تحاولون حفظ كتاب الله أو تحفيظه لأولادكم أن تذكروا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: «**أي سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد**

حفظه، فهل من طالب لحفظه فيُعان عليه»[١].

اللهم يسر لنا حفظ كتابك، وأعنا على تدبره والعلم به، والعمل بمقتضاه.. اللهم اجعلنا من أهل القرآن.. اللهم حكمه فينا وفي المسلمين.



(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٣٤.

آية محكمة ودلالتها[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر أنبياء الله ورسله، وارض اللهم عن أصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2].

عباد الله، تنطوي هذه الحياة الدنيا على مسرات وأحزان وشدة ورخاء، وليست المسرات والرخاء علائم خيرٍ دائمًا، وليست الأحزان والشدائد دليل شرٍ أو سخط على العبد، كلا وفي الناس من يتقلب في النعيم ويعيش معظم حياته في لهو ولعب، قد ترك لنفسه العنان لتقوده من شهوة إلى أخرى ومن الناس أيضًا من يكابد المرض، أو تتوالى عليه النوازل والمحن وإنك لتعجب أن ترى الصنف الآخر المُبتلى أكثر أنسًا وسعادة من الصنف الأول. فكيف يقع ذلك؟ وللإجابة باختصار أقول: إن الإيمان إذا وقر في القلب لم يعد للمرء من منغص في هذا الحياة، وصاحبُه يرى مسكنه في الدنيا أعلى المنازل وإن كان مسكنه كوخًا مجمعًا. . أو بناءً صغيرًا متواضعًا تمرُ بصاحب الإيمان الشدة أو الحاجة

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٥/ ٤/ ١٤١٩هـ.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

والمرض فيصير لها راضيًا محتسبًا فيعيش مطمئنًا حينها، ثم تفرج الشدة وتقضى الحاجة ويزول المرض فيستبشر ويشكر، ويعيش في مسراتها أكثر مما عاشه المترفون طول حياتهم نعيمًا وأنسًا.

أجل يا عبادَ الله الأنس أنس الإيمان، والشقوة لأهل الكفر والفسوق والعصيان، وأن هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم.

هذه حقيقة ينبغي أن نعيها وأن اختلت موازين البشر في تقييمها.. لكنها أمر محكم، وقيمة ربانية.

ولتأكيد هذه الحقيقة تعالوا بنا لنقف على آية محكمة من كتاب الله طالما فرح بها المؤمنون، وأثر عن بعض السلف أنهم كانوا يقرءونها ويرددونها ويبكون لها حتى الفجر. تلكم الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[١].

«عن مسروق أن تميمًا الداري ﷺ قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية»[٢].

وقال بشير: بتُّ عند الربيع بن خثيم ذات ليلة فقام يُصلي، فمرَّ بهذه الآية فمكث ليلة حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد، كما كان الفضيل بن عياض -يرحمه الله- كثيرًا ما يقرأ هذه الآية ويرددها من أول الليل إلى آخره -كذا نظائرها- ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت؟

وكانت هذه الآية تُسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة[٣].

(١) سورة الجاثية، آية: ٢١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤١.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١٦٦.

يا أخا الإيمان أما نظائر هذه الآية فكثير في كتاب الله اقرأ وتمعن قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾(١).

واقرأ وتدبر قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾(٢).

وقف وقفة خاشع مصدق بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(٣).

أيها المسلمون ومن عدل الله ورحمته ألا يُسوِّي بين الأخيار والفساق، ومن باب أولى ألا يسوي بين المؤمنين والكفار سواءٌ في الحياة الدنيا أو في الآخرة.

وإذا عُلم عظيمُ الفرق في الجزاء في الآخرة، بما لا يمكن أن يتصوره المرءُ في مخيلته من أنواع النعيم، أو دركات الجحيم، والله يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٤).

وفي سؤال موسى عليه السلام ربَّه عن أدنى وأعلى أهل الجنة منزلة ما يكشف طرفًا من هذا النعيم، قال يا ربِّ ما أدنى وأعلى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يأتي بعدما يدخل أهلُ الجنة الجنة، فيُقال له: ادخل الجنة، فيقول أي ربِّ كيف وقد

(١) سورة السجدة، الآيات: ١٨-٢٠.
(٢) سورة ص، الآيتان، ٢٧، ٢٨.
(٣) سورة الحشر، آية: ٢٠.
(٤) سورة السجدة، آية: ١٧.

نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم، فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ ملِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت ربِّي، فيقول لك مثله، ومثله معه، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة رضيت ربِّ، فيقال هذا لك وعشرةُ أمثاله، ولك ما اشتهت نَفسُك ولذة عينُك، فيقول رضيت رب (فهذا أدنى أهلها الجنة منزلة).

قال موسى: ربِّ فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

فإذا قارنت هذه الصورة بصورة معاكسة قال الله في بيانها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(٢).

أدركت عظيم الفرق بين الفئتين، وتباين الصورتين وتفاوت المنزلتين -ولكن ينبغي أن تعلم- يا أخا الإسلام -أن فضل الله واقعٌ ونعمته حاصلة لأهل الإيمان في الحياة الدنيا، قبل بلوغهم ما وعدوا به في الآخرة.. وآية الجاثية تقرر هذا وتؤكده والله يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

(١) رواه مسلم.
(٢) سورة فاطر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

﴿بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[١]. فهم سعداء في حياتهم وبعد مماتهم وقيل إن الضمير في قوله (محياهم ومماتهم) يعود على الكفار، والمعنى: محياهم محيا سوء، ومماتهم ممات سوء.

وقال مجاهد: «**المؤمن يموت مؤمنًا ويبعث مؤمنًا، والكافر يموت كافرًا ويبعث كافرًا**»[٢].

وقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعد لنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار[٣].

أخوة الإسلام والمتأمل في آيات القرآن يلحظ الحديث عن عدل الله وبيان حكمته من خلق السماوات والأرض أو مؤخرًا حين الحديث عن فروق الجزاء بين الكفار والمؤمنين وبين المتقين والفجار، وحيث جاء ذكرُ العدل مؤخرًا في آية الجاثية السابقة، فقد جاء مقدمًا في آيات (ص) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾[٤].

أيها المسلمون وهذه الآيات ونظائرها داعية للإيمان مؤنسة للمؤمنين، وفيها الوعيد للكفار، وهي تكشفت عن نوع الحياة التي يعيشها الفريقان في الحياتين، وفيها مبشرات عاجلة لأهل الإيمان لا تبديل لكلمات الله، ولا مغير لحكمه، وحري بأهل الإيمان أن يفرحوا بهذه الآيات ونظائرها، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ

(١) سورة الجاثية، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٥، ١٦٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤١.

(٤) سورة ص، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ﴾[1].



(١) سورة يونس، الآيات: ٦٢-٦٤.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أجزل المثوبة لأهل الإيمان، وحكم بعدله وقضائه بالخيبة والخسران لأهل الكفر والطغيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهداه النجدين. . فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآيات الله يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، وما قبضه الله حتى ترك الأمة على محجة بيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك. . ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، ويرزقه العمل والاستعداد ليوم الدين، اللهم صل عليه وعلى إخوانه من النبيين و المرسلين.

أيها الناس يشهد الناسُ مصداق كتاب الله في واقع الحياة إذ يرون فقيرًا مدقعًا، أو مريضًا، أو مبتلى من أهل الإيمان ولكن حياته أنسٌ وطمأنينة ورضا وصبر وشكر، قانع بما آتاه الله، راضٍ بما قسم له، صابرٌ على ما أصابه.

ويرون ذا نعمةٍ موسرًا معافى ولكن الهموم تتناوشه، والأمراض النفسية تحيط به، ذلكم لقلة الشكر والذكر عند هؤلاء، وفي القرآن إشارة إلى غلبة التكذيب والبطر عند أهل النعمة: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[1].

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾[2].

وجاءت إشارات القرآن كذلك إلى ربط الرضى والصبر والشكر عند أهل

---

(١) سورة المزمل، آية: ١١.

(٢) سورة العلق، الآيات: ٦- ٨.

الإيمان والبلوى ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[١].

أخوة الإيمان هنا أتوقف عند ذكر الرحمة في هذه الآية إثر ما ابتلى الله به نبيه أيوب عليه السلام، حتى امتدحه الله بالصبر عليها في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٢].

وأقول إن القلة من الناس من يرى رحمة الله بعباده من خلال ابتلائهم بأنواع البلوى، ولذا قال العارفون: إن من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعُه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، ولكن العبدَ لجهله وظلمه يتهمُّ ربَّه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه وقد جاء في الأثر: أن المُبتلى إذا دُعي له: اللهم ارحمه يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟

وفي أثر آخر: إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدُكم مريضه.

فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه.

ومن رحمته سبحانه بعباده ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمةً وحميةً، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلًا منه عليهم بما نهاهم عنه فهو الجوادُ الكريم، ومن رحمته أن نغَّص عليهم الدنيا وكدَّرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٤٤.

ذلك بسياط الابتلاء والامتحان فمنعهم ليعظهم وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم ومن رحمته بهم أن حذرهم نفسه لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ كما قال غير واحدٍ من السلف «**من رأفته بالعباد حذرهم من نفسه لئلا يغتروا به**»[(١)].

أيها المسلمون ألا إن الذين يشهدون هذه المشاهد ويشعرون بهذه المشاعر هم المؤمنون حقًا، فهم يأنسون بذكر الله، ويشكرون أنعمه، ويصبرون محتسبين على أقداره وأولئك أهلُ الإيمان، وأصحاب الطمأنينة، وعنهم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[(٢)].

اللهم اجعلنا منهم بمنك وكرمك يا أرحم الراحمين.

أما غيرهم فيتأفف لكل نازلة، ويضيق بأي بلوى تصيبه إعراضه عن الله دائم، ونعم الله عليه تتوالى، فلا هو على النعم شكر، ولا عن التضجر عن مصائب الدنيا ازدجر، أولئك يعيشون حياة الضنك في الدنيا، ويحشرون يوم القيامة على وجوههم عميًا ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[(٣)].

وعلى قدر البعد عن الله ونسيان آياته، والإعراض عن ذكره يكون الضنك في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

يا أهل الإيمان اعرفوا ربَّكم- بأسمائه وصفاته -حق المعرفة، وقدروا نعمة

---

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان ٢/ ٢٥٢،٢٥٣.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٣) سورة طه، الآيات: ١٢٤-١٢٦.

الإيمان، واشكروه على نعمةِ الإسلام، وتحلوا بآداب الإسلام وقيمه، وقدموها للناس بسلوككم راضين مطمئنين شاكرين، ذاكرين، متطلعين إلى دار البقاء، متجافين عن دار الغرور، ألا فأكثروا من زاد التقوى فالسفر طويل، وخففوا أحمال السيئات فالعقبة كؤود. وأخلصوا العمل فالناقد بصير، وتفقدوا قلوبكم بالإيمان ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

إلا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسدُ كله، ألا وهي القلب.. اللهم أصلح فساد قلوبنا، وردنا والمسلمين إليك ردًا جميلًا.



(١) سورة التغابن، آية: ١١.

واجبنا مع بدء العام الدراسي[(١)]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين يُقلب الليل والنهار، وتتعاقب بإذنه الأمم والأجيال، وكلٌّ يوم هو في شأن، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مالك الملك، وما بكم من نعمةٍ فمن الله، وإذا مسكم الضر فإليه تجأرون وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، الأمين على وحيه، والشافع المُشفع للأمة، صاحب الحوض المورود وسيذاد عنه أقوام أحوج ما يكونوا إليه، وحين يسأل عنهم نبي الرحمة ويقول أمتي أمتي.. يجاب إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

اللهم ألهمنا العلم بسنته، وارزقنا الثبات على الحق الذي جاء به، حتى نلقاك ربَّنا وأنت راضٍ عنا.

اتقوا الله معاشر المسلمين في سرِّكم وعلانيتكم وإياكم أن يطلع الله في قلوبكم، خلاف ما تتحدث به ألسنتكم فاللهُ لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وسويداء القلب صمام الأمان.. إذا صلحت المضغة صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله..، وغدًا تبلى السرائر، وتكشف الخبايا، والناجون هم الصادقون المتقون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(٢)].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٠/٥/١٤١٩هـ.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[1].

عباد الله ابتدأ العام الدراسي، والمسافة بين امتحانات الفصل الماضي، وبدء الدراسة في هذا الفصل الحالي وإن كانت قصيرة في عمر الزمن. فهي طويلة في حساب المكاسب والخسائر.

أجل لقد غنم فيها قومٌ وغُبن آخرون.. كانت مكاسب لمن اغتنموها بالجد وعمل الصالحات، والقراءة النافعة ونحوها من أعمالٍ قد لا يتوفر الوقت لها أثناء موسم الدراسة.. أما الصنف المغبون فهم أولئك المفرطون لطاقاتهم، القاتلون لأوقاتهم، هؤلاء ظنوا الإجازة سهرًا وصخبًا، وخيل لهم أنهم يعيشون أحلى الليالي مع برامج ساقطة وعبر شاشات وقنوات هابطة تم انقشع الصبح وإذا بالسراب خادع.. وانتهت اللذة وهيجت الشهوة.. واستحكمت الغريزة، فعاش المُشاهد لحظات الحسرة والندامة، والصريع الأكبر من قادته هذه المشاهد إلى اقتراف المحرم، فاخترق الحمى، وتجاوز الخطوط الحمراء!!

معاشر الطلبة والطالبات عدتم إلى مقاعد الدراسة، والعودُ أحمدٌ إن شاء الله.. فكيف بدأتم هذا العام.. هل جددتم إخلاص النية لله في طلب العلم، وهل اتخذتم من الإجازة محطة للتقوية والترويح البريء، الذي يُسهم في تقبلكم للمعلومة المفيدة، هل تحتاجون إلى من يُذكركم أدب طلب العلم، وهل تمارسون الأدب مع معلميكم وزملائكم وهل تتذكرون يوم أن تسعوا كلَّ صباح إلى أماكن الدراسة قول المصطفى ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**» وتستحضرون تقوى الله في طلبكم العلم والله يقول:

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

أخي الطالب أختي الطالبة ما نوع الزملاء والأصدقاء الذين تختارونهم لرفقتكم أثناء الدراسة وخارجها، هل هم من النوع الذي يعينكم على الخير، ويساهم في تذليل المصاعب ويُشجع على الطموح؟ أم هم من النوع الذي يجركم إلى الوراء كلما حاولتم الصعود إلى الأمام، ويدعوكم إلى الرذيلة، ويسخر من الفضائل والمكارم.. ألا ففروا من المجذوم فراركم من الأسد.. واحرصوا على الجليس الصالح فهذا إن لم تبتعْ منه، أحذاك من رائحته الطيبة.. ويكفيك أنه محل وصية نبي الهدى والرحمة.. وأنت خبيرٌ بالفرق بين حامل المسك ونافخ الكير.. واختر لنفسك ما تشاء!!

أيها المعلمون والمرشدون وأيتها المعلمات والمرشدات.. وحين تتوافد عليكم هذه الجموع المتجددة من الطلبة والطالبات، فماذا أعددتم لهم وبم تستقبلونهم؟ وكيف وماذا ستعلمونهم؟ إنهم أمانة في أعناقكم فقدِّروا الكلمة التي تقولونها وزنوا الحركة قبل أن تتحركوها.. واعلموا أن الدارسين والدارسات يسمعون بأعينهم أكثر من سماعهم بآذانهم.. نعم إنها القدوة لا يكفي بها مجرد الكلام.. بل تحتاج إلى ممارسة الأفعال، والعلمُ ليس مجرد نصوص تُحفظ.. ولكنها الممارسة والتطبيق العملي الذي يجعل من النصوص أشكالًا تتحرك، وأشخاصًا تترجمها إلى واقع عملي فتنساب في أذهان الدارسين والدارسات ويتيسر عليهم هضمها والاستفادة منها.

أيها المدرسون والمدرسات مهنتكم من أعزِّ المهن، وقد قيل: كاد المعلمُ أن يكون رسولًا، فجملوها بالإخلاص، واحموها بالجدِّ والمتابعة ومهما كان نوع

(١) سورة البقرة.

رقابة البشر عليكم، فضعوا رقابة الله دائمًا نصب أعينكم وتذكروا دائمًا قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. اعلموا أن الغرس الذي تغرسونه اليوم سيثمر غدًا، ولا يكن شبحُ الامتحان همكم الوحيد، أو معوقًا لرسالتكم التربوية النبيلة، واستثمروا فرص النشاط اللامنهجية التي تبعث بها إداراتكم إليكم، وبأخلاقكم العالية ومعاملتكم الطيبة تصلوا إلى قلوب الطلاب قبل أن تصل كلماتكم إلى أسماعهم.

أيها المدراء الفضلاء أنتم على رأس المسؤولين في مدارسكم فكونوا عند حسن الظن بكم، وما أجمل الرئيس يجمع بين الحزم والحلم، وبين الضبط الإداري والمرونة في التطبيق، شجعوا المدرس والطالب المجد، وخذوا بأيدي الكسالى وساهموا في صعودهم إلى أعلى، وليكن أسوأ ما عندكم آخر سهمٍ في جعبتكم، عالجوا الأخطاء بحكمة، وإياكم والتساهل بعلاج الأخطاء أو الانحرافات فور وقوعها.. حتى لا تتسع دائرتُها، ويتعاظم خطرُها، اجمعوا بين اليقظة والثقة، وليكن لكم جولات ولقاءات متتابعة، أنصفوا المظلوم، وخذوا على أيدي الظالم.. وأشركوا البيت في مهمتكم، وتعاونوا ورجالات الحي في كل ما يحقق النجاح لرسالتكم، شكلوا من المدرسة أسرة صالحة بمعلميها وطلابها وإدارييها.. واجعلوا من تقوى الله، والإخلاص لله سندًا يمدكم الله بعونه، ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، ويجعل الله من أمره يسرًا.

ومثل ذلك يقال للمديرات الفاضلات.. وكلٌّ بحسبه.

معاشر الأولياء، أنتم شركاء للمدرسة في مسؤوليتها.. ولا ينتهي دوركم عند تأمين اللوازم المدرسية للطلبة والطالبات.. وإيقاظهم في الصباح ولا ينبغي أن يكون آخر عهدكم بالمدرسة تسجيلهم فيها.. لابد من متابعة الأبناء والبنات والسؤال عن حالهم وزيارة المدرسة بين الفينة والأخرى للسؤال عن الأبناء

والمساهمة في رأي أو اقتراح مفيد لعموم الدارسين.

معاشر الأولياء كم هو مؤلم أن تجد عناية من الأسرة لجانب من جوانب الطلبة، وترى إهمالًا في جوانب آخري.. وقولوا لي: بربكم هل أدى الأمانة من حرصه على استيقاظ ابنه للدراسة مقدمٌ على حرصه على الصلاة.. وتحسُره على فوته الدراسة أشدُّ من تحسره على فوت وقت الصلاة.. إنها ممارسات خاطئة يحس الطلبة والطالبات فيها بنوع من التناقض بين ما درسوه في المدرسة وما يجدونه في المنزل.. فعظموا أمر الله -معاشر الأولياء- في نفوس الناشئة، ومروهم بالصلاة لسبعٍ واضربوهم عليها لعشرٍ وفرقوا بينهم في المضاجع.. وإياكم وإشغالهم بمشاهد يطول سهرهم عليها فيأتون للمدارس وما بهم قدرة على التركيز والتحصيل وإن كانت هذه المشاهد محرمة فالأمر أدهى وأمر.

معاشر الأولياء تشكو المدارس من ضعف قوامة بعض البيوت على أبنائهم وبناتهم. وتلك مصيبةٌ وداء عضال ولاسيما إذا كان منشأه قلة الاهتمام والانشغال بأمور الدنيا.. وكل ذلك له آثاره على ضعف الطلبة والطالبات دراسيًا.. وانحرافهم -لا قدر الله- خلقيًا فتنبهوا لذلك معاشر الأولياء، وتذكروا دائمًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1].

❊ ❊ ❊

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين خلق فسوى وقدر فهدى وأخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو وحده الممسك لهما أن تزولا.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ترك الناس على المحجة البيضاء.. فتفرقت ببعضهم السبل -لضعف في الثبات على طريق الهدى.. أو لغلبة الهوى- والموفق من عصمه الله من الفتن.. وسار على طريق محمدٍ ومن بسنته اقتفى.. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أيها المسلمون المباني الدراسية ذات شأن في العملية التعليمية، فتهيئة المكان المناسب، وتوفير وسائل التبريد والتدفئة -ووجود ساحات ينطلق فيها الطلاب يروِّحون عن أنفسهم، وتوفر المعامل اللازمة لتدريب الطلبة، ووجود مكتبة عامرة يأوي إليها الطلاب والطالبات وينهلون من علومها، ويستعيرون منها ما لا يسعفهم وقت المدرسة بقراءته.. إلى غير ذلك من أمورٍ تُسهم في مسيرة العملية التعليمية بحيوية وراحة ونشاط.

أما المناهج الدراسية فهي والطالب المقصودة أساسًا بالتعليم ولهما يوفر المعلمون والمعلمات، ومن أجلهما تنشأ المباني وتوفر المعامل.. وتنفق النفقات.

ولذا فحريٌّ بنا معاشر المدراء والمعلمين والأولياء والطلبة.. أن نوليها من العناية ما تستحق، وأن نهتم مع جهات الاختصاص دائمًا في مزيد العناية بها وتطويرها للأفضل.

ومحور التطوير ينبغي أن يقوم على الأصول والثوابت وأن يبرز الهوية،

ويصون القيم، وأن يقدر تأريخ الأمة في فترات عزها ويسعى لتحقيقه، ويسبر أغوار ضعف الأمة ويجنب الناشئة سلوكه كما ينبغي أن تقوم المناهج كذلك على استثمار وسائل التقنية الحديثة، وطرق التربية النافعة وأن تصل الطالب بماضيه ولا تفصله عن حاضره، وأن تَبْنيَ هذه المناهج في الدارسين قوة العلم واليقين، والقدرة على تحدي ومنافسة الآخرين، بسلاح العلم والثقافة وأن تُخرج أجيالًا قادرة على التفكير، مستعدة للعطاء، نافعة لنفسها وللمجتمع من حولها.

أجل إن المناهج الدراسية بإلزاميتها للجميع قادرةٌ على رفع مستوى الأمة، إذا توفر لها مخططون مخلصون، يرون مواقع الضعف فيعالجونها.. ومواقع القوة الغائبة عن النشء فيعيدونها عبر المناهج بالوسائل المختلفة.

وإذا كان زماننا زمان صراع حضاري وعقائدي بين الأمم فإن من علائم إخلاص ووعي المعنيين بالمناهج.. اعتبار هذا التحدي والتركيز على المنطلقات العقدية والفكرية الصحيحة في بناء المناهج وصياغتها، وتوزيع التخصصات فيها، وحجم الساعات المقدرة لكل منها.

وعلينا مدراء، ووكلاء ومعلمين، ومرشدين، وطلبة نابهين أن نُسهم بالرأي والمشورة، من خلال تجاربنا وتدريسنا أو إشرافنا أو اطلاعنا على هذه المواد، وبوركت الأمةُ المتناصحة فيما بينها، وبوركت الجهود المبذولة من هنا وهناك والقرار في النهاية لأولي الأمر والعلم والاختصاص. كان الله في عونهم وسدد على طريق الخير خطاهم، وجنبهم الزلل وأقال عثرتهم، ونفع الأمة بجهودهم.

أيها المسلمون بقيت همسةٌ لطيفة، فقد تشتد ظروف الحياة على بعض الدارسين أو الدارسات.. وقد يشق عليهم توفيرُ ما يستطيع نظراؤهم توفيره.. فهل يجد هؤلاء من المدرسة رعاية خاصة وبطريقة مناسبة، لا تجرح شعورًا ولا تقلل قدرًا.. لكنها تُحسن وتبر وتتخذ من المدرسة جسرًا للمحبة والوصال

والنصيحة. بل وما أجمل المدرسة تكون مصدر إشعاع لأهل الحي تعين الضعيف، وتقوِّم المنحرف، وتعلم الجاهل، وتبصِّر الأسرة المحتاجة لسلوك الطريق القويم.

إنها رسالة المدرسة التربوية المتكاملة، ينبغي أن يحسَّ بها ويعمل لها العاملون المخلصون.. والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا وما فتئ المسؤولون في التعليم يقولون: إن من الخسارة ألا يستفاد من المباني المدرسية إلا بضع ساعات، ومن هنا جاء تأكيدهم على افتتاح مراكز الأحياء، وافتتاح المراكز الرمضانية في المدارس.. فهل نستفيد من المدارس بأكبر حجم ممكن- اللهم اهدنا لليسرى.



إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الناس أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وتلك وصية الله لكم ولمن قبلكم: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾(٢).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾(٣).

ألا فاتقوا الله عباد الله واشكروه وهو الذي أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون.

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ -وهو الصادق المصدوق- قال: «**إن أحدهم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يُرسل الله الملك فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن**

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ٥/ ١٤١٩هـ.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣١.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٥.

أحدَكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

أيها المسلمون.. في هذا الحديث سرٌّ عظيم من أسرار الحياة والأحياء، وقدرة إلهية عظيمة تتكرر وتتجدد عبر القرون، ويشهد بها الناس في أنفسهم وذراريهم ومن حولهم، وإن لم يقفوا على سرِّها.

والتأمل في هذا الخلق العجيب، والنظر في هذه الأطوار المتعاقبة للجنين حتى يخرج إلى الوجود يزدادُ لها المؤمنون إيمانًا وتقطع دابرَ الشكِّ، وتفحم أهل الإلحاد المنكرين لوجود الخالق جلَّ جلاله..

إن هذه النطفة بتشكلها وأطوارها واحدةٌ من دلائل الإيمان بالخالق جلَّ جلاله، فهي لا تختلف في أسبابها، ولا تنقطع عن الوجود بتكررها، وهي آية كبرى تدل على عظمة من خلق فسوى والسرُّ الأعظم أن هذا الإنسان المدرك فيما بعد، صاحب القوى والقدرات، والطاقات والانفعالات.. أصله من ماء مهين التقى فيه ماءُ الرجل مع ماء المرأة، فتولى الله خلقه وتكوينه عبر مراحل وأطوار، لا يعلمُ بها أقرب الناس إليها -إلا بعد تحركها ونفخ الروح فيها فتبارك اللهُ أحسن الخالقين.

هذه النطفة يعلم الله بدءها وهو الذي يصورها ويعلم ما ستكون إليه، ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).

---

(١) البخاري ح ٦٥٩٤، مسلم ١٨٤٧ (المنذري) وهذا لفظه.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٦.

ولا يقف علمه -سبحانه- بكونها ذكرًا أو أنثي، بل يعلم قدرها وأجلها وفقرها وغناها، وشقاها وسعادتها، وحيث أطلق علمُ اللهِ فيها بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾[1]. فهو شاملٌ لكل ما يتعلق بهذه النطفة منذ بدء تكوينها إلى نهاية حياتها، وإلى أن تنتهي إلى المصير المقدر لها في الجنة أو في النار، وهذا ما يقف البشر عاجزين عن معرفته مهما تقدمت بهم وسوائل المعرفة، إذ هو من المغيبات التي لا يعلمها إلا الله -وهذه النطفة بما فيها من أسرار وإعجاز، وكثرة وانتشار في الأمم الخالية واللاحقة هينة على الله في خلقها وفي بعثها وكأنه لم يخلق إلا نفسًا واحدة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[2].

وفي ذلك ردٌّ على المنكرين للبعث، الذين جاءوا للنبي ﷺ يقولون إن الله خلقنا أطوارًا، نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظامًا، ثم تقول: إنا نبعث خلقًا جديدًا جميعًا في ساعة واحدة، فأنزل الله هذه الآية، والله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، بل يقول للقليل والكثير كُن فيكون[3].

عجبًا لك يا ابن آدم إذا اشتد عودك، وكملت قواك، نسيت الذي خلقك من ضعف، وبدأت تجادلُ وتخاصم ناسيًا أو متناسيًا أصل خلقتك، وسرِّ العظمة في بداية تكوينك، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4].

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.
(٢) سورة لقمان، آية: ٢٨.
(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ٧٨.
(٤) سورة يس، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

وعجبًا لك يا ابن آدم، ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك، ثم أنت بعدُ تكذب أو تشك في يوم الدين، وإن لم تقل هذا بلسانك، فلسان حالِك يشهد بإضاعتك للواجبات وارتكابك لكثير من المحرمات وقد لا تشعر بخطئك، وقليلًا ما تستغفر ربك، فأين ما يستلزمه الإيمان بالدين من خالص المحبة لله والتوكل عليه، والخوف منه، والرغبة إليه.

أيها المسلمون الإيمانُ بعظمة الخالق وقدرته من خلال بدء الخلق وتصوير الأجنة ينبغي أن يقود لمزيد الإيمان بالبعث والجزاء، وكثيرًا ما تأتي آيات الخلق وانتشار الأحياء في الحياة الدنيا، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾(١).

بل يقرر الله أن إعادة الخلق للبعث أهون عليه من بدئه- وله المثل الأعلى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢).

عباد الله في هذا الحديث الذي بين أيدينا إخبارٌ صادق بتقدير الرزق وتحديد الأجل لابن آدم وهو بعدُ في بطن أمه، فعلام الجشع في طلب الرزق إلى حدٍ

---

(١) سورة الحج، الآيات: ٥-٧.

(٢) سورة الروم، آية: ٢٧.

يتجاوز المرءُ الحلال إلى الحرام؟ أو إلى درجةٍ يشغله هذا الوزن المضمون عن المصير المحمود في الجنان وهو غير مضمون.

ولماذا التخوف على الحياة إلى درجة يخشى الناس فيها أكثر من خشية الله، ولربما قال الإنسان باطلًا أو كتم حقًا، تخوفًا أو تحسبًا أو توهمًا من الشيطان والله يقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(١)]، ويقول في آية أخرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[(٢)].

يا عبد الله لا يعني ذلك بحال ترك فعل الأسباب المأمور بها شرعًا ولا التقحم في المهلكات والمنهيات، ولكن اليقين والتوكل، والصدق مع الله، والإيمان بقضاء الله وقدره، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها وأجلها، ولو اجتمعت الأمة على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، بهذا جفت الأقلام وطويت الصحف وجرى قدر الله.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(٣)].



(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٥.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٣٤.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٥٧-٦٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى وهو العزيز الحكيم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى إخوانه وآله، ورضي عن أصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

إخوة الإيمان لا ينتهي الإعجاز الإلهي في خلق النطفة وتكوينها وتسويتها، بل تتكاثر هذه النطفة حتى ينشأ عنها الأنساب والأصهار، فهو في بداية أمره ولدٌ نسيب، ثم يتزوج فيصيُر صهرًا، ثم يصيرُ له أصهارٌ وأختانٌ وقرابات وكل ذلك من ماء مهين، ودليلٌ على قدرة رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾(١).

وسرٌّ آخر أن هذه النطفة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة حين استقرارها في الرحم تحمل معها مواصفات وموروثات الجنين بعد.

أما السرُّ الثالث فهو أن هذا الجنين يعيش ويتشكل في ظلمات ثلاث ظلمةِ البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾(٢).

والله تعالى وحده يتولى رعايتها، ويهيئ لها غذاءها، والظروف المناسبة لنموها، ثم بقدرته بعدُ يتولى إخراجها بعد اكتمال قواها وقدرتها على العيش

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٥٤.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦.

خارج هذا الجوِّ الذي ألفته. . فتبارك اللهُ الخالق، ونعم القادر المقدر، ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾.

إخوة الإسلام في نهاية الحديث لفتة ووقفة عند حسن الخاتمة أو سوئها، والثبات على الحقِّ إلى الممات أو الزيغ عنه نعوذ بالله من الحور بعد الكور، والضلالة بعد الهدى، فوالله إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باعٍ أو ذراعٍ فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غيرُ ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها.

قال ابن أبي حمزة -يرحمه الله-: هذه التي قطعت أعناق الرجال مع ما هم فيه من حسن الحال لأنهم لا يدرون بماذا يُختم لهم[1]. ترى من منا تُخيفه نهاية هذا الحديث فيظل دائبًا في عمل الصالحات خائفًا من الزيغ قبل الممات. سائلًا ربه دائمًا حسن الختام، والخوف والمصيبة حين يقل عملنا ويقل خوفنا، وحين ندعو «**اللهم أحسن خاتمتنا**» فهل ترانا نستحضر، ما جاء في نهاية هذا الحديث؟

وما أحرانا أن نتأمل ما جاء في الرواية الأخرى من حديث أنس عند أحمد وصححه ابنُ حبان بلفظ «**لا عليكم أن لا تُعجبوا بعمل أحدٍ حتى تنظروا بم يُختم له، فإن العامل يعمل زمانًا من عمره بعملٍ صالحٍ لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملًا سيئًا. .**» الحديث[2].

إخوة الإيمان في الحديث تذكيرٌ وتأكيدٌ على الإيمان بالقضاء والقدر وهو أحد الأركان الستة للإيمان فلا يتم إيمان العبد إلا به، وهو التسليم والرضا

---

(١) الفتح ١١/ ٤٨٨.

(٢) الفتح ١١/ ٤٨٧، ٤٨٨.

لأقدار الله على العبد، وفي الحديث الحسن الذي أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء مرفوعًا: «**إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه**»(١).

وكيف يجزع المرءُ ويتسخط من شيء قد كتبه الله عليه سلفًا وهو في بطن أمه، ولكن الإيمان بالقضاء والقدر لا يتعارض مع فعل الأسباب المشروعة ولا ينبغي أن يقعد بالإنسان عن العمل. فهذه كذلك من أقدار الله والعبدُ مأمورٌ بفعلها، ولهذا فحين سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن فائدة العمل مع تقدم القدر أجابهم بقوله: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» فقد أخرج البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا مع النبي ﷺ ومعه عودٌ ينكتُ به في الأرض فنكس وقال: «**ما منكم من أحد إلا قد كُتب مقعده من النار أو من الجنة**»، فقال رجلٌ من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: «**لا، اعملوا فكل ميسر**»، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ الآية(٢).

وفي هذا الحديث وأمثاله ردٌّ على شُبه القدرية الذين يتعلقون بالقدر ويتركون العمل، أو الجبرية الذي يقولون أن الإنسان مجبر على ما يقوم به ولا خيار له ولا مشيئة، ومذهب أهل السنة والجماعة أن كلَّ ما تحدث في الوجود بقضاء الله وقدره، ولكنهم يثبتون للعبد مشيئةً وإرادة بها يتجه للخير أو للشر، ولكنها لا تخرج عن مشيئة الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

وخلاصة هذه النظرة عبَّر عنها العلماء بقولهم: «**إن الله أمرنا بالعمل فوجب علينا الامتثال، وغيَّب عنا المقادير لقيام الحجة، ونصب الأعمال علامةً على ما**

---

(١) الفتح ١١/ ٤٩٠.

(٢) ح ٦٦٠٥، الفتح ١١/ ٤٩٤.

سبق في مشيئته فما عدل عنه ضل وتاه لأن القدر سرٌّ من أسرار الله لا يطلع عليه إلا هو، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة كشف لهم عنه حينئذ»[١].



(١) الفتح ١١/٤٩٨.

أين الإرهاب؟[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فأما بعد فاتقوا الله عباد الله وكونوا مع الصادقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣].

أيها المسلمون: تفنى الأمم وتُدمرُ الحضارات حين تكون القوة لغة التفاهم بين مجتمعاتها، ويختل الأمن ويتراجع المدُّ الحضاري حين يسهل استخدام وسائل التدمير في غير موضعها. ومن سنن الله في كونه تعجيلُ نهاية الدول حين تستعلي بقوتها، وتمتد مساحة ظلمها، ويتعاظم فسوق المترفين فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٤].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٤١٩/٥/٦هـ.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٤) سورة هود، آية: ١٠٢.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

لقد قصَّ الله علينا في كتابه العزيز نماذج لدول سادت ثم بادت، وحضارات شُيِّدت في سهول الأرض، ونحت أصحابها من الجبال بيوتًا فارهين، فلما استكبروا وطغوا واغتروا بقوتهم أهلك الله الظالمين منهم، وعادت قراهم حصيدًا كأن لم تغن بالأمس، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[2].

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملكُ مُلكه، والخلق خلقه، والقوة قوته، والأرض له يورثها من يشاء من عباده، والويل لمن غرته قوته واستصغر من دونه، ومنطق الجهل والغرور يحيق بأهله وفي التنزيل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[3].

أيها الناس: الإرهاب مرفوضٌ في شريعة الإسلام، ذلكم الإرهاب الذي يُفضي إلى قتل النفس بغير حق، ويخيف الآمنين، ويدمر المُنشآت ويبدد الطاقات، ولكن الإشكالية في تحديد مفهوم الإرهاب، ومن يوصفون بالإرهاب، وأين يكون الإرهاب ومصيبتنا في هذا الزمن أن تحديد المصطلحات متروكٌ للدول الكبرى تتلاعب فيه كيف شاءت، وتصف به من تشاء، ونتج عن

(١) سورة الإسراء، آية: ١٦.

(٢) سورة الفجر، الآيات: ٦-١٤.

(٣) سورة فصلت: الآيتان: ١٥، ١٦.

هذا أن ألصقت التهمُ بالعرب والمسلمين الذين يرفضون سياسات الغرب وحلفائهم في المنطقة العربية والعالم الإسلامي، ويكشفون الخبث والعداء السافر فيها ولهذا سحب اليهود والنصارى وأشياعهم مصطلحات: الإرهاب، والتطرف، والأصولية، ونحوها، على أبناء الأمة العربية الإسلامية، وهي في أصولها الحديثة مصطلحات نابعة من بيئاتهم ولها وجودٌ وأثرٌ في حياتهم وبين شعوبهم، والهدف من تحوير المصطلحات وتحبيرها تشويه صورة المنتمين للإسلام من جانب، وسَتْرِ سوآت الكفار وتطرفهم من جانب آخر.

أخوة الإسلام تعالوا بنا لنرى نوعًا من الممارسات والسياسات للدول ذات النفوذ في المنطقة، ونسأل أذلك من الإرهاب أم لا؟ فماذا يُقال عن قتل الأبرياء في مسجد الخليل، وتبييتهم وهم ركعٌ سجدٌ لله والعمل الإجرامي المتمثل بالمحاولة الصهيونية في حرق المسجد الأقصى؟[(١)] وماذا يُقال عن تطويق الإسلام ومحاصرة المسلمين وإعلان الحرب عليهم في كل من البوسنة والهرسك والشيشان، وكوسوفو؟ أليس من الإرهاب مشاركة الغرب في عزل الإسلام عن الحياة في تركيا، وتنحية الحزب الإسلامي عن الحكم حتى ولو جاء بإرادة الشعب واختياره؟.

يرى المراقبون أن لأمريكا دورًا في تأزيم العلاقات بين الهند وباكستان، وبين حركة طالبان وإيران ودول آسيا الوسطى وإذا حكم العقلاء -أن هذا- ومثله كثير -نوعٌ من الإرهاب العقدي والسياسي، فثمة إرهاب فكري يُصدِّره الغرب وفي مقدمته أمريكا، ومؤتمر المرأة في بكين نموذج صارخ لهذا الإرهاب الذي يتجاهل فيه المخططون للمؤتمر تعاليم السماء عامة فضلًا عن الاعتداء والسخرية

---

(١) الجزيرة ٣/ ٥/ ١٤١٩هـ.

بتعاليم الإسلام خاصة، بل لقد نجح إرهابيو الغرب وحلفاؤهم في عقد مؤتمر الإسكان في قلبِ العالم الإسلامي متحدين بذلك مشاعر المسلمين، وموقنين بأنَّ فساد المرأة بوابةٌ لفساد المجتمع، وأن تحديد نسل المسلمين أقصرُ الطرق لشل قوة المسلمين، ومنع تناميهم مستقبلًا، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ومن الإرهاب العقدي والسياسي والفكري إلى الإرهاب الاقتصادي حيث يتحكم الغرب في اقتصاد العالم، ومن جراء هذا التلاعب دخلت دول جنوب شرق آسيا مرحلة السبات الطويل نتيجة الخسائر المتلاحقة لاقتصادها، الذي أثَّر بدوره على الاقتصاد العالمي والرأسمالية الأمريكية والغربية سببٌ مؤثرٌ في ذلك[1].

أيها المسلمون من المسؤول عن تجويع شعب العراق المسلم، وأيُّ نوع من الإرهاب يكون موتُ آلاف الأطفال وانتشارُ الأمراض لدى شعب العراق العربي المسلم؟ وإذا فسدت القيادة وشذَّ الحزب الحاكم بالظلم والطغيان والفساد.. فهل يُسحب ذلك على الشعب العراقي بأكمله؟ إنها نوعٌ من الممارسات الإرهابية للشعوب المسلمة، تُختلق الأزمة فيها لتكون مبررًا لما وراءها.

عباد الله لم يكتفِ الغرب الكافر بخنق السودان وحصاره اقتصاديًا وعزله سياسيًا- وهو البلد العربي المسلم -بل زاد في إرهابه بضرب منشآتٍ صحية فدمرها وألحق الأضرار البالغة فيها فأين الإنسانية.. وأين حقوق الإنسان.. وأين الإسهامُ في نشر الأمن والسلام في العالم من قبل راعية السلام المزعوم؟! وهبوا أنه كان مصنعًا لنوع من الأسلحة كما زعموا.. فهل يبرر ذلك ضربه-

---

(١) جريدة الرياض ٢/ ٥/ ١٤١٩هـ، الافتتاحية.

وهل يجوز إقامة المصانع العملاقة الحربية في مكان ويُحظر في مكان آخر..؟ وهل كُتب على العرب والمسلمين تحريمُ الصناعات، وهو حِلٌّ للغرب وحليفتهم إسرائيل؟.

إخوة الإيمان، إذا كلفت الضربة الأمريكية الأخيرة للسودان والمخيمات في الأفغان مائةً وخمسين مليون دولار كما يقال، فهل ذلك قمعٌ للإرهاب أم هو بذاته نوعٌ من الإرهاب واستفزازٌ للمشاعر في العالمين العربي والإسلامي وخلق لأجواء الإرهاب؟

معاشر المسلمين لابد أن نفهم المصطلحات وما وراءها، ولابد أن نعي الأهداف من وراء الضربات، وإذا نظر البعض إليها على أنها محاولةٌ لستر السوءات وتغطية الفضائح، فهناك نظرةٌ أكثر عمقًا لهدف هذه الضربات والممارسات وغيرها وتقضي بكونها حربًا عقائدية مسيَّسة تقف اليهودية والنصرانية في طرف، والإسلام طرف آخر.. ومن استبعد هذه النظرة. فليراجع كتاب الله فيه من أمثال قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

وليراجع تصريحاتٍ أبى الله إلا أن تَفلتَ بها ألسنةُ القوم وهي تكشف عن الأهداف المبيتة والتخوف من الإسلام وأهله، ومن أواخر تصريحاتهم ما قالته وزيرة الخارجية الأمريكية بعيد ضرب السودان والأفغان، قالت: «**عندما تتعرض الولايات المتحدة لاعتداء سواءٌ في الحرب العالمية الأولى، أو الحرب العالمية الثانية، أو الحرب الباردة، فإننا نحتاج إلى جهد متواصل ضد ما يمثل التهديد الرئيس في نهاية القرن الحالي، وبداية القرن المقبل..**»[1].

(١) الحياة، السبت ٣٠/٤/١٤١٩هـ ص٦.

ويُفهم من هذا التصريح أن الإسلام يمثل الخطر الرئيس الذي يهدد الغرب ولذا فلابد من جهد متواصل لحربه، والحربُ مع أبنائه طويلة الأجل وليست هذه المناوشات والضربات والتهديدات إلا حلقةً في سلسلة الصراع الطويل (وقد صدقت وهي كذوبة).

فهل ترفع هذه التصريحات الغشاوة عن أعين طالما أُصيبت بالرمد وتستنيرُ أفكارٌ طالما ظللتها الشعارات المُضللة وأوهمتها المصطلحات المصطنعة، واستجابت للناعقين وهم يفتكون بإخوانهم، وهم في الطريق إليهم إلا أن أتموا المسيرة معهم، ودخلوا جُحر الضب الخرب حيث دخلوا، فأولئك منهم وإن حسبوا على المسلمين في عدادهم؟

اللهم اكشف الغمة وأصلح أحوال الأمة، وانصر أبناء الملة المسلمة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]. نفعني الله وإياكم.



(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٢، ٣.

الخطبة الثانية:

الحمد لله القوي العزيز، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وهو شديد المحال، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرتُه من خلقه بعثه الله رحمة للعالمين، وكانت رسالته خاتمة رسالات السماء وناسخة لها، فلا يقبل الله من أحد غير الإسلام دينًا، فهو دينُ الله الخالد، وشريعتهُ هي الصالحةُ للتطبيق إلى يوم القيامة والمسلمون هم خلفاءُ الله في أرضه والمؤتمنون على تبليغ دينه. اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى سائر أنبياء الله ورسله.

عباد الله ويشهد على إرهاب الغرب إرهابيو الشرق، فقد وصفت روسيا الإجراء الأمريكي الأخير (بضرب السودان والأفغان) بأنه إرهابٌ دولي، وقال مدير مكتب (إف، بي، آي) إن قرار واشنطن ضرب مواقع في أفغانستان والسودان لا يتعلقُ بالضرورة بالتحقيقات الجارية في تفجير سفارتي نيروبي، ودار السلام..[1].

أيها المسلمون بقدر ما يستهين اليهودُ والنصارى والشيوعيون بدماء المسلمين تراهم يقيمون الدنيا ولا يقعدونها إذا تعرض فردٌ منهم للقتل، وكلما زاد عددُ القتلى تعاظم الأمر عندهم فهل دماءُ المسلمين بهذه المنزلة المهينة عند القوم؟ وهل كُتب القتلُ علينا والسلامةُ لغيرنا؟ إنها نوعٌ من الغطرسة والكبرياء لا مبرر لها إلا شعورهم الكاذب بالتميز علينا.. وقديمًا قال أسلافهم وكذّبهم القرآن: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) الحياة، السبت ١٤١٩/٤/٣٠هـ.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٧٥.

ولا يزال اليهود ينظرون إلى أنفسهم على أنهم شعب الله المختار.

إخوة الإسلام: من خلال الوقائع والأحداث المتلاحقة تبرز عدةُ دروس حريٌّ بالمسلمين أن يعوها ومنها:

١- إن الحربَ قائمةٌ بين الإسلام وملل الكفر ولابد من الاستعداد لها والشعور الحي بأسباب الهزيمة ومقومات النصر.

٢- ولا بد من الوعي بتحوير المصطلحات والهدف من تصديرها وإلصاقها بالمنتمين الصادقين للإسلام.

٣- وإذا استهدف الغرب بضرباته مجموعات صغيرة لا تقارن قوتها المادية بقوته، ولا تقنياتُها بتقنياته دلَّ ذلك على عظمة هذا الدين وتخوف الغرب من أبنائه ولو لم يبلغوا من القوة مبلغًا كبيرًا.. وهذا يدعو لمزيد التمسك بالإسلام والشعور بالعزة ولو تفوق عليهم عدوهم سياسيًا واقتصاديًا.

٤- ومن جانب آخر ففي الأحداث الجارية إيحاءٌ ظاهر بتخوف الغرب رغم قواهم.. وإذا أخافتهم قوى صغيرة فماذا لو اجتمع المسلمون واتحدت كلمتهم وقواهم؟

٥- وينبغي أن يُعلم أن العدوَّ اتخذ من ضعف المسلمين وتفككهم وتفرق كلمتهم مناخًا مناسبًا لكيل الضربات هنا وهناك وتصدير الأفكار الهزيلة في عدد من القضايا، وتلك واحدة من ضرائب الفرقة والشتات في العالم الإسلامي والعربي.

٦- وإذا اتحد الأعداء -رغم خلافاتهم- على حرب المسلمين تحت شعارات خادعة.. أفلا يدعو ذلك المسلمين إلى اجتماع الكلمة وتوحيد الصفوف، فهم بالاجتماع أحرى وأولى، والله تعالى يأمرهم بالوحدة على شرع

الله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١]. وينهاهم عن الفرقة والاختلاف: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

٧- وللإعلام دورٌ مؤثر في توضيح الصورة دون مخادعة، وعلى الإعلاميين كفلٌ كبير في كشف الحقائق لعامة الأمة، وفي مثل هذه الظروف تبرز الهوية ويتحدد نوعُ الفكر.. ويتبين الصادقون ومن يتحملون أمانة الكلمة، والموتورون ومن في قلوبهم مرض، ولسانُ حالهم يقول: نخشى أن تصيبنا دائرة ويقول غيرهم ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[٣].

وفرقٌ بين من يأوون إلى ركنٍ شديد فيتوكلون على الله ويستمدون النصر منه وحده، وبين من يُعلقون آمالهم على بشرٍ لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ومثل هؤلاء: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

٨- إخوة الإسلام: وعلى صعيد الواقع تنكشف الحقيقة في دعوى أمريكا محاربة الإرهاب، فإن كانت صادقة في محاربة الإرهاب فماذا صنعت بإرهاب الصرب النصارى، وإذا ثبت للعالم كلِّه أن بعض قادة الصرب مجرمو حربٍ فهل ضربت أمريكا مواقعهم في سبيل مكافحة الإرهاب؟

وإذا ثبت للعالم كذلك تغطرسُ الصهاينة اليهود في الأراضي المحتلة بتدنيس

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.
(٣) سورة المائدة، ٥٢.
(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤١.

المقدسات والاعتداء على حرماتها، وقتل الأبرياء، والاستمرار في بناء المستوطنات، واحتضان أنواع الأسلحة الكيماوية وغيرها.. وكل ذلك من الإرهاب، فماذا صنعت الدول الغربية- وفي مقدمتها أمريكا- لإيقاف هذا المدِّ الإرهابي الصهيوني المتنامي؟ إنها لعبةٌ مكشوفة يغض الطرف فيها عن إرهاب اليهود والنصارى، وتتركز التهم وتضخم القضايا على المسلمين وإذا كان الذئب لا يلام في عدوانه، فالمأساة أن تروج هذه الشائعات على بعض أبناء المسلمين. ومع ذلك كله فعسى أن تكون هذه الأحداث موقظة للمسلمين وباعثة لهممهم وموحدة لصفوفهم، وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.



فابتغوا عند الله الرزق[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله واهب النعم، ومحلِّ النقم، أحمده تعالى وأشكره وأثني عليه الخير كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهو خيرُ الرازقين.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله معاشر المسلمين وارجوا اليوم الآخر، ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣].

عباد الله يظل الرزق حبلًا ممدودًا بين السماء والأرض: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٤]. برهم وفاجرهم، ونعمة ورحمة يتفضل الله بها على الخلق أجمعين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[٥].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١١/ ٧/ ١٤١٧هـ.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٤) سورة الذاريات، أية: ٢٢.

(٥) سورة الذاريات، أية: ٥٨.

والله هو المقِتُ لكل شيء: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾(١). أي: مقتدرًا يُعطي كلَّ إنسانٍ قوته(٢).

لا إله إلا الله ينفردُ وحده بالربوبية والألوهية، ويختص وحده ببسط الرزق أو تقديره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

ولا إله إلا الله امتد رزقه فضلًا عن العقلاء، فرزق الطير في أوكارها، والسباعَ في جحورها، والحيتان في قاع البحار والمحيطات، وشمل رزقه الدواب بأنواعها وصدق الله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(٤).

معاشر المسلمين تأملوا عظمة الله وإحسانه وكمال قدرته فالذي لا يَحْملُ الرزق يُحمل له، والذي لا يملك قوتَ يومه أو غده ييسره الله له: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٥).

ومن لطائف ما يُذكر في تفسير هذه الآية: أن الغُراب إذا فقس عن فراخِه البَيْضَ خرجوا وهم بيضٌ، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أيامًا حتى يَسْوَدَّ الريشُ فيظل الفرخُ فاتحًا فاه يتفقد أبويه، فيقيضُ الله تعالى طيورًا صغارًا كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسودَّ ريشه، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رأوه أبيض الريش نفروا عنه، فإذا رأوه قد اسودَّ ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق(٦).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٥.
(٢) شرح السنة؟ للبغوي ١٤/ ٢٤٥.
(٣) سورة سبأ، أية: ٣٦.
(٤) سورة هود، أية: ٦.
(٥) سورة العنكبوت، أية: ٦٠.
(٦) تفسير ابن كثير للآية: ٣/ ٦٦٩.

أرأيتم كيف يتولى الله رزق الضعفاء حين يتخلى عنه أقرب الأقرباء الرحماء؟ إنها منتهى الرحمة وكمال الربوبية؛ رُحماك ربي، تمتلئ بطوننا، وتمتد ثرواتنا، وتتضخم أرصدتنا، ولا نزال نلهث وراء الدنيا، وربما خرجنا ولم نستمتع بما جمعنا، وربما صعب علينا إنفاقُ القليل منها.. ولو كان في ذلك الخير لنا ما هذا السُّعار، وما هذا اللهاثُ..

أين نحن من قوم هانت عليهم الدنيا، والتفتوا بهمم عالية إلى الأخرى.. وربما خروا على الأرض صرعى من الفاقة، والمخمصة فيظن الغريب أن بهم مسًا من الجنون، وما هو إلا الجوع، عن فضالة بن عبيدٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يَخِرُّ رجالٌ من قامتهم في الصلاة من الخصاصة -وهم أصحاب الصفة- حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم فقال: «**لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقةً وحاجة**»(١).

أين التوكل على الله والرضا بما قسم، والشكر على ما أنعم في الحاضر، والثقة برزق الله في المستقبل: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**»(٢).

ألا ما أحوجنا -جميعًا- إلى أن نأخذ هذا المال بسخاوة وطيب نفس، فذلك الذي يُبارك له فيه، أما الشرهُ والطمع والحرص والشح؛ فتلك تورد المرء موارد الردى، وهل تُروي البحار ظمأ العطش؟ تلك وصيةٌ من وصايا المصطفى ﷺ: «**يا حكيم بن حزام إن هذا المال خضرٌ حُلو، فمن أخذه بسخاوة نفسٍ بورك له**

---

(١) الحديث رواه الترمذي وقال حديث صحيح (رياض الصالحين ١٩٤).

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، والحاكم بسند صحيح (صحيح الجامع الصغير ٥/ ٦٠).

فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى..»[(١)].

أيها المسلمون ويَظلُّ أقوامٌ فقراء لما في قلوبهم من الهلع والجزع والحرص على الدنيا، وإن كانوا في عداد الأغنياء ويظل آخرون أغنياء يتعففون ويتكففون ولا يسألون الناس إلحافًا، وإن باتوا لا يجدون من الدنيا ما يطعمون لو شاءوا لكانوا من ذوي الثروة والغناء.

صلى عليك الله يا علم الهدى وأنت تربط على بطنك الحجرين من شدة الجوع والإعياء، ولو سألت ربَّك لأحال لك الصفا ذهبًا، وأنى لك أن تسأل هذا وأنت القائل: «**اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتًا**»[(٢)]، والقوت ما يسد الرَّمقَّ -عند أهل اللغة-.

وأبو هريرة ﵁ يقول عنك: «**خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير**»[(٣)]. كان غنى النفس هو مفهوم الغنى الحق عندك، وكذلك أورثت أصحابك، ولقد خرجت والمؤمنون معك بعد ثلاث سنوات من الحصار الاقتصادي الذي فرضته قريش عليكم في الأرزاق والمناكح، وأنتم أصلبُ عودًا، وأشدُّ على المبدأ الحق ثباتًا، وإن أكل المسلمون ورق الشجر، وإن كان أحدُهم ليضع كما تضعُ الشاة ماله خَلْطٌ.. لكنه الإيمانُ والصبر واليقين تندُك له الصخور الراسيات، وتستجيب له القلوبُ وإن لم تتخلص بعدُ من حمأة الجاهلية، ولم يسلم أصحابها مع محمد ﷺ وصحبه.

---

(١) الحديث متفق عليه (رياض الصالحين ٢٠١).

(٢) متفق عليه، رياض الصالحين ص١٩١.

(٣) رواه البخاري (رياض الصالحين ١٨٨).

أجل لقد تنادى قومٌ مشركون بنقض الصحيفة الآثمة الظالمة وكانت ترد بين الفينة والأخرى الإبل محملة بالأرزاق من المحسنين إلى حيث يُحصر المسلمون، فأُنهي الحصار، وأنزلت الصحيفة، وانتصر الحق، وخسر المبطلون في هذا اللون من الحصار على المسلمين، وكذلك يرزق صاحب التقوى من حيث لم يحتسب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

وكذلك تفلس وسيلة الحصار في الرزق التي عمدت إليها قريش في شعب أبي طالب، قبل ما يزيد على ألفٍ وأربعمائة سنة، وفي ذلك درسٌ وعبرة.

ألا فلنتق الله جميعًا في طلب أرزاقنا «**اتقوا الله وأجملوا في الطلب**» ولنثق بما عند الله لنا ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2]، ولنشكر الرازق على ما حباها ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾[3]، ولنثق بالخلف بعد الإنفاق ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[4].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[5].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وسنة نبيه، أقول ما تسمعون واستغفروا الله.



(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) سورة طه، آية: ١٣١.

(٣) سورة سبأ، آية: ١٥.

(٤) سورة سبأ، آية: ٣٩.

(٥) سورة طه، آية: ١٣٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله يُطْعِم ولا يُطعَم، وأشكره على جزيل النعم، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له رزقه ما له من نفاد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، رضي من الدنيا بالكفاف، وخرج منها ودرعه مرهونةٌ عند يهودي.. اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه من الأنبياء..

أيها المسلمون إذا كان غنى النفس مفهومًا شرعيًا وعقليًا للغنى الحقيقي، والرسول ﷺ يقول فيه: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»[(١)].

فثمة مفهومٌ آخر ينبغي أن يستقر في أذهان المسلمين فيقنعون وهم يطلبون الرزق من الله، ويقول عنه ﷺ: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًا في جسده، عنده قوتُ يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[(٢)].

الله أكبر توفيرُ قوت يوم يعدل حيازة الدنيا بحذافيرها.. ألا ما أعظم القناعة في هذا الدين.. وما أجمل الرضا والثقة برزق رب العالمين.

وهاكم وصيةً ثالثةً من وصايا خير المرسلين في الرزق ما أحوجنا إلى فهمها، وإقناع النفس بها، يقول عليه الصلاة والسلام: «**قد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»[(٣)].

أتدرون ما الكفاف؟ قيل: «**هو الذي لا يفضل عن الحاجة ولا ينقص**»[(٤)].

---

(١) متفق عليه (شرح السنة ١٤/ ٢٤٣).

(٢) رواه الترمذي وحسنه، وحسنه غيره (صحيح الجامع ٥/ ٢٤٥).

(٣) الحديث رواه مسلم (رياض الصالحين ١٩٤).

(٤) جامع الأصول ١٠/ ١٣٨، وانظر: النهاية ٤/ ١٩١ مع اختلاف يسير).

وسئل سعيد بن عبد العزيز: ما الكفاف من الرزق؟ قال: «**شبعُ يومٍ وجوع يوم**»(١).

وإذا كان ذلك كذلك فهل علمتم أن رزق آل محمدٍ ﷺ كفافٌ، فقد أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند حسن: «**كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير**»(٢).

عباد الله فإن قلتم فما الطريق إلى القناعة والرضا بما قسم الله أجبتكم بقوله ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلْقِ، فلينظر إلى ما هو أسفل منه**»(٣)، وفي رواية لمسلم: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»(٤). وإليكم نموذجًا عمليًا قال عون بن عبد الله بن عتبة: كنتُ أصحبُ الأغنياء، فما كان أحدٌ أكثر همًّا مني، كنت أرى دابةً خيرًا من دابتي، وثوبًا خيرًا من ثوبي، فلما سمعتُ هذا الحديث صحبتُ الفقراء فاسترحت» كذا جاء في رواية عن رزين(٥).

أيها المسلمون.. هذه المفاهيمُ الشرعية وأمثالها ينبغي أن يتذكرها المسلمون دائمًا وأبدًا وهم يطلبون الرزق، فتريحهم من العناء، وتصلهم بالأخرى وحين تختل هذه المفاهيم، وتُنسى هذه القيمُ، يُصاب الناسُ بأدواء الدنيا المهلكة، فتسود المنافسة والشحناءُ، ويسري الحسدُ والبغضاء، وتتحقق خشية

(١) شرح السنة للبغوي ١٤/ ٢٤٥.

(٢) رياض الصالحين ١٩٤، صحيح الجامع الصغير ٤/ ٢٥٤.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) جامع الأصول ١٠/ ١٤٢، ١٤٣.

(٥) جامع الأصول ١٠/ ١٤٣.

المصطفى ﷺ: «.. **فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

أو يكون الرزقُ داعيًا للكبر والخيلاء والعلو والفساد، وينسى هذا المسكينُ أن الرزق لا يعني الرضا، وإنما هو فتنةٌ وامتحان للمُعطى وفي نموذج «**قارون**» عبرةٌ وذكرى، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

عباد الله.. كما ينتج عن هذه المفاهيم الخاطئة في طلب الرزق الغفلة عن ذكر الله، والله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾(٣). أو عن الصلاة، والله يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(٤).

أما بيع الذمم، وضياعُ الدين بسبب الدنيا.. والمداهنة في بيان الحقِّ ضمانًا لحصول العيش وتوفر الرزق فذلك الذي توعد الله عليه بالويل ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(٥). وأصحابه لا خلاق لهم في

---

(١) متفق عليه (رياض الصالحين ١٧٩، فضل الزهد في الدنيا..).

(٢) سورة القصص، الآيات: ٧٨-٨٣.

(٣) سورة المنافقون، آية: ٩.

(٤) سورة الماعون، الآيتان: ٤، ٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ٧٩.

الآخرة، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

أيها المسلمون إياكم أن يكون طلبكم للرزق مفضيًا إلى الكسب الحرام من ربا أو غش أو خداعٍ أو قمار أو نحوها مما يُتحصل به على الحرام ففي الحلال غنية عن الحرام، والله يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢).

إياكم واتباع خطوات الشيطان في رزق الله ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٣).

وإياكم أن تكون هذه الأرزاق من الله لكم سبيلًا للفساد في الأرض أو الصدود عن سبيل الله أو منع ما أوجب الله، وقد جاءكم النذير منه ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٤).

وبالجملة فما أحرانا جميعًا للتنبه لمخاطر الدنيا وفتنتها وأن ندرك أننا مستخلفون فيها يقول عليه الصلاة والسلام: «**إن الدنيا حُلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعلمون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»(٥).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٤٢.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٥) رواه مسلم (رياض الصالحين ١٧٩).

ذكرى وتنبيهات للصائمين[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، بلَّغنا شهر الصيام، وأسبغ علينا نعمة الأمن والإيمان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده خزائن السماوات والأرض، وشهر رمضان شهر الجود والإحسان، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في رمضان حيث يُدارسه جبريل القرآن، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فاتقوا الله معاشر الصائمين واعلموا أن الصيام سبب ووسيلة للتقوى كما قال ربنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[2].

ويتذكر المتقون بتقواهم منازلهم وما قدموا لها وهم على يقين أن الله مطلع على ما يعملون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[3].

أيها المسلمون بشراكم شهر الصيام، وهنيئًا لكم إدراك شهر رمضان، وحقَّ للمسلمين أن يفرحوا ويغتبطوا بشهر القرآن، وكيف لا يفرح المسلمُ بشهر

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١/٩/١٤١٧هـ.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٣.

(٣) سورة الحشر، آية: ١٨.

الرحمة والمغفرة والعتق من النار، ويفرح المشمرون لأن الفرصة تتجدد لهم، ولأن أبواب الخير تهيأ لهم، ويستبشر أولوا العزائم لأن ميدانًا فسيحًا للمسارعة للخيرات يفتح أمامهم، وواعظ القرآن يغذو سيرَهم ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، كما يفرح المخطئون لأن الحسنة تضاعف لهم، ومردةُ الجانِ التي تُعيق سيرهم تُصفَّد ويضعف أثرُهم يستبشر المذنبون والمقصرون بشهر الصيام لأنهم يجدون فيه عونًا على التوبة وتطهير النفوس وإصلاح القلوب وما منا إلا وله ذنبٌ وخطايا، وفي شهر رمضان فرصةٌ للخلاص منها، والاستزادة من الحسنات الماحيات، والحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين.

أيها الصائمون.. يا من أدركهم شهرُ الصيام وهم يتمتعون بالصحة والعافية هلا تذكرتم إخوانًا لكم أقعدهم المرضُ عن الصيام مع المسلمين، وحبسهم العذر عن الصلاة والقيام مع المصلين، وهلا قادكم ذلك إلى شكر المنعم واستثمار الصحة بتقديم الصالحات، فقد يمرض الصحيح، ويضعف القوي، وحينها يتمنى على الله الأماني.

ويا من أدركهم شهر الصيام وهم آمنون في أوطانهم، مطمئنون بين أهليهم وعشيرتهم هلا تذكرتم نفرًا من المسلمين ساد الرعبُ والقلقُ بلادهم، وحل الخوفُ محلَّ الأمن بين شعوبهم هل ترونه يهدأ بال الخائف، أم ترونه يطمئن في عبادته الذي لا يأمن على نفسه ومن تحت يده..؟؟

إن الذين يُهيءُ اللهُ لهم نعمة الصحة في الأبدان والأمن في الأوطان، والفراغ مما يشغل بال الإنسان ثم لا يستثمرون هذه النعم في مرضاة الله هم مغبونون بكل حال يقول عنهم عليه الصلاة والسلام: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**».

أيها الصائم أدرك نعمة الله عليك وتدارك نفسك وتقرب إلى مولاك، وأضمر جيادك، والملتقى في جنان الخلد إن قبلت منا صلاة وطاعات وإحسان!!

يا أخا الإيمان افتح قلبك لداعي الخير، ولا يصدنك الشيطان وأنت في شهر الصيام فتقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين، أتدري لم سُمي رمضانُ برمضان؟ قال العلماء: لأنه يرمِضُ الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة -من الإرماض وهو الإحراق.

وقيل: لأن القلوب تأخذ فيه من حرارة الموعظة والفكرة في أمر الآخرة كما يأخذ الرملُ والحجارة من حرارة الشمس[١].

فما نصيبك أيها الصائم من هذه وتلك، ذلك سؤالٌ أطرحه على نفسك، وأنت في بداية الشهر، وأجب عليه في نهايته وإياك أن تظلم نفسك بنفسك، وسيُقال لك يومًا من الأيام ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٢].

يا أخا الإيمان أسوق لك أنموذجًا صالحًا للاعتبار في (الصيام أو القيام)، وفي حياة السلف عمومًا عبرٌ توقظ الغافلين وهممٌ تشدُّ أصحاب العزائم الصادقين.

وقد روي أن قومًا من السلف باعوا جارية لهم لقوم آخرين، فلما أقبل رمضان أخذوا يتهيأون بألوان المطعومات والمشروبات فلما رأت الجارية منهم ذلك قالت: ولم تصنعون ذلك؟ قالوا: لاستقبال شهر رمضان، فقالت: وأنتم لا تصومون إلا في رمضان؟ والله لقد جئتُ من قومٍ السنةُ عندهم كلُّها رمضان، ولا حاجة لي فيكم، ردوني إليهم ورجعت إلى سيدها الأول.

---

(١) تفسير القرطبي ٢/ ٢٩١.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١٤.

وفي قيام الليل يُروى أن الحسن بن صالح رَحِمَهُ اللَّهُ -كان معدودًا في الأخفياء الأتقياء- كان يقوم الليل هو وأخوه وأمه أثلاثًا، فلما ماتت أمه تناصف هو وأخوه الليل، فلما مات أخوه صار يقوم الليل كله[١].

يا أخا الإيمان جدد إيمانك في شهر الصيام وقد قيل للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[٢]. واستمر في إحداث التوبة والزم الاستغفار ولاسيما في شهر القرآن، ونبيك ﷺ يقول: «**إني لأتوب إلى الله تعالى في اليوم سبعين مرة**»[٣].

وفي حديث آخر صحيح: «**إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**»[٤].

وإياك أن تستثقل شيئًا من تكاليف الإسلام، أو تتبرم بشهر رمضان، وكم هي نهاية مؤلمة تلك الحادثة لسفيهٍ يُروى إنه ضاق ذرعًا حين أقبل رمضان، فأنشد:

دعاني شهر الصوم لا كان من شهر ... ولا صمتُ شهرًا بعده آخر الدهر

فلو كان يعديني الأنام بقوة على الشهر ... لاستعديت قومي على الشهر

فأصيب بمرض الصرع، فكان يصرع في اليوم عدة مرات، وما زال كذلك حتى مات قبل أن يصوم رمضان الآخر[٥].

يا أخا الإسلام: لا يغب عن بالك شفاعة الصيام والقرآن لأصحابهما، رَوَى الإمام أحمد والحاكم بسند حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيامُ: أي**

(١) دروس رمضان؟ سلمان العودة ٦، ٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٦.

(٣) حديث صحيح رواه النسائي وابن حبان (صحيح الجامع ٢/ ٣٢٤).

(٤) صحيح الجامع ٢/ ٣٢٥.

(٥) دروس رمضان ٨.

ربِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعتُه النومَ بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان»[1].

أيها الصائمون يا من تستعيذون بالله دائمًا من النار، تذكروا أن الصيام جُنةٌ من النار، قال عليه الصلاة والسلام: «**الصومُ جنةٌ يستجنُّ بها العبدُ من النار**»[2].

وتأمل عظيم فضل الله، ورسوله يقول في الحديث المتفق على صحته: «**من صام يومًا في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا**» فكيف بمن صام شهرًا كاملًا، وكيف إذا كان هذا الشهر شهر رمضان؟ اللهم لا تحرمنا فضلك، ولا تُلهنا عن ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[3].

نفعني الله وإياكم بهدي القرآن، وسنة محمد عليه الصلاة والسلام، أقول ما تسمعون.



(١) المسند ٢/ ١٧٤، مستدرك الحاكم ١/ ٥٥٤.

(٢) رواه الطبراني في الكبير بسند حسن (ح ٣٨٦٧).

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

الخطبة الثانية:

الحمد لله صاحب الفضل والإحسان، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد المنان، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أفضل من صلى وصام اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أيها المسلمون: هذه جملةٌ من التنبيهات والوصايا أذكر بها نفسي وإخواني الصائمين، ومن تذكر فإنما يتذكر لنفسه، والله يقول ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ فكن من أهل الخشية ولا تكن من الأشقياء

التنبيه الأول: احفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وإذا صمت لله فلتصم منك الجوارح كلها عما حرم الله، وكم هو غريبٌ وعجيب أن نلحظ بعض الصائمين قد امتنع عمَّا أحل الله له مؤقتًا من المطعم والمشرب والمنكح -تقربًا لله- ولكن فاته أن يمنع نفسه عما حرم الله عليه أبدًا من الغيبة والنميمة وقولِ الزور أو سماع المحرم، أو رؤيته، وقد صح في الخبر «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه**»[1].

التنبيه الثاني: يروعك أكثر في حياة بعض الصائمين ازدواجية مشينة في الشخصية، وفهم غريب للحكمة من العبادة فتراه يظل صائمًا نائمًا عن الصلوات المكتوبة، وربما أخَّر الصلاة حتى يفوت وقتها، وربما جمع الصلاتين مع بعضهما، أما صلاة الجماعة فزهدُه بها شمل رمضان إلى شعبان وشوال.. ترى أيجهل هذا الصنف أم يتجاهل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ

(١) رواه أحمد والبخاري وغيرهما (صحيح الجامع ٥/ ٣٥٦).

ﭐلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ وهل من التقوى في شيء النوم عن الصلاة المفروضة، أو الزهد في صلاة الجماعة؟!

ثالثًا: هذه رسالة أوجهها للصائمين عمومًا وللشباب خصوصًا لاستثمار أوقاتهم وحفظ صيامهم ولاسيما في هذه الإجازة وهي نعمة وفضل لمن أحسَّ بقيمتها وسابق إلى الخيرات فيها وأولى ما ينبغي أن تتجه إليه الهمم تلاوة كتاب الله وحفظه وتدبره، وليحمد الله أولئك الشباب الذين توفر لهم الوقت، والمطعم والمشرب، والصحة والأمن ما لم يتوفر مثله لآبائهم من قبل، وما قد لا يتوفر لأمثالهم في بلاد أخرى من بلاد المسلمين!!

أخي الشاب أتراه يليق بك أن تُصفد مردة الشياطين في رمضان، وتظلَّ أنت تؤذي المسلمين وهم يصلون أو وهم نائمون.

وإذا شملت هذه الإجازة المعلمين، فليسأل المربون أنفسهم عن كيفية استثمار أوقاتهم، وإذا كانوا قادرين على توجيه غيرهم فلا أظنه يعجزهم أن يوجهوا أنفسهم، ولكنها مجردُ تذكيرٍ لهم بقيمة الوقت وفضل الزمن.

على أن استثمار الوقت في رمضان أو غيره شامل للموظفين ورجالات الأعمال.. وكلٌّ بحسب همته، بل ربما رأيت أميًا أحرص على وقته من متعلم وربما أبصرت جاهلًا أكثر خشية لله وتقربًا من عالم، وهذا وإن كان خلاف ما ينبغي أن يكون عليه العالمُ والمتعلمُ ففضل الله يؤتيه من يشاء، ورحمته ليست حكرًا على أحدٍ من خلقه، ومن علم شيئًا من أمور الدين على حقيقته، وعمل به وفق ما شرع الله ورسوله، فهو المسلمُ الموفقُ حقًا أيًا كان تعلمه، ومهما كانت منزلته.

رابعًا: معاشر المسلمين يُفرط بعض الصائمين بأمرٍ عظيم وهو في حقيقته يسير على من وفقه الله، ألا وهو الدعاء، ولاسيما في ساعات الاستجابة، وهل

علمت أيها الصائم أن لك دعوة مستجابة، فقد روى الإمام أحمدُ بسندٍ جيدٍ أن النبي ﷺ قال: «**لكل مسلمٍ دعوةٌ مستجابة يدعو بها في رمضان**» وقد جاء في عدة أحاديث أن هذه الدعوة عند الإفطار[١]، فلا يفوتنك هذا المغنم أيها الصائم واسأل الله فيه من خيري الدنيا والآخرة ولا تنس والديك وذريتك والمسلمين -لا سيما المستضعفين- بدعوة في ظاهر الغيب فقد تبلغ الدعوة الصادقة مبلغها وإن لم يحتسْبها كذلك الداعي بها!!

خامسًا: وللمرأة المسلمة يُوجه النداء بالحفاظ على الصيام من اللغو وقول الزور والعمل به، وصيانة نفسها في بيتها وعدم التعرض لفتنة الرجال في الأسواق فإن قُدر لها الخروج للمسجد فليكن بآداب الإسلام، وهي حَرِيَّةٌ بالحفاظ على وقتها والإكثار من الذكر والتلاوة وسائر الطاعات.. بل وفي خدمة زوجها وأبنائها فهي مأجورة مع حسن القصد بكل حال، وتتضاعف الحسنات في رمضان، والناصحُ لها بقول إياك أختاه بإضاعة الوقت في كثرة ما يُطبخُ فيستهلك وقتك وتكونين سببًا في التخمة والإسراف لأهل البيت، وهذا ينافي الحكمة من الصيام الواردة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال القرطبي رحمه الله قيل: معناه: «**تضعفون فإنه كلما قلَّ الأكلُ ضعفتِ الشهوة وكلما ضعفت الشهوة قلَّت المعاصي، وهذا وجْه مجازيٌّ حسن ثم ذكر معاني أخرى**»[٢].

اللهم ارزقنا التقوى، واسلك بنا سبل الهدى، وجنبنا الشرور والأذى.. هذا وصلوا.

---

(١) دروس رمضان ٢٢.

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ٢٧٦.

عظمة القرآن(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الرحمن، علم القرآن خلق الإنسانَ، علمه البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خصنا بخيرةِ رُسله وأفضلِ كتبه، فكانت أمةُ الإسلام خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بلغ ما أنزل من ربه وعصمه الله وحفظه، فما زاد ولا نقص مما أوحى اللهُ إليه شيئًا، ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحي -وحاشاه لكتم مثل قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾(٢).

ومثل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾.

اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٣)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٤).

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٨/ ٩/ ١٤١٧هـ.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٧.
(٣) سورة النساء، آية: ١.
(٤) سورة الحشر، آية: ١٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[١].

إخوة الإيمان يطيب الحديثُ عن القرآن في كل وقتٍ وآن، فكيف إذا كان الحديث عن القرآن في شهر القرآن؟ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٢].

قال المفسرون: يمدح تعالى شهرَ الصيامِ من بين سائر الشهور بأنِ اختاره من بينهنَّ لإنزال القرآن العظيم، وكما اختصه بذلك فقد ورد الحديثُ بأنه الشهرُ الذي كانت الكتبُ الإلهيةُ تنزل فيه على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فقد روى الإمام أحمدُ بسنده عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أُنزلت صحفُ إبراهيم في أول ليلةٍ من رمضان، وأُنزلت التوراةُ لستٍ مضين من رمضان، والإنجيلُ لثلاث من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان**» كما رُوي أن الزبورَ أنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان، والإنجيل لثماني عشرة والباقي كما تقدم[٣].

أيها المسلمون كذلك أنزلُ القرآنُ جملةً واحدةً من اللوح المحفوظِ إلى بيت العزة من السماء الدنيا في رمضان وفي ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

أما تنزيلهُ على محمد ﷺ فكان في رمضان وغيرِ رمضان، وعلى ما يزيدُ على عشرين عامًا، وكان الله فيه يُحدث لنبيه ﷺ ما يشاء ولا يجيء المشركون بمثل

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٥.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٦، ٣٣٧.

يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وكان في ذلك تثبيتًا لقلب النبي ﷺ، وكما قال تعالى في حكمةِ نزولِ القرآني منجمًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1].

أيها المسلمون إذا كان نزولُ القرآن على محمد ﷺ متأخرًا عن الكتب السماوية الأخرى، فقد جعله اللهُ مصدقًا لكتب قبله، ومهيمنًا عليها ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾[2].

أجل لقد نزل كتاب الله مصدقًا لما أخبرت به الكتبُ السماويةُ، وأخبر به الأنبياءُ السابقون، ولهذا لم يستنكرهُ المؤمنون العالمون أهل الكتاب بل خروا له سجدًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[3].

وفي موضع آخر يقول عن قساوسة ورهبانِ النصارى الذين لا يستكبرون: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[4].

أيها المسلمون إذا تطاولت النصارى -اليوم- واليهودُ من باب أولى على كتاب الله، وخالفوا أمره ونهيه، وآذوا المؤمنين به، وسخروا بأتباعه فذلك جزءٌ

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٣٢، ٣٣.
(٢) سورة المائدة، آية: ٤٨.
(٣) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧-١٠٩.
(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

من نكثهم للعهدِ الذي أُخذ عليهم وعلى من قبلهم كما تشهد كتُبهم التي سلمت من التحريف.. وهو ناتجٌ عن الحسد والكبرياء ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

وعلى المسلمين أن يعوا أهداف اليهود والنصارى في إضمار العداوة والبغضاء، فهي ليست جهلًا لكن حسدًا وتكبرًا ويفقهوا: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

يا أهل القرآن كما أن القرآن عظيمٌ ومهيمنُ وشاهدٌ ومؤتمنٌ على الكتب قبله حين نزل على محمدٍ ﷺ، فهو عظيمٌ كذلك عند الله وهو في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾(٣).

قال ابنُ كثير في معنى الآية: بيَّن شرفَه في الملأ الأعلى ليُشرِّفه ويعظِّمه ويطيعَه أهلُ الأرض»(٤).

أفيليق بنا -معاشر المسلمين- أن يُعظِّمَ كتاب الله أهلُ السماءِ ويتغاضى أو يعرض عنه أو يهجرَه أهلُ الأرضِ؟ إن الذين لا يقفون عند حدودِ القرآن ولا يعظمون أمرَه ولا ينتهون عند نهيه أولئك عنه معرضون.. وإن الذين تنقطعُ صلتُهم بالقرآنِ إلا في شهر رمضان له هاجرون.

---

(١) سورة البقرة، أية: ٨٩.

(٢) سورة البقرة، أية: ١٠٩.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٥.

معاشر المسلمين: أينا يجهلُ أن هذا القرآنَ شرفٌ لنا، وكلنا سنسأل عنه، ولولا رحمةُ اللهِ لرفعه حين رُدَّ أول مرة، وتأملوا آيتين الأولى قوله تعالى في كتاب الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[١].

قال ابنُ عباسٍ ومجاهدُ وقتادةُ والسدي وابنُ زيد: المعنى: شرفٌ لك ولقومِك، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه[٢].

وقيل المعنى: تذكيرٌ لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم أما قوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي عن هذا القرآن، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له[٣].

والأخرى، قولُه تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾[٤].

والله لو أن هذا القرآنَ رُفع حين ردته أوائلُ هذه الأمة لهلكوا ولكن الله تعالى عاد بعائداتِه ورحمتِه فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، واستحسن ابنُ كثير رَحِمَهُ اللهُ هذا القولَ لقتادة فقال: وقول قتادة لطيفُ المعنى جدًا، وحاصلُه أنه يقول فيما معناه أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءَهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم -وهو القرآن- وإن كانوا مسوفين معرضين عنه، بل أمر به لنهتدي به من قدَّر هدايته وتقوم الحجةُ على من كتبَ شقاوته[٥].

أيها المؤمنون لقد كان اصطفاءُ هذه الأمةِ على الأمم قبلها جزءًا من فضائل

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٤٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٦.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٠٦.
(٤) سورة الزخرف، آية: ٥.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٦.

القرآن وأثره، حيث أورثهم القرآن، والقرآنُ مصدقٌ للكتب قبله، وإن تفاوتت مراتبهُم بين الظالم لنفسه والسابق للخيرات بإذن ربه والمقتصد، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(١).

أمة الإسلام عظموا كتاب الله تلاوةً وتدبرًا في شهر رمضان وفي سائر الأيام، وتعلموه وعلموه تحصلوا على الخيرية التي وعد بها رسول الهدى ﷺ: **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**.

وقفوا عند حدوده، واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وإياكم وهجرَ القرآن، فإن تركَ تدبره وتفهمهِ من هجرانه، وتركَ العمل به وامتثالِ أوامره واجتناب زواجره، من هجرانه والعدول عنه إلى غيره من هجرانه، كذا قال أهلُ التفسير في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(٢).

أمة القرآن ولا تفوتنكم تجارةُ القرآن، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٣).

وقد ورد في فضائل القرآن يقال لصاحب القرآن: إن كلَّ تاجرٍ من وراء تجارته وإنك اليوم من وراءِ كلِّ تجارة(٤) وليس يخفى حديثُ المصطفى ﷺ: **«لا حسد**

(١) سورة فاطر، آية: ٣٢.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٣٠.

(٣) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٩١٤.

إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناءَ الليل وآناءَ النهار»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلامِ الله تعالى على سائر الكلام كفضلِ الله تعالى على خلقه»[(٢)].

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك، وارزقنا تلاوته آناءَ الليل وأطراف النهارِ على الوجه الذي يرضيك عنا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[(٣)].

نفعني الله وإياكم بهدي القرآن..



(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي وحسنه، وانظر التبيان، للنووي ص٩.

(٣) سورة فصلت، الآيات: ١-٤.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أمر بتدبر القرآن فقال جلَّ قائلًا عليمًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[١].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أوحى إليه ربُّه فيما أوحى ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

وتكفل اللهُ له بحفظهِ ما بقي الليلُ والنهار، وكانت تلك معجزةً من معجزات هذا النبي وهذا القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣].

اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى سائر المرسلين.

أيها المسلمون: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٤].

فأين المتلمسون لهدي القرآن ليقودهم لأقومِ الطرقِ وأوضح السبل، وإذا لجت البشريةُ في طغيانها، واستحكمت الظلمةُ على أهل الأرض في برها وبحرها وسادت الحيرة والضياع فئامًا من البشر في مشرق الأرض ومغربها، كان للمؤمنين بهذا القرآن منجاةٌ ومخرجٌ ونورٌ يضيءُ الطريق، ويُبدد ظلماتِ الحيرة والشك، فهل يعقل المسلمون -قبل غيرهم- هدايةَ القرآن، وهل

---

(١) سورة محمد، آية: ٢٤.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٧٧-٨٠.

(٣) سورة الحجر، آية: ٩.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٩.

يستشفون به من كلِّ داء، والله يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[١].

أجل إنه القرآن يذهب ما في القلوب من أمراض الشكِّ والنفاق والشركِ والزيغِ والميل، وهو رحمةٌ يحصل فيها الإيمانُ والحكمةُ وطلبُ الخير والرغبةُ فيه، ولكن ليس ذلك إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه -كذا قال العارفون[٢].

وهو أحسن الحديث: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٣].

أفيليق يا عبادَ الله أن تتصدعَ الجبال الراسيات لعظمة القرآن، وتخشعَ الحجارةُ الصمُّ لو نزل عليها هذا القرآن، وتظلُّ قلوبُ البشر صلدةً لا تهزها قوارعُ القرآنِ، ولا تؤثر فيها مواعظُ الذكر الحكيم، ويختم المسلم كتابَ اللهِ ويهذُّه هذَّ الشعر وربما لم تنزل منه دمعة أو يقشعر له جلدٌ، فضلًا عن إصلاح حياته، أو تهذيب سلوكه وفق توجيهاتِ القرآن، ولو كان في الكتب الماضية كتابٌ تُسيرُ به الجبالُ عن أماكنِها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تُكلَّمُ به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآنُ هو المتَّصفُ بذلك دون غيره، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيعُ الإنسُ والجنُّ عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٩٩.
(٣) سورة الزمر، آية: ٢٣.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾(١).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتيت ليلةَ أُسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار، كلما قُرضت وَفَت، فقلتُ يا جبريل من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتِك الذين يقولون ما لا يفعلون ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به»**(٢).

أيها المسلمون أين النصحُ في دين الله لكتاب الله، والمصطفى ﷺ يقول في الحديث الصحيح: **«الدينُ النصيحةُ»** -ثلاثًا- قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: **«لله ﷻ ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمةِ المسلمين وعامتهم»**(٣).

أتدرون ما النصحُ لكتاب الله؟ قال العلماء: أما النصيحة لكتابهِ فشدةُ حبِّه وتعظيمُ قدره إذ هو كلام الخالق، وشدةُ الرغبةِ في فهمه، وشدةُ العنايةِ في تدبره والوقوفُ عند تلاوتهِ لطلب معاني حبِّ مولاه أن يفهمَه عنه أو يقومَ به له بعد ما يفهمه، والخشوعُ عند تلاوتهِ والتصديقُ بما فيه، والوقوفُ مع أحكامه، والاعتناء بمواعظِه والتفكرُ في عجائبه، ونشرُ علومِه، والدعاء إليه..(٤).

يا حملةَ القرآنِ تمثلوا هديَ القرآنِ في ذواتِ أنفسكم، واحملوه إلى غيركم، علموه الأبناءَ، وادعوا إليه الآباء، واعقدوا له الحلقَ في المدنِ والقرى،

---

(١) سورة الرعد، آية: ٣١، وانظر تفسير ابن كثير عندها٤/ ٣٨١.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن، وحسنه الألباني وصحيح الجامع الصغير (١/ ٩٦).

(٣) رواه مسلم.

(٤) انظر: ابن رجب: جامع العلوم والحكم ص٧٨، ٧٩، التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص٩٧.

واصبروا وصابروا على ما ينالكم في سبيله من اللأواء، وليكن الإخلاصُ رائدَكم، والمتابعةُ لهدي محمدٍ ﷺ منهجًا في حياتكم، وخذوا من هممِ السلف الصالحين ما يُقوي عزائمكم[١].

كتب يزيدُ بنُ أبي سفيان إلى عمرَ رضي الله عنه يقول: إن أهلَ الشام قد كثروا وملئوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن، ويفقهُهم، فأعني برجالٍ يُعلمونهم، فدعا عمر الخمسة الذين جمعوا القرآن.. فقال: إن إخوانكم قد استعانوني من يُعلمهم القرآن، ويُفقههُم في الدين، فأعينوني يرحمكم الله بثلاثةٍ منكم أن أحبهم، وإن انتدب ثلاثةٌ منكم فليخرجوا، فقالوا: ما كنا لنتساهم، هذا شيخٌ كبيرٌ -يعنون أبا أيوب- وأما هذا فسقيمٌ يعنون أبي بنَ كعب، فخرج معاذٌ، وعبادةُ بنُ الصامت، وأبو الدرداء، فقال عمر ابدءوا بحمص فإنكم ستجدون الناس فيها على وجوه مختلفةٍ، فإذا رضيتم منهم، فليقمْ بها واحدٌ، وليخرج واحدٌ إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين، قال فقدموا حمص فكانوا بها، حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادةُ، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذٌ إلى فلسطين فمات في طاعون عمواس، ثم صار عبادةُ إلى فلسطين وبها مات، ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات.. رضي الله عنهم وأرضاهم[٢].

وهكذا تكونُ الجديةُ في تعليم كتابِ الله والدعوةِ لدينه والنفع للخلق، حتى ولو تغرب عن الأوطانِ المعلمون وتحملوا الموتَ في سبيل الغاية النبيلة عند المجاهدين الصادقين.

يا أهل الدثور، ويا أصحاب الولاياتِ والمسؤوليات في بلاد المسلمين، إنه

---

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته، والبخاري في تاريخه الصغير بسند رجاله ثقات.

(٢) الطبقات ٢/ ٣٥٦، التاريخ الصغير ١/ ٤١، عن سير أعلام النبلاء٢/ ٣٤٤.

لشرفٌ لكم أن تساهموا في تعليم كتابِ اللهِ بأموالكم أو بجاهكم، وكم هو عظيمٌ أن تشمل الخيريةُ التي وعد بها الرسول ﷺ حين قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» اللهم اجعل لنا في الخير نصيبًا وافرًا، واجعل القرآن لنا في الدنيا رفيقًا، وفي القبر مؤنسًا وفي عرصات القيامة شافعًا. هذا وصلوا.



الحزن الممنوع والمشروع[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسولُه -اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه وآلِه وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٤].

أيها المسلمون يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[٥].

إنها حقيقةٌ لا مريةَ فيها، حقارةُ الدنيا، وزوالُها وانقضاؤها، وغايةُ ما فيها لهوٌ ولعب، أما الحياةُ الأبديةُ الباقية فهي حياةُ الآخرة، ومن علم ذلك وأيقن به آثر الباقيةَ على الفانية، وبذلك خُتمت الآية «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٥/ ١١/ ١٤١٧هـ.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٣) سورة الحشر، آية: ١٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٦٤.

هذه الدنيا الدنيةُ حكم اللهُ بفنائها، وقدَّر على الإنسان نصيبه من الكبدِ فيها، وليس يسلم أحدٌ من همومِها وأكدارها ومنغصات العيش فيها، ومن رام غير ذلك فيها فهوُ مكلِّف الأيامِ ضد طباعها، ومن عيونِ الشعر وحكمه قولُ الشاعر:

حكمُ المنيةِ في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرار
جبلت على كدر وأنت تريدها صفوًا من الأقذاء والأكدار
بينا يرى الإنسان فيها مخبرًا حتى يرى خبرًا من الأخبار
ومُكلِّفُ الأيامِ ضد طباعها متطلبٌ في الماءِ جذوةَ نارِ
وإذا رجوتَ المستحيل فإنما تبني الرجاءَ على شفيرٍ هاري
فالعيشُ نومٌ والمنيةُ يقظةٌ والمرءُ بينهما خُيال ساري
والنفسُ إن رضيتْ بذلك أو أبتْ منقادةٌ بأزمةِ المقدار
فاقضوا مآربكم عجالًا إنما أعماركم سفرٌ من الأسفار
ليس الزمان وإن حرصت مسالمًا خُلُقُ الزمانِ عداوةُ الأحرار

عبادَ الله وحديثي إليكم اليومَ عن حالةٍ نفسية، وخطرات قلبية تمرُّ بنا جميعًا، ومنا المكثرُ فيها ومِنا المُقل، وتختلف لها الدوافعُ والمواقف، إنه حديثٌ عن الحَزَن المرادفِ للهم، فما يعني الحزن؟ وماذا يجوز من الحَزَن وماذا يُمنع؟ وما يُحمد منه وما يُذم؟ وكيف نتقي الحزنَ المذمومَ وندفعُه؟

قال العارفون: الهمُّ والحزنُ قرينان، وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، وإن كان على ما يُستقبل فهو الهم.

والحزن انخلاعٌ عن السرور، وملازمةُ الكآبةِ لتأسفٍ على فائتٍ أو توجعٍ لممتنع، وهو من عوارض الطريق، وليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين، ولهذا لم يأمرُ اللهُ به في موضع قطُّ، ولا أثنى عليه، بل نهى عنه في

غير موضع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[(٣)]. ومثل ذلك كثير[(٤)].

بل لقد قيل عن الحزن: إنه بليةٌ من البلايا التي نسألُ الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾[(٥)].

وكان الحزنُ مما استعاذ منه الرسول ﷺ في دعائه «**اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن**. .» الحديث»[(٦)].

يا ابن آدم عجبًا لك تضيق بك المهاجر وتقتلك الهمومُ، وتؤرقك الأحزان- كل ذلك أسفًا على فائتٍ حقير، أو خوفًا من مستقبلٍ لا تدري ما الله صانعٌ به؟ أين ثقتك بالله وخزائنه ملئَى ويدهُ سحاءُ الليل والنهار، وأين إيمانُك بأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما اخطأك لم يكن ليصيبك: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٧)].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣٩.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٧.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

(٤) انظر: الفتاوى لابن تيميه ١٠/١٦، طريق الهجرتين .. لابن القيم ص٥٠٢، ٥٠٣.

(٥) سورة فاطر، آية: ٣٤. (طريق الهجرتين ص٥٠٣).

(٦) متفق عليه.

(٧) سورة التغابن، آية: ١١.

يا أخا الإسلام، وإنما يُنهى عن الحزن لأنه لا يجلبُ منفعةً، ولا يدفع مضرةً فلا فائدةَ فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمرْ به الله(١).

ويُنهى عن الحزن لأن فيه نسيانُ المنةِ لرب العالمين بما أنعم عليكم من نعم قد تغيبُ عنك كلُّها أو بعضُها حال حزِنك، فلا تتذكرُ إلا هذه المصيبة في نظرك، وقد يكون فيها هي الأخرى خيرٌ لك وأنت لا تدري، وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.

ويُنهى عن الحزن لأن فيه بقاءً في رقة الطبع، وحبسًا للنفس في سجن التضجر والتشكي، والنفسُ مولعةٌ بحب العاجلِ، وهي كالطفل إن تتركه شب على حب الرضاع وإن تفطمهُ ينفطم(٢).

يا أخا الإيمان. . ويَنهى عن الحَزَنِ لأنه يُضعفُ القلبَ، ويوهنُ العزم ويضرُ الإرادة، وهو بهذا مرضٌ من أمراضِ القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره.

وهل علمتَ أن الحزَنَ مدخلٌ من مداخلِ الشيطان على الإنسان يُحزنه ليقعَد به عن عمل الصالحات وهوُ يكثر عليه الهواجس والخطرات، ثم يتركه صريعَ الهمِّ، ممتلئًا بالحزن. . لا تقوى نفسهُ على عمل الصالحات وتضعفُ في مقاومة الشهوات، وليس بمقدور الشيطان أن يضرَّ أحدًا إلا بإذن الله وعلى من أُصيب بشيء من ذلك أن يستشعر عظمةَ الله ويتوكل عليه ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

يا أخا الإيمان فإن قلت وما بال المؤمن لا يحزن وهو يشعر بتقصيره في حقِّ

---

(١) الفتاوى ١٠/١٦.

(٢) بتصرف من طريق الهجرتين ص٥٠٢.

(٣) سورة المجادلة، آية: ١٠.

الله، وما باله لا يأسف وهو يرى عمرَه ينقرض في تحقيق الملذاتِ، دون أن يعمل عملًا لائقًا لجنةٍ عرضُها الأرضُ والسموات؟.

وما بالُ المؤمنين لا يحزنون، ومصائبُ إخوانهم المسلمين تترى، وقضاياهم تتحكم فيها الأهواءُ، ويسوسهم فيها الأعداء وأنى لقلبٍ لا يحزن، وكلمةُ الحقِّ، وأصواتُ المُحقين تكاد تخنق، بينما يملأ الآفاق ضجيجُ الباطل، ويكثر سوادُ المبطلين.

وما بال قلبٍ عمرته الرحمةُ لا يحزنُ لمصاب عزيز، وأيُّ عينٍ لا تدمع لفقدِ حبيب وتلك رحمةٌ جعلها الله في قلوب العباد؟

إن قلتَ ذلك أو عددت غيرَه مما يدعو للأسى والحسرة والهم والحزن أجبتُ بأن الحزَنَ لا يُحمد لذاتِه وإنما يحمد لسببه ومصدره ولازمِهِ دون أن يُفضي به الحزنُ إلى القعودِ عن فِعل الأسباب الموصلة إلى الله يقول شيخ الإسلام ابنُ تيميه رحمه الله: (وقد يقترن بالحزن ما يثابُ صاحبهُ عليه ويحمد عليه، فيكونُ محمودًا من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبةٍ في دينه، وعلى مصائب المسلمين عمومًا، فهذا يُثاب على ما في قلبه من حبِّ الخير وبغضِ الشرِّ وتوابع ذلك) إلى قوله: (ولكن الحزنَ على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمورٍ من الصبرِ والجهاد وجلبِ منفعةٍ ودفعِ مضرةٍ نُهي عنه).

إلى أن يقول: (وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغالِه به عن فعلِ ما أمر اللهُ ورسولُه به كان مذمومًا عليه من تلك الجهة وإن كان محمودًا من جهة أخرى[1]).

يا أخا الإسلام وإذا حزنت على شيءٍ تكرهه فلا تتسخطْ ولا تعترضْ على

---

(١) الفتاوى، ١٠/١٧.

أقدار اللهِ، وسلم وارض وافعل الأسباب الدافعةَ لهذا الهمِّ وكذلك كان هدي المصطفى، «**تدمعُ العينُ ويحزن القلب ولا نقولُ ما يسخط الرب، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(١).

ومع الهمِّ والحزن توكلْ على الله وبث الشكاية إليه، وارفع الدعوات له فذلك شأنُ الصالحين ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢).

وإياك واليأسَ من روحِ الله، والإحباط المذلَّ للنفوس وكذلك يلازم المؤمن الصبرُ وقوةُ الرجاء وعدمُ اليأس حين الشدائدِ والضراء والمحن ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣).

«**اللهم إنا نعوذُ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال**»(٤)، اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك إنك كنت غفارًا.



(١) صحيح الجامع ٣/ ٣٨.
(٢) سورة يوسف، آية: ٨٦.
(٣) سورة يوسف، آية: ٨٧.
(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين كتب على ابن آدم حظَّه من السعادة والشقاء والفقر والغنى فهو مدرك ذلك لا محالة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يحكم ما يشاءُ ويختار وهو الحكيم الخبير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسولُه كان أعظمَ الناس مسؤولية وأحسنَهم خُلُقًا اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أما بعد إخوة الإسلام فإذا اهتم أقوامٌ لشيء من محقراتِ الدنيا فاتتهم، أو حزن آخرون على مرتبةٍ من مراتب هذه الحياة لم ينالوها، أو بات القلقُ منكدًا لحياة فئامٍ من الناس وقد لا يحددون مصدرَه، فثمة فئةٌ أخرى تُعد من خواصِ الناس ونبلائهم تحزنُ على تفريطها وتقصيرها في خدمة ربِّها وعبوديته، أو تحزنُ على تورطها في مخالفته ومعصيته وضياع الأيام والأوقات، وهذا دليلٌ على صحة الإيمان في القلب وكلما كان القلبُ أشدَّ حياةً كان شعورُه بهذا الألم أقوى.. ولكن الحزنَ وحده لا يجدي عليه بل يُضعِفه، والذي ينفعُه أن يستقبلَ السيرَ، ويجدَّ، ويُشمر، ويبذل جهده.

وأخصُ من هؤلاء من يحزن على جزءٍ من أجزاءِ قلبِه، كيف هو خالٍ من محبة الله، وعلى جزءٍ من أجزاء بدنِه كيف هو منصرفٌ في غيرِ محابِّ الله[1].

أيها الإخوة المؤمنون، إذا عرفتم الحزن المذموم، والممدوحَ فكيف يُدفع الحزن، وكيف يتحولُ إلى عملٍ مثمر ويتجاوزُ صاحبُه السلبية والقلق؟

يقول الإمامُ ابن القيمِ رحمه الله وهو يذكر حزنَ الخواصِ من الناس والتي سبقت الإشارةُ إلى شيء منها: «**فهذه المراتبُ من الحزن لابد منها في الطريق، ولكن الكيسَ لا يدعُها تَملكُه وتُقعده، بل يجعلُ عوضَ فكرتِه فيها فكرتَه فيما يدفعها**

(١) ابن القيم: طريق الهجرتين ص٥٠٤، ٥٠٥.

به، فإن المكروهَ إذا ورد على النفسِ فإن كانت صغيرةً اشتغلت بفكرها فيه وفي حصوله عن الفكرةِ في الأسباب التي يدفعها به فأورثها الحزن، وإن كانت نفسًا كبيرةً شريفةً لم تُفكِّر فيه، بل تصرفُ فكرِها إلى ما ينفعها فإن علمتْ منه مخرجًا فكَّرت في طريق ذلك المخرجِ وأسبابهِ وإن علمت أنه لا مخرج منه فكرت في عبوديةِ اللهِ فيه وكان ذلك عوضًا لها من الحزن».

عبادَ الله وإذا كان هذا مخرجًا عمليًا من الأحزانِ، فثمة مقدمةٌ وأساس لهذا المخرج لابد من توفره، وبه يُعان المرءُ على تجاوز أحزانه ألا وهو معرفةُ الله بأسمائه وصفاتِه، والتوكلُ عليه، وحده، وعدمُ قطعِ حبلِ الرجاءِ معه، قال بعضُ العارفين: معرفةُ اللهِ جَلَا نورُها كلَّ ظلمة، وكشف سرورُها كلَّ غمة فإن من عرف اللهَ أحبَّه ولابد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائبُ الظلمات وانكشفت عن قلبه الهمومُ والغمومُ والأحزان، وعَمرَ قلبهُ بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفودُ التهاني والبشائرِ من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله أبدًا - مهما ادلهمت الخطوب، واشتد الخصوم.

أليس خيرُ البرية يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

والكفار يطاردون محمدًا ﷺ والمؤمنين معه حتى يقفوا على فمِّ الغار الذي يختفي فيه وحينها يقول أبو بكر رضي الله عنه: «والله لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا» فيرد عليه ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

ويوسف عليه السلام يؤذى من أقرب الناس إليه، ويُباع ويشترى بأبخس الأثمان وهو الكريمُ ابنُ الكريم ابن الكريم ابن الكريم، ثم يُؤذى في عِرضه وتلحقه التهمة

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠.

وهو البريءُ العفيفُ الطاهر، ويُصر الملأ على سجنه من بعد ما رأوا الآيات حتى لا تنفضح امرأة العزيز، ويأسف أبوه لحاله ويقول: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾، ومع مكوثه في السجن بضع سنين يظل صابرًا محتسبًا، بل ويظل خيِّرًا صادقًا داخلَ السجن كما كان خارجه ويعترف له من بالسجن بالصلاح والتقى وفضلِ العلم والهدى وينادى بـ«**أيها الصديق**»، ولا يمنعهُم سجنُه أن يستفتوه فيما أشكل عليهم حين أراد اللهُ براءته وإخراجه من السجن على الملأ، بل لقد ظل عليه السلام داعيًا إلى الله، لم تقعد به الأحزان أو تقطعه الهمومُ عن مواصلة السير إلى الله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾(١).

وهكذا فمن تأمل حياة الأنبياء أو حياة أتباعهم من المجاهدين الصادقين لم يجد الحزن واليأس في قلوبهم طريقًا مع شدة البلوى وعظيم المُصاب.

إخوة الإسلام، وهاكم مخرجًا ثالثًا شرعيًا من مخارج الهم والغم أرشد إليه المصطفى ﷺ بكلمات نافعة، حين دخلَ المسجدَ ذات يومٍ، فإذا هو برجلٍ من الأنصار يقال له أبو أمامة -جالسًا فيه- فقال: «**يا أبا أمامة: ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت صلاةٍ؟** قال: همومٌ لزمتني، وديونٌ يا رسول الله، قال: **ألا أعلمك كلامًا إذا قلتها أذهب الله ﷻ همَّك وقضى عنك دينك؟** فقال: بلى يا رسولَ الله، قال: **قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**، فقلت ذلك فأذهب اللهُ همي وقضى عني ديني»(٢).

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣٩.

(٢) أخرجه أبو داود وهو حديث حسن (جامع الأصول ٤/ ٢٩٥، ٢٩٦).

وفي رواية عند النسائي: «كان لرسول الله ﷺ دعواتٌ لا يَدَعَهُن، كان يقول: **اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل..**» الحديث[١].

يا أخا الإسلام وهاك دعاءً آخر خاصًا بإذهاب الهمِّ والحزن، قال عليه الصلاة والسلام: «**ما أصاب عبدًا همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدُك ابنُ عبدِك ابنُ أمتِك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألكُ اللهم بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنَه وهمَّه، وأبدله مكانه فرحًا**»[٢].

أفيعجزك يا أخا الإسلام إذا نزل بك همٌّ أو حزن لذاتِ نفسك أو لقضايا المسلمين من حولك أن ترفع يديك إلى السماء، وتدعو دعاءَ المضطر، الواثقِ بالإجابة، وبهذه الأدعية وسواها..؟

وخلاصةُ القولِ فلا تشغلْك همومُ الدنيا عن السير إلى الله والاهتمامِ بمنازل الآخرة، ولا يقعد بك الحزنُ علىَ مصائب المسلمين عن العمل والدعوةِ لدين الله، وكن بالله عارفًا، وعليه متوكلًا، وبنصره وتفريجه للكربات واثقًا.. فإن مع العسير يسرًا، إن مع العسر يسرًا، ولن يغلب عسرٌ يسرين.

اللهم اهدنا ووفقنا لليسرى، اللهم جنبنا العسرى، اللهم اكفنا ما أهمنا، وعظم أجورنا، وارزقنا الصبرَ والاحتساب على ما أصابنا هذا وصلوا..

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٥٢.

(٢) رواه أحمد وغيره، وحسنه الحافظ. الدعاء من الكتاب والسنة، سعيد القحطاني ص٤، ٥.

طرق السعادة[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين خلق فسوى وقدَّر فهدى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له قسم الخلق -بعلمه وحكمته- إلى أشقياءَ وسعداء ففريق في الجنة وفريق في السعير.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسولُه وخيرتُه من خلقه، حمل رسالة الخيرِ إلى أمتِه ففاز بالاتباع أهلُ السعادة، وانتكس أهلُ الفسوقِ والشقوة ولا يظلم ربُّك أحدًا.

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين ومن سار على هديهم إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[٤].

أما بعد إخوةَ الإسلام فإن السعادةَ مطلبُ العقلاء ومبتغى الكبراء، وحُلم يُراود الضعفاء، ولكن الناسَ متفاوتون في فهمِ حقيقتها، ومتباينون في طرق

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٢/ ١١/ ١٤١٧هـ.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٤) سورة النساء، آية: ١.

الوصول إليها، منهم من يراها في المال والولد، ومنهم من يراها في الجاه والمنصب، ومنهم من يراها في توفر الشهواتِ يعَبُّ منها عبًّا، غير آبهٍ بما يحلُّ وما يحرم، ولا فرق عنده بين ممنوعٍ ومشروع، ومنهم من يراها في السبقِ في مجالِ الصناعةِ والاختراع ومنهم من يراها في القصورِ الفارهة، والحسانِ الغانية، والخيلِ المسوَّمة والأنعام والحرث، وكل ذلك من متاعِ الحياة الدنيا الفانية، ولكن ثمةَ ما هو أنفعُ وأبقى.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(1).

أجل لقد أخطأ طريق السعادةِ فرعونُ الذي ظن الملكَ والجبروت طريقه الآمنَ الدائم، فقال قولتَه الظالمةَ الآثمة ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ وأعلن على الملأ عقيدتَه الجائرة ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ وجعل فيه عبرة وكان لمن خَلفهِ آية وأبصر هو وجندُه المخدوعون به آثارَ الشقوة وهم بعدُ لم يفارقوا الدنيا، أعلن الندمَ والتوبة ولكن هيهات(2) ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(3).

أيها المسلمون حين أضل طريقَ السعادة فرعون ومن على شاكلتِه في الكفر والطغيان، وجدها فتيةٌ مستضعفون آمنوا بربهِّم واعتزلوا معبودات قومهم، وكان

---

(1) سورة آل عمران، آية: ١٥.

(2) انظر: خطب الفوزان ١/ ١٨٤.

(3) سورة يونس، الآيتان: ٩١، ٩٢.

نصيبُهم من الأرض -حين العزلة- كهفًا تقلُّ مساحتُه في الأرض وتضيقُ منافذُه الظاهرة نحو السماء، حتى إن الشمسَ إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذاتَ اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، ولو اطلعت عليهم داخله لوليت منهم فرارًا ولملئتِ منهم رُعبًا، ومع ذلك فالسعادةُ تحيط بهم، والرحمةُ منشورةٌ عليهم، والعقبُى كانت لهم تلك ثمراتُ الإيمان وذلك طريقُ السعادةِ لمن رام الجنان.

أيها المؤمنون لقد جاء في كتاب الله تحديدُ طريقِ السعادة والفلاح فمرةً باتباع هدى الله ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾(١) ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢) ومرة بالإيمان وعمل الصالحات ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣). ومرة بتزكيةِ النفس وتحليها بالصفات الحميدة وإبعادها عن الصفات المذمومة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾(٤). ومرة بالقيام بالواجبات والانتهاء عن المحرمات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة طه، آية: ١٢٣.
(٢) سورة البقرة، آية: ٣٨.
(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.
(٤) سورة الشمس، الآيتان: ٩، ١٠.
(٥) سورة المؤمنون، الآيات ١- ١١.

أيها المسلمون إذا كانت الحيرةُ والشكُّ والضلالُ عذابًا وجحيمًا لا يطاق في الدنيا، والآثارُ في الآخرة أشدُّ وأبقى، فإن الإيمان واليقين سبيلٌ للسعادة في الآخرة والأولى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[١]. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٢]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[٣].

محالٌ أن يجدَ السعادة أصحاب الخنى والغناء، والكؤوس المحرمة، وأهلُ الريب والرذيلةِ والمعاصي مهما أوتوا من حظوظ الدنيا، إن لم يهتدوا ويتوبوا، ذلكم لأن ذلَّ المعصية يحيط بهم ويقعد بهم عن السعادة الحقيقية: «**إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذينُ، إن ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبَهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه**»[٤].

وإذا أفلس من السعادة أرباب الأموالِ العظيمةِ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وقارن نموذجٌ للانتكاسة والشقوة، ولم يمنعه مالُه، وقد أتاه اللهُ من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولو القوة فقد خسف اللهُ به وبداره الأرض فهو يتجلجل بها إلى يوم القيامة.

إذًا أفلس هؤلاء ووجد السعادةَ وحققها بكل معانيها من اتصلوا بالله وأطاعوه، ولو كان نصيبُهم من العيش كفافًا، ولو كان فرشهُم حصيرًا يبقى لها بعد النوم في الجنوب أثرٌ.

---

(١) سورة مريم، آية: ٩٦.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

(٣) سورة طه، آية: ١١٢.

(٤) كذا قال الحسن البصري يرحمه الله (ابن القيم، الداء والدواء ص١١٣).

عبادَ الله إن للإيمان والاستقامة على الحق أثرًا حميدًا حاضرًا ومستقبلًا، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

وطاعة الله ورسوله سببٌ للفوز والفلاح كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2].

وتأمل يا أخا الإسلام نعيمَ الأبرار، وجحيم الفجار الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[3].

يقول ابنُ القيم رحمه الله: «ولا تظنَّ أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ مختصٌّ بيوم المعادِ فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة وأيُّ لذةٍ ونعيمٍ في الدنيا أطيبُ من برِّ القلوب، وسلامةِ الصدر ومعرفةِ الربِّ تعالى ومحبتِه، والعملِ على موافقته، وهل العيشُ في الحقيقة إلا عيشُ القلب السليم، وهو الذي سلم من الشركِ والغل والحقدِ والحسد والشح والكبر وحبِّ الدنيا والرياسة فهذا القلبُ السليمُ في جنةٍ معجلةٍ في الدنيا، وفي جنة قي البرزخ، وفي جنة يوم المعاد»[4].

قال بعض العارفين وهو يستشعر محبة الله ويتنعم بعبادته: «أن كنتُ في الجنةِ في مثلِ هذه الحالةِ فإني إذا في عيشٍ طيب»[5].

أيها المؤمنون للرضا بالمقدور والقناعةِ بالميسور أثر في السعادة في الدنيا

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧١.
(٣) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) الداء والدواء باختصار ص٢١٨، ٢١٩.
(٥) ابن القيم، زاد المعاد ٢/ ٢٥.

والمثوبةِ في الآخرة والله يقول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ وهذا حوارٌ لطيف في مسكن السعادة وطرق جلبها قيل: للسعادة أين تسكنين؟ قالت: في قلوب الراضين قيل: فبم تتغذَين؟ قالت: من قوة إيمانهم قيل: فبم تدومين؟ قالت بحسب تدبيرهم قيل فبم تُستجلبين؟ قالت: أن تعلمَ النفسُ أن لن يصيبها إلا ما كتب اللهُ لها، قيل فبم ترحلين؟ قالت: بالطمع بعد القناعة وبالحرص بعد السماحة، وبالهم بعد السرور وبالشك بعد اليقين[(١)].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[(٢)]. نفعني الله وإياكم.



(١) السباعي، هكذا علمتني الحياة ص١٠٣.

(٢) سورة هود، الآيات: ١٠٦-١٠٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين منَّ على من شاء بالعبادة والهدى فمن شرح صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له حجب نوره عن المعرضين المعاندين فعاشوا حياة العَمىَ وإن كانوا مبصرين، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أوحى إليه ربُّه فيما أوحى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أما بعد -إخوة الإسلام- فإن هذا الدين سببٌ للسعادة والهداية وغيرُه من الأديان والنحل سببٌ للنكدِ والشقوة، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

والقرآن طريقُك للهدى وهو مذكرٌ لك لحصولِ السعادة ومحذرٌ من طرق الغوايةِ والردى، ومن أعرض عنه باتت حياته ضنكًا، وإن خُيل للآخرين غير ذلك ظاهرًا وكذلك حكم ربنا ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

يا أخا الإسلام، إذا كان الإيمانُ واليقين وعمل الصالحات، والاستقامةُ على الحقِّ، وسلامةُ القلبِ من الأمراضِ الخبيثة، والاهتداءُ بهدي القرآن.. كلُّ ذلك من أسباب السعادة، فهناك أسبابٌ أخرى فلا يفوتنَّك العلمُ بها والعمل،

---

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

والعلمُ الشرعي بابٌ واسعٌ للسعادة وأهلُه أشرحُ الناسِ صدرًا، وأوسعُهم قلوبًا، وأحسنُهم أخلاقًا، وأطيبُهم عيشًا، أما الجهلُ فهو يورثُ الضيقَ والحصرَ والحبس وصدق الله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أيها المسلمون: من أسباب السعادة أيضًا دوام ذكرِ اللهِ على كل حال، فبذكر اللهِ تطمئن القلوب، وتورث الغفلةُ ألوانًا من الضيق والعذاب، وهي طريقٌ إلى موت القلوب «**ومثل الذي يذكر اللهَ والذي لا يذكره كمثل الحي والميت**» ومصيبة أن يُميتَ الإنسانُ نفسهَ وهو يعدُ في عداد الأحياء؟

وأعظمُ ممن ذلك أن يرضى المرءُ بقرين الشيطان عوضًا عن الأُنس بالله، والله يقول: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(١).

ونفعُ الخلقِ والإحسان إليهم بالمال أو الجاه أو البدن كلُّ ذلك يورث السعادة، فإن المحسنين الكرماءَ أشرحُ الناسِ صدرًا وأطيبُهم نفسًا، وأنعمُهم قلبًا، أما البخلاءُ فهم أضيقُ الناسِ صدرًا وأنكدُهم عيشًا..

عباد الله، إذا أورث الكرمُ السعادةَ وانشراحَ الصدر، فكذلك الشجاعةُ تورث السعادةَ، فالشجاعُ منشرحُ الصدر، واسعُ البطان، متسعٌ القلب، والجبانُ أضيقُ الناس صدرًا وأحصرهم قلبًا.

أيها المؤمنون إن لَّذة الحياةِ وجمالَها وقمةَ السعادةِ وكمالَها لا تكونُ إلا في طاعةِ الله، ومهما ابتُغيت السعادةُ بغير ذلك فهي وهمٌ زائف، وما أهون الحياةَ الدنيا على الله وقد حكم على متاعِها بالقلة مهما تكاثر أو تطاول في أعين الجاهلية ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وتأمل هوانَها على الله في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وحذار يا أخا الإسلام أن تغرك سعادةُ لحظة عن السعادةِ الأبدية، أو تُفتنَ بلذةٍ عاجلةٍ ندامةٌ آجلة، احذر أن تكونَ في حضيض طبعِك محبوسًا وقلبُك عما خُلق له مصدودًا منكوسًا، حذار أن ترعى مع الهملِ، أو تستطيبَ لقيعان الراحةِ والبطالةِ، وتستلين فراشَ العجزِ والكسل، فتبصرَ حين تبصر وإذا بجيادِ الآخرين قد استقرت في منازلها العالية وأنت دون ذلك بمراحل وتود الرجعة لتعوِّض ما فات ولكن هيهات.

يا أخا الإيمان كيف ترجو السعادة وتأمل النجاة ولم تسلكْ مسالكها، وهل رأيت سفينةً تجري على اليبسِ؟

حاسب نفسَك على الصلاة ولا تأمل السعادة وأنت ساهٍ مضيعٌ لها والله يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

ولقد أخطأت الفهمَ حين قَدَّرت أن سماعَ الغناءِ المحرم وسيلةٌ للسعادة والأنسِ في هذه الحياة، وفي ذلك ضلالٌ عن طريق الهدى والله يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(٢).

وكيف ترجو السعادةَ إن كنتَ من أهل الكسب الحرام، وإن خُيل لك ذلك وأنت تتعاطى الرِّبا مثلًا فاقرأ قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾.

وليست عقوبةُ الآخرةِ أقلَّ من الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣- ٣٥.

(٢) سورة لقمان، آية: ٦.

يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[١].

ابن آدم بشكل عام احذر خطوات الشيطانِ تكن سعيدًا في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، واتخذه عدوًّا.. تشعر بالسعادة عاجلًا وأنت واجدٌ ذلك آجلًا والله يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٢].

يا ابن آدم في طباعِ النفس من الهلعِ والجزع والشح والبخل ما يقعد بها عن السعادة، وفي تعاليم الإسلام ووصايا القرآن ما يهذبها وتضمن سيرها إلى الله ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[٣] اللهم اجعلنا من أهل الجنة.



(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٦٨.

(٣) سورة المعارج، الآيات: ١٩-٣٥.

عبرة في هجرة الحبشة[(١)]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى وسائر الأنبياء والمرسلين وارض اللهم عن صحابته أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٣)].

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

أما بعد إخوةَ الإسلام فما أروع سيرةَ النبيِّ محمدٍ ﷺ وسير أصحابه، حين تُطالع أو تُروى، والمسلمون يجدون فيها في كلِّ زمَانٍ ومكان المرشدَ الهادي في حالِ عزِّهم وسؤددهم كما يجدون فيها السلوى وطرائق للثباتِ في حالِ ضعفِهم وتسلطِ الأعداء عليهم.

ولا شك أن الحديث عن محمد ﷺ حديثٌ عن خير البرية والحديثُ عن صحابته حديثٌ عن خير القرون، وسأتذكر وإياكم نموذجًا للفتنة التي أصابت

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في ١٩/ ١١/ ١٤١٧هـ.

(٢) سورة الحشر، آية: ١٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

هؤلاء الصفوة، وكيف خرجوا منها سالمين منتصرين، وفي قَصَصِهم عبرة، وفي حياتهم وجهادهم أسوةٌ للمسلمين.

أخوةَ الإيمان وفي السنة الخامسة لبعثة محمد ﷺ جُنَّ جنون قريشٍ لظهورِ الإيمان وكثرةِ الداخلين في الإسلام، واشتدَّ أذاها على محمدٍ ﷺ والمؤمنين، وما من وسيلة ترى فيها حربًا للإسلام وتقليلًا من شأن المسلمين إلا واستخدمها -ليس هذا موطنَ التفصيل فيها- وتحدثُنا كتبُ السِيَر أنها استخدمت فيما استخدمت -سلاح القبيلة- أسلوبًا في النكالِ بالمسلمين يقول الإمامُ الزهريُّ يرحمه الله: فلما كثر المسلمون وظهر الإيمان فتحدثَ به ثار المشركون من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم يعذبونهم ويسجنونهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال للذين آمنوا به: **تفرقوا في الأرض**، قالوا: فأين نذهبُ يا رسول الله؟ قال: **هاهنا وأشار بيده إلى أرض الحبشة**[١].

أيها المسلمون لقد كانت هجرةُ الحبشة فرارًا بالدين، كانت صعبةً على المهاجرين، وفي حوارٍ جرى بين أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه وبين إحدى المهاجرات إلى الحبشة تتضح صورةُ المعاناة وألمُ الغربة، فقد روى البخاريُّ في صحيحه أن أسماءَ بنتَ عميسٍ رضي الله عنها وكانت إحدى المهاجرات دخلت على حفصةَ زوج النبي ﷺ بعد قدومهم من الحبشة، فدخل عمرُ على حفصة وأسماءُ عندها فقال عمرُ لأسماء: سبقناكم بالهجرة -يعني إلى المدينة- فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت أسماء وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعم جائعكم ويعظُ جاهلكم، وكنا في دارٍ أو في أرضِ البُعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ.. الحديث[٢].

(١) المغازي للزهري ص٩٦، الطبقات لابن سعد ١/ ٢٠٣.

(٢) الفتح ٧/ ٤٨٤.

وكيف لا تكون الهجرةُ صعبةً عليهم وهم يهاجرون إلى أرض لم يألفوها، لغةُ الأحباشِ غير لغتهم، وعوائدُهم تختلف عن عوائدهم، ودينُهم غير دينهم، وشوقُ الأهلِ وحنينُ الديار وغربةُ المقامِ كلُّ هذه وتلك تشكل ضغطًا نفسيًا عليهم، ولكن الأمنَ من الفتنةِ في الدين، والسلامةَ من أذى المشركين، والرغبة في نشرِ هذا الدين تُخفف من آلام غربتهم، وتحفزهم على البقاءِ في أرض البُعداءِ البغضاء.

أيها المسلمون وبرغم ارتياح المهاجرين بالحبشة وطمأنينتهم وفي ظروف الفتنِ تروجُ الشائعات، ولم يطلْ مكثُ المسلمين بالحبشية حتى بلغهم أن قريشًا قد أسلمت، فرجعت طائفةٌ منهم إلى مكة.. ولكنهم أدركوا حين اقتربوا من مكةَ أن الخبرَ كاذب وأن قريشًا أشدُّ في أذاها بعد هجرتهم، ولم يستطع أحدٌ من هؤلاء العائدين من الحبشة أن يدخل مكة إلا بإجارة -أو كفالة- أحدِ المشركين، ومن بين هؤلاء عثمانُ بن مظعون رضي الله عنه الذي دخل في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى إيذاءَ المشركين للمسلمين -وهو آمنٌ- ردَّ على الوليدِ جوارَه ولم تطب نفسه أن يرى المسلمين يعذبون وهو آمن.

وبينما هم في مجلس لقريش، وفَد عليهم لبيدُ بنُ ربيعة قبل إسلامه فقعد يُنشدهم من شعره فقال:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطل

فقال عثمانُ: صدقت.

ثم قال لبيد:

وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلُ

فقال له عثمانُ: كذبت.

نعيم الجنةِ لا يزول، فقال لبيد: متى كان يؤذى جليسُكم يا معشرَ قريش؟ فقام رجلٌ منهم فلطم عثمان فاخضرت عينه فلامه الوليدُ على رد جواره فقال: قد كنتَ في ذمةٍ منيعة فقال عثمان: إن عيني الأخرى إلى ما أصاب أختها في الله لفقيرة. فقال الوليد: فعد إلى جوارك، فقال: بل أرضى بجوار الله تعالى.

إخوة الإيمان -قال بعضُ كُتَّاب السيرة معلِّقًا على هذا الحديث:

إن دعوة هذا بعضُ رصيدها من المفاهيمِ لن تُقهرَ ولن تُغلب وإن دينًا هذه بعضُ سمات رجاله لحريٌّ بالظهور والتمكين(١).

إنه الثباتُ على دين الله رغم المحن واللؤى، وإنه الشعور بعزةِ الإسلام رغم المسكنةِ والضعف؟!

وكم هو عجيبٌ هذا الجيل في صدقهِ مع الله وثباتِه على الدين الحق ويطول عجبُك حين تعلمُ صورًا من ثبات المهاجرين للحبشة تجاوزت الرجالَ إلى النساء، وأمُّ حبيبة رضي الله عنها ثبتت على إسلامها وهي في أرض الغربة رغم ردةِ زوجها عبيد الله بن جحش ودخوله في النصرانية، وهي بذلك تضرب نموذجًا رائعًا للمرأةِ المسلمة، وتستحق على ذلك عظيمَ المكافأة، فقد عقد عليها رسولُ الله ﷺ وهي بعدُ في أرض الحبشة، وكانت واحدةً من أمهات المؤمنين، فور انقضاء عدتها.

وإذا رأيتَ ثم رأيت دلائل الصدق وعظيم الصبر من المهاجرين في أكثر من موقفٍ وحادثة زال عجبُك من تهاوي أركان الجاهلية على أيدي هؤلاء، ولم تستغرب تغيُّرَ قناعةِ قريش بهذا الدين وإعجابهم بالمسلمين حتى إذا أتيحت الفرصةُ المناسبةُ أعلن عددٌ من قادةِ قريشٍ إسلامهم وانضموا إلى صفوف

(١) من معين السيرة ص٥٧.

المسلمين وكان حدثًا عظيمًا في الزمان وتغيرًا كبيرًا في الأذهان يوم أن أسلم خالدُ بن الوليد وعكرمة بنُ أبي جهل وعمرو بن العاص وغيرُهم كثير، وما دام الحديث متصلًا عن هجرة الحبشة وآثارها فدونكم خبرَ إسلامِ عمرو بن العاص وهو سفيرُ قريش لردِّ المهاجرين أولًا، والمسلمُ على يد النجاشي آخرًا يقول عمروٌ عن نفسه: كنتُ للإسلام مُجانبًا معاندًا، حضرت بدرًا مع المشركين فنجوت، ثم حضرتُ أحُدًا فنجوت، ثم حضرتُ الخندق فنجوت، فقلتُ في نفسي: كم أوضع؟ والله ليظهرنَّ محمدٌ على قريش، فلحقت بمالي بالرهط، ثم بدا لي فلحقت مع رفقةٍ لي بالحبشة بعد صلح الحديبية وقلت نلحق بالنجاشي فنكون معه فإن يظهر محمد كنا عند النجاشي أحبُّ إلينا أن نكون تحت يد محمد، وأن تظهر قريشٌ فنحن مَنْ قد عرفت، فلحقنا به، وذات يوم جاءه عمرو بنُ أمية الضمري بكتاب من عند رسول الله ﷺ ليزوجه أمَّ حبيبة، فلما خرج من عنده دخلتُ عليه وقلت: أيها الملك خرج من عندك رجلٌ هو رسولُ عدوٍّ لنا قد وترنا وقتل أشرافنا، فأعطنيه فأقتله- يقول عمرو وإنما أردتُ بذلك أن أتخذ يدًا عند قريش بقتل رسول محمد -فلما قلتُ له ذلك غضب النجاشي ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننتُ أنه كسره، فابتدرتَ منخراي، وجعلتُ أتلقى الدَّم بثيابي، فأصابني من الذلِّ ما لو انشقت بي الأرض لدخلتُ فيها فرقًا منه، ثم قلتُ أيها الملك لو ظننتُ أنك تكره ما قلتُ ما سألتُك، قال: فاستحيا، وقال: يا عمرو: تسألني أن أعطيك رسولَ من يأتيه الناموسُ الأكبرُ الذي كان يأتي موسى وعيسى لتقتله؟ قال عمرو فغيَّر اللهُ قلبي عما كنتُ عليه، وقلتُ في نفسي: عرف هذا الحقَّ العرب والعجمُ وتُخالف أنت؟ ثم قلت؟ أتشهد أيها الملكُ بهذا؟ قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو، فأطعني واتبعه، فواللهِ إنه لعلى الحق، وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده،

قلتُ: أتُبايعُني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعني على الإسلام، ثم دعا بطست فغسل عني الدم وكساني ثيابه..[١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٢].



(١) البداية والنهاية ٤/ ٢٦٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٣٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو العليم الخبير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، الملكُ ملكه، والدينُ دينه، والنصرُ من عنده، وهو مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرتُه من خلقه، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر المرسلين، وبعد:

فلا تظنن -أيها المسلم- أن هجرةَ الحبشةِ كانت سياحةً يرغب المهاجرون فيها التنعمَ بالراحةِ والتلذذَ بشهوات الدنيا حيث ولا تتوفر مثيلُها في مكة.

ولا يدور بخلدك أن المهاجرين استسلموا للراحة حيث ابتعدوا عن المحنة، بل وافتهم في أرض الحبشة صعوبات، وتعرضوا فيها أكثر من مرة لمخاطرَ ومساءلات -وكانت حواراتُهم صادقةً، يعظمون فيها الإسلام وإن لم يكن ثمة مسلمون غيرهم، ويلتزمون بهدي القرآن، وإن كان الحكمُ هناك للإنجيل، ويحافظون على صلواتهم وعباداتهم وإن لم يشاركهم فيها غيرُهم، بل تحدثنا كتب السِيَر أن جعفرًا كان بالحبشة يجمع أصحابه ويحدثُهم[1]، كما نقل ذلك الذهبي.

إخوة الإسلام: الإسلامُ الذي هاجر المهاجرون من أجله، ظل في أرض الغربةِ عزيزًا عندهم، واستطاعوا بصدقهم وصبرهم وتوفيق اللهِ لهم أن يُدخلوا الآخرين فيها، ولو لم يكن من آثار هجرتهم إلا إسلامُ النجاشي ملكُ الحبشة لكان ذلك كافيًا وأثرًا عظيمًا، ولئن كان قارئُ السيرة يُعجب بعقلِ النجاشي وعدلِه، وهو الذي لم يأخذِ المسلمين بالظنة ولا صدَّق فيهم التهمَ الباطلة، التي

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٣٧.

روَّجتها قريشٌ ضدهم حتى استدعاهم وسمع منهم، وأعجبه حديث جعفر بن أبي طالب ﷺ عن أسباب هجرتهم واختيارهم أرضه حين قال: «... **فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلَم عندك أيها الملك فقال النجاشي: هل معك مما جاء به محمد عن اللهِ من شيء؟ قال: نعم فقرأ عليه جعفر صدرًا من (كهيعص) فبكى النجاشي حتى اخضلَّت لحيتُه وبكت أساقفتُه حتى أخْضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجُ من مشكاةٍ واحدة**»[١].

يا أخا الإسلام إذا كان يُعجبكَ هذا الموقفُ المتعقلُ من النجاشي للمسلمين المهاجرين إليه، وتُسرُّ لإسلام النجاشي حين أصبح في عِداد المسلمين، وتغتبطُ إذ يُصلي عليه الرسولُ صلاة الغائب حين مات في أرض الحبشة ولم ير الرسول ﷺ ولم يره الرسول ﷺ.

فيزداد عجَبُك بالنجاشي حين تعلمُ أن العدل مبدأ أرسى عليه دعائمَ ملكه منذ أن صار إليه أمرُ الأحباش، ولقد رد هدايا قريش عليهم حين تبين له صدقُ المسلمين، وما هم عليه من حق وتذكَّر أن الرشوةَ لم تُؤخذ منه من قبل فيأخذها هو، وقال قولته المشهورة: ردوا عليهما -يعني مبعوثي قريش -هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ اللهُ مني الرشوةَ حين ردَّ عليَّ ملكي وآخذ الرشوةَ فيه، وما أطاع الناسَ فيَّ فأطيعهم فيه[٢].

يا أخا الإسلام، النجاشيُّ بهذه المقولةِ يتذكر فضلَ الله عليه حين حسده

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٥٩.

(٢) السيرة لابن هشام ١/ ٣٦١.

الحاسدون وباعوه رقيقًا، ثم مكَّنه الله نتيجةَ صدقه وعدله وصلابته في دينه وتروي قصته العجيبة أمُّ المؤمنين عائشة ﵂ وتقول:

إن أبا أصحمة النجاشي كان ملكَ قومِه، ولم يكن له من الولد إلا النجاشي (أصحمة) وكان له عمٌّ له من صلبه اثنا عشر رجلًا، وكانوا أهل بيتِ مملكةِ الحبشة، فقالت الحبشةُ بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملكنا أخاه، فإنه لا ولدَ له غير هذا الغلام وإن لأخيه اثني عشر ولدًا فتوارثوا ملكه من بعده، فبقيتُ الحبشةُ بعده دهرًا، فعدوا على أبي النجاشي فقتلوه وملَّكوا أخاه، فمكثوا على ذلك، ونشأ (النجاشي، أصحمة) مع عمه، وكان لبيبًا حازمًا من الرجال، فغلب على أمرِ عمه ونزل منه بكل منزلة، فلما رأتِ الحبشة مكانَه مِنه قالت بينها: والله إنا لنتخوفُ أن يُملِّكه، ولئن ملَّكه علينا لَيَقتلَنا أجمعين لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه، فمشوا إلى عمِّه فقالوا له: إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تُخرجه من بين أظهرنا، فإنا قد خِفنا على أنفسنا منه، قال: ويلكم: قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم؟ بل أخرجوه من بلادكم، فخرجوا به فباعوه من رجل تاجر بستِ مائةِ درهم، ثم قذفه في سفينة، فانطلق به حتى إذا جاء المساءُ من ذلك اليوم هاجت سحابةٌ من سحاب الخريف، فخرج عمُّه يستمطرُ تحتها، فأصابته صاعقةٌ فقتلته، ففزعت الحبشة إلى ولده، فإذا هم حمقى ليس في ولده خير، فمرجَ على الحبشة أمرُهم، فلما ضاق عليهم ما هم فيه من ذلك قال بعضُهم لبعض: تعلمون والله إن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيرُه الذي بعتموه غدوةً، فإن كان لكم بأمرِ الحبشةِ حاجةٌ فأدركوه، قال: فخرجوا في طلبه حتى أدركوه فأخذوه من التاجر، ثم جاءوا به، وأقعدوه على سرير الملك وملَّكوه، فجاءهم التاجرُ فقال إما أن تعطوني مالي، وإما أن أكلِّمه في ذلك، فقالوا: لا نعطيك شيئًا، قال إذًا واللهِ لأُكلمنَّه، قالوا: فدونك، فجاءه فجلس بين يديه فقال أيها الملك ابتعت غلامًا

من قومٍ بالسوق بست مائة درهم فأسلموه إليَّ وأخذوا دراهمي، حتى إذا سرتُ بغلامي أدركوني فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي، فقال لهم النجاشي لتعطينه دراهمه أو ليُسلمَنَّ غلامَه في يده، فليذهبن به حيثُ يشاء؟ قالوا: بل نعطيه دراهمَه.. فذلك حين يقول النجاشي: ما أخذ اللهُ مني الرشوة حين ردَّ عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه(١).

أيها المسلمون هذه وقفةٌ عاجلة عند حدثٍ من أحداثِ السيرة، وكم في قصص الماضين من عبرة وكم فيها من تسليةٍ للنفس وتسرية، وما أحوج المسلمين لقراءة السيرةِ النبوية قراءةً واعيةً وفيها دروسٌ عظيمة، وسيرةُ محمدٍ ﷺ وهديُه هي الطريقُ الآمنُ لمسيرةِ الأمة، وهي السبيلُ السويُّ لنشر هذا الدين، وقبل ذلك فهي النموذجُ الحي للثبات على هذا الدين وفهمِه فهمًا صحيحًا، اللهم ألهمنا رشدنا وبصِّرنا بمواطنِ الضعفِ في نفوسنا، وأعنّا على الاقتداءِ بسنة نبينا محمدٍ ﷺ، هذا وصلوا.



(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٢٩، ٤٣٠.

الحج والتوحيد[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله اتقوا الله حق التقوى واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا ألا وإن تقوى اللهِ أمانٌ من كل خوف، وغنى ما بعده فقر، وسعادة لا شقوة فيها -ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب- ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا.

أيها المسلمون عاد حجاجُ بيت الله بعد أن طوفوا بالبيت العتيق، وقفوا على صعيد عرفات خاشعين متذللين مبتهلين إلى الله والله غنيٌّ كريم أفاضوا من حيث أفاض الناس وذكروا اللهَ عند المشعرِ الحرام، ورموا الجمار، وتقربوا إلى الله بالهدي وهم على يقين أن الله لن يناله شيء من لحومها ولا دمائها ولكن يناله التقوى مِنكم.

ألا ما أعظم رحلةَ الحج حين تذكرُ المسلم بقضايا العقيدة الكبرى فالتوحيدُ الخالصُ شعارُ الحجاجِ من أولِ وهلة وهم يُلبون عند عقد الإحرام «**لبيك اللهم**

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٨/ ١٢/ ١٤١٧هـ.

لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمدَ والنعمةَ لك والملك، لا شريك لك لبيك».

والتوحيدُ كذلك أساسُ بناءِ البيت العتيق، والهدفُ من بنائه ودعوةِ الناسِ للوفود إليه، كذلك أوحى اللهُ لخليله إبراهيم عليه السلام وكذلك سار على خطاه محمدٌ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1].

وذكرُ اللهِ في الحج وهو مظهر من مظاهر التوحيد لا يكاد يفارق الحجاج فهم يذكرون اللهَ ويكبرونه وهم يطوفون حول البيت، وحين يسعون بين الصفا والمروة وحين يُهلون بالحجِ أو العمرةِ أو كليهما، وخير ما قال النبيون الأولون والآخرون «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**».

ويذكرون الله ويكبرونه وهم يرمون الجمار، وينحرون الهدي والأضاحي وأدبارَ الصلوات المكتوبة، أو قبلها، وكذلك يرتفع اسمُ الله في مناسك الحج، وكذلك ينبغي أن يشهد الحجاجُ منافعَ الحج ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾[2].

ويبدو ذكر اللهِ واضحًا لمن تأمل في مناسك الحج كلها.. كيف لا والحقُّ تبارك وتعالى يقول في سياق آيات الحج ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾[3].

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الحج، آية: ٢٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٨.

إنه التذكيرُ بالوحدانية لله وإدامةُ ذكره وحده، وتذكير كذلك بنعمة الله على من نزل عليهم القرآن حيث كانوا من قبل يتمرغون في أوحالِ الشرك والوثنية والضلالة ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وسواء أكان المقصودُ بذكر الله عند المشعر الحرام الصلاتين جميعًا أم ما هو أعمُّ من ذلك(١).

فإن ذكر الله سمةٌ بارزة في الحج وهي مظهرٌ من مظاهر التوحيد ويستمر الحجاجُ يلهجون بذكر الله حتى يتموا حجهم كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾(٢).

وهنا لفتة وخروجٌ عن تقاليد أهل الجاهلية في الذكر وهي تسيرُ في إطار التوحيد وتحقيق العبودية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم كان أبي يطعم ويحمل الحمالات، ويحمل الديات، ليس لهم ذكرٌ غير أفعال آبائهم، فأنزل اللهُ على محمد ﷺ ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ فحثوا على ذكر الله والتعلق به أشد من ذكرهم وتعلقهم بآبائهم. .»(٣).

إنها نقلة في المفاهيم. . وتبعة من تبعات هذا الدين الحق، عقلها المسلمون أول ما نزلت وينبغي أن يعقلها المسلمون وهم يتلون كتاب الله، ويؤدون شعائر الحج، فيديموا ذكر الله ويتعلقون به أكثر من تعلقهم بغيره، ولو كان المتعلق به أقرب الناس نسبًا.

عبادَ الله يلخص الرسول ﷺ أعمالَ الحج والهدف منها بإقامة ذكر الله ويقول

(١) انظر تفسير ابن كثير عن الآية: ١/ ٣٧٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٣٨١.

عليه الصلاة والسلام: «**إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»(١).

أيها المسلمون تظل ظاهرةُ الذكر معلمًا بارزًا في أيام الحج لمن تأمل والله يقول: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٢).

وفي سبيل الدعوة للتوحيد وإعلاء شأنه عاتب الله قريشًا يوم أن كانوا سدنة البيت فأشركوا معه في العبادة غيره، وصدوا الناس عنه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾(٣).

ونفى عنهم الولاية: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

أيها المسلمون حين تدرك أهمية التوحيد في شعيرة من شعائر الله، وركن من أركان الإسلام، فليس يخفى أثرُ التوحيد وأهميتهُ في شعائر الإسلام الأخرى وأركانه الأساسية أو ليست كلمة التوحيد هي الركن الأول من أركان الإسلام، وأَوَلسنا في كل قيام للصلاة نردد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فضلًا عن إعلان التوحيد وإعلاءِ شأن الذكر في أعمال الصلاة كلها، وليس التشهد إلا مظهرًا من مظاهرها بل ويظهر التوحيد في مقدمات الصلاة من الأذان والوضوء، وهكذا الشأن في بقية أركان الإسلام أو لا يقودنا ذلك كله إلى تعظيم شأن

---

(١) رواه أبو داود والترمذي بسند حسن (جامع الأصول ٣: ٢١٧).

(٢) سورة البقرة، أية: ٢٠٣.

(٣) سورة الحج، أية: ٢٥.

(٤) سورة الأنفال، أية: ٣٤.

التوحيد والاهتمام به والبعد عن الشرك دقيقه وجليله، أوليس الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1].

ومن وصايا العبد الصالح لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وفي واحة التوحيد ورياض الإيمان يكون الهدى ويتوفر الأمن في الدنيا والآخرة وذلك ذكرى للذاكرين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[3]. أجل لقد أشكلت هذه الآية على الصحابة وقالوا: أيُّنا يا رسول الله لم يلبس إيمانه بظلم، قال: «**ليس كما تقولون، ذاك الشرك**».

وتأمل يا أخا الإسلام عظيمَ فضلِ الله ومغفرته للذنوب، ما لم يقع العبدُ في الشرك، وفي ذلك أعظمُ دليلٍ على أهمية التوحيد في حياة المسلم يقول عليه الصلاة والسلام: «**يقول الله ﷻ**: من جاء بالحسنة فله عشرُ أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً ومن لقيني بقُراب الأرضِ خطيئةً لا يشرك بي شيئًا لقيتهُ بمثلها مغفرة**»[4].

فتأملوا هذا الشرط «**لا يشرك بي شيئًا**».

يقول ابن القيم رحمه الله في معنى الحديث: «ويُعفى لأهلِ التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يُعفى لمن ليس كذلك، فلو لقي الموحدُ الذي لم يشرك

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.
(٢) سورة لقمان، آية: ١٣.
(٣) سورة الأنعام، آية: ٨٢.
(٤) رواه أحمد ومسلم (٥/ ١٧٢)، (٢٦٨٧).

بالله شيئًا ربه بقراب الأرض خطايا، أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيدُه، فإن التوحيد الخالصَ الذي لا يشوبه شركٌ لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبةِ الله وإجلاله وتعظيمه وخوفِه ورجائه وحده ما يوجب غسلَ الذنوب ولو كانت قرابَ الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوي»[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2].

اللهم سلم قلوبنا من الشرك قليله وكثيره صغيره وكبيره، اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه.. أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم.



(١) فتح المجيد ص٦١.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أحمده تعالى وأشكره وأثني عليه الخيرَ كله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين.

أما بعد فاذكروا الله -معاشر المسلمين- يذكركم، اذكروه ذكرًا كثيرًا وسبحوه بكرة وأصيلًا، اذكروا الله بألسنتكم وقلوبكم، وتعرفوا إلى الله في حال الرخاء يعرفكم في حال الشدة إياكم والغفلة عن ذكره وشكره ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[2].

معاشر المسلمين استقيموا على طاعة ربكم، واتخذوا من فرص الخير ومواسمه محطاتٍ تتزودون بها للقاء ربكم، واعلموا أن الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هي دارُ القرار.. ما أهون الخلق على الله وما أضعف حيلهم إذا حزبت الأمور، وعصفت العواصف وحل بهم شيءٌ من أقدار الله.. ولقد عاد كثيرٌ من الناس بذاكرته إلى الوراء يتذكر ما قدَّم يوم أن وقع في اليوم الثامن ما وقع في منى.. وربما خيُل لبعضهم أن القيامة قاب قوسين أو أدنى، وبلغ الرعب والهلعُ أن قتل بعض الناس بعضًا ولقيت ربها نفوسٌ قد تجردت من الدنيا، ولم يكن عليها إلا لباس تُشبه أكفان الموتى، وسلم اللهُ من سلم ليمتحنهم في بقية أعمارهم في الدنيا، ونسأل الله أن يتغمد أموات المسلمين بواسع رحمته، وأن يجعلها تذكرة لمن أنجاه الله منها وأن يقي الجميع نار جهنم فهي أشد حرًا

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

وأنكى. . ، كما نسأله تعالى أن يقي المسلمين الشرورَ والفتن وأن يكشف الباطل وأهله، وأن ينزل شفاءه العاجل على مرضي المسلمين.

أيها المؤمنون ما فتئ القرآن يذكرنا بنار جهنم وشدة حرها وسمومها. . فهي نزاعةٌ للشوى، وهي لواحةٌ للبشر وأصحابها لا يقضي عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها وهم يصطرخون فيها ويستغيثون بمالك خازنها ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾(١).

وكلما فنيت فيها الجلود أبدلوا بجلود غيرها ليذوقوا العذاب أي نفسٍ تطيق هذا العذاب -أي أقدام لها جلدٌ وصبرٌ على النار.

ألا فلننقذ أنفسنا من النار، ولنحملها على طاعة الله فما أصبر الكافرين على النار؟ وصدق الله ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

عباد الله كم نركن إلى هذه الدنيا وهي غدارةٌ غرارة وكم نفسٍ حملت ما حملت من الأضغان والأحقاد وأضمرت من الشرور والفسوق والعصيان، وأنفاسها معدودة، ولربما كانت ورقتها ذابلة، وقد محيت من اللوح المحفوظ، وويل لمن لقي الله وهو غاشٌّ لنفسه، أو غاش لمن استرعاه الله عليه، تذكروا عبادَ الله هولَ المطلع يوم العرض على الله، وتذكروا سرعة النقلةِ وفجأة الموت فلا تدري نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٧.

(٢) سورة الزخرف، الآيات: ٧٤-٧٦.

وتأملوا هذه الوصية من الحسن إلى عمرَ بن عبد العزيز وقد كتب إليه يقول: أما بعد فإن الدنيا دارُ ظعن، ليست بدار إقامة إنما أُنزل إليها آدم عقوبةً فاحذرها يا أميرَ المؤمنين فإن الزادَ منها تركها، والغنى فيها فقرها، لها في كل حينٍ قتيل، تُذل من أعزها، وتُفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمداوي جراحه يحتمي قليلًا مخافةَ ما يكره طويلًا، ويصبر على شدة الدواء مخافة طولِ البلاء، فاحذر هذه الدارَ الغرارة الخداعة الخيالة. إلخ كلامه يرحمه الله(١).

أيها المسلمون حققوا التوحيد ولا تصرفوا شيئًا من أنواع العبادة لغير الله، فمن حقق التوحيد دخل الجنة.

وخافوا على أنفسكم من الشرك كبيره وصغيره، وقد خافه ﷺ على أمته وقال: «**أخوف ما أخاف عليكم الشركُ الأصغر، فسئل عنه فقال: «الرياء»**(٢).

وإذا كان الشركُ الأصغر مخوفًا على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب؟ كذا قال العالمون(٣).

حافظوا على الصلوات فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأقيموا الواجبات، واجتنبوا المحرمات، ولا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ولا تنخدعوا بطول الأمد فتقسوَ قلوبكم..

معاشر المسلمين حجاجًا ومقيمين عادت صحائفهم بيضاء نقية، «**فمن حج**

---

(١) إغاثة اللهفان، ١/ ٦١.

(٢) رواه أحمد بسند صحيح ٥/ ٤٢٨، ٤٢٩.

(٣) فتح المجيد ص٨٢.

ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» ومن صام عرفة كفر الله عنه سنة ماضية وقابلة.. ألا فحافظوا على هذه الصحائف بيضاء وتزودوا لآخرتكم فإن خيرَ الزادِ التقى.. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، اللهم اغفر لنا ذنوبنا واستر عيوبنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.. هذا وصلوا..



المرأة في الإسلام[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي جعل الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كل شيء هالكٌ إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وارض اللهم عن أصحابه وآله وأزواجه أمهاتِ المؤمنين، ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد فاتقوا الله معاشر المسلمين والمسلمات فتلك وصية الله لكم ولمن سبقكم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾[2].

أيها الإخوة المؤمنون لا عجبَ أن يكثر الحديث عن المرأة، فهي تمثل نصف المجتمع أو تزيد، وهي الأم والبنت والزوج والأخت هي قمة شمَّاء وصخرة صمَّاء إذا صلحت واستقامت تحطمت على أسوارها المنيعة مكائد الكائدين، وهي نافذة واسعة، وبوابة مشرَّعة للفساد إذا خلص إليها المغرضون، أمر الله لها بحسن العشرة في محكم التنزيل فقال ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3]. وأوصى النبي ﷺ بهن

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٠/ ٤/ ١٤١٦هـ.

(٢) سورة النساء: آية: ١٣١.

(٣) سورة النساء، آية: ١٩.

خيرًا وقال: «**استوصوا بالنساء خيرًا..**»(١).

ونزل القرآن الكريم معليًا شأنهن ومؤكدًا حقوقهن من مثل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾(٢).

بل نزلت سورةٌ كاملة من القرآن تحمل اسمهن، وتعالج قضاياهن ومع ذلك كله فهن موضعٌ للفتنة، وأول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وخاف النبي ﷺ على أمته من النساء فقال: «**ما تركت بعدي فتنةً أضر على الرجال من النساء**»(٣).

لا عجب والحالة تلك أن يكثر الحديث عنهن، وأن توضح الصورة المتميزة التي حددها الشرع لهن، ولا عجب أن يكثر الحديث عن المرأة في زمن كثرت أصوات الناعقين، وامتلأت الأجواء ضجيجًا وزورًا وباطلًا باسمهن ومخادعة لهن.

ومع كثرة اللقاءات والمؤتمرات التي عُقدت فيما مضى أو تعقد اليوم، أو يخطط لعقدها مستقبلًا، سواء ما يسر به أو يعلن على الملأ.. فإنا على ثقة أن هذه الصيحات الفاجرة الظالمة التي تنادي بتحرير المرأة ومساواتها وتدعو إلى خروجها واختلاطها، وتَئِدُ كرامتها وعفتها بعد نزع حجابها والتخلي عن حيائها.. إنا على ثقة أنها لن تؤثر -إن أثرت- إلا على صنفين من النساء، الصنفِ الأول: امرأة عفيفةٍ في نفسها، لكنها جاهلةٌ بحقوقها ومكانتها في

---

(١) متفق عليه، رياض الصالحين ص١٤٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩٥.

(٣) صحيح الجامع ٥/١٣٨.

الإسلام، غافلة غائبة عما يريده لها أعداءُ الإسلام، فتلك يختلط عليها الحقُّ بالباطل، ولا تميز بين أصوات المؤمنين والمنافقين، يخدعها السراب وتبهرها الأنوار الكاشفة الكاذبة حتى إذا أُطُفئت عنها فجأة وقعت في ظلمات بعضها فوق بعض، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

أما الصنفُ الآخر فهن نساءٌ لديهن حظ من العلم والمعرفة الدنيوية، لكنهن في سلوكهن متهتكاتٌ مستهترات، أو فيهن استعدادٌ لهذا وذاك.

هؤلاء لا يرين في الاختلاط عيبًا، ولا في السفور بأسًا، قد فتنتهن وغرتهن الدنيا بزينتها فهي محلُّ تفكيرهن ومحط آمالهن وغايةُ طموحاتهن أما الآخرة بنعيمها وسرمديتها فتمر بهن أحيانًا كالطيف، حين العزاء أو في مناسبات إسلامية عامة كشهر رمضان والحج أو ما شابهها.. ومع ذلك فباب الهداية مفتوح غير موصد، وطريق الإنابة والرشد ميسور ليس دونه أبواب تغلق... ومن أوسع أبوابه العلمُ والخشية فبالعلم النافع تكون الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

وبالخشية تحصل المنعة من الفتنة بإذن الله.

أيها المؤمنون والمؤمنات على طريق العلم والمعرفة وحيث سبق الحديثُ عن نماذج من امتهان المرأة في الجاهليات الأولى، وما كانت تلاقيه من مسخ وخسفٍ وذلةٍ ومهانة، أعرض لكم اليوم شيئًا من عناية الإسلام بالمرأة وبيان مكانتها الحقيقية في شرع الله، بضددها تتميز الأشياء وأعتذر لكم سلفًا عن الاختصار بما يقتضيه المقام، ومن رام التفصيل فدونه مطولات الكتب، ومؤلفات أهل الإسلام ففيها الإيضاح والبيان فيقرر الإسلامُ ابتداءً وحدة الأصل بين الذكر والأنثى، وأن المرأة كالرجل في الإنسانية سواءً بسواء ويقول تعالى

في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾(١).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**إنما النساء شقائق الرجال**»(٢).

ثانيًا: ضمن لها الإسلامُ الحياة الكريمة الطيبة في الدنيا والآخرة إن هي آمنت وعملت صالحًا وخوفها من الخزي في الدنيا والآخرة إن هي ضلت السبيل، كالرجل، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

ثالثًا: كما ساوى الإسلامُ في تكليفها بالعبادات -مع الرجل- فلها ثواب الطاعة إن عملتها، وعليها عقوبة المعصية إن وقعت فيهما.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٤).

وقال تعالى -في الجانب الآخر-: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾(٥).

وقال تعالى مخاطبًا الجنسين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن

(١) سورة النساء، آية: ١.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذي (صحيح الجامع الصغير ٢/ ٢٨١).

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٥) سورة النور، آية: ٢.

يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[١].

وفي سبيل وقاية النوعين من الوقوع في الرذيلة قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٢].

رابعًا: حرم الإسلام التشاؤم بالمرأة والحزن لولادتها كما كان شائعًا عند العرب فقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٣].

كما حرم وأدها وشنع على ذلك فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٥].

خامسًا: كما ضمن الإسلامُ الأهلية للمرأة في الحقوق المالية، مهما كان نصيبها قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[٦].

قال سعيدُ بنُ جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئًا، فأنزل الله هذه الآية[٧].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١١.
(٢) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٣) سورة النحل، آية: ٥٩.
(٤) سورة التكوير، الآيتان: ٨، ٩.
(٥) سورة الأنعام، آية: ١٤٠.
(٦) سورة النساء، آية: ٧.
(٧) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩١.

بل فوق ذلك جعل الإسلامُ للمرأة الرعاية في بيت زوجها وحمَّلها مسؤولية رعايته «**والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**».

فأين ذلك من بعض تشريعات البشر وقوانينهم التي تعتبر المرأة مع الصغير والمجنون محجورًا عليهم؟ كما في القانون الروماني والفرنسي سابقا»(١).

سادسًا: واعتنى الإسلام بتعليم المرأةِ، وقال لها وللرجل: «**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**».

وخصص الرسول ﷺ للنساء يومًا يعلمهن مما علمه الله، وكن خير معينات على العلم والتعلم، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «**جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجالُ بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله، فقال: اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا، فاجتمعن فأتاهن فعلمهن مما علمه الله**»(٢).

وأفلح تعليم المرأة المسلمة في عصور الإسلام الزاهية فكانت نوابغ النساء في كافة الفنون، تشهد بذلك مدونات الإسلام، ويفتخر عددٌ من الرجال بمشيخة عددٍ من النساء، مع كمال الحشمة والعفة والوقار، وظلت المرأة المسلمة نموذجًا يحتذى في العلم والفقه والعزة بالإسلام، لا في عصر النبوة فحسب بل فيما تلاها من القرون أيضًا وإذا تجاوزنا أمثال عائشة رضي الله عنها نموذج العلم والفقه الأول، فهذه بنتُ سعيد بن المسيب رحمهما الله. حين دخل بها زوجها وكان من طلبة والدها، وأصبح أخذ رداءه يريد أن يخرج قالت له زوجته -بنت سعيد-

(١) (الإسلام والمرأة: إقبال المسلم، دانه الفليح ص٤-٦، والسباعي: المرأة بين الفقه والقانون ص٤٣).

(٢) عناية النساء بالحديث النبوي مشهور آل سلمان ص٦.

إلى أين تريد؟ قال: إلى مجلس سعيد أتعلم العلم، فقالت له: اجلس أعلمك علم سعيد[١].

وهذه أم الشافعي رحمهما الله كانت باتفاق النقلة من العابدات القانتات، ومن أذكى الخلق فطرة، شهدت مع أم بشر المريسي بمكة عند القاضي، فأراد أن يفرق بينهما ليسألهما منفردتين عما شهدتا به استفسارًا، فاعترضت عليه أم الشافعي وقالت أيها القاضي ليس لك ذلك لأن الله يقول: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[٢] فلم يفرق بينهما[٣].

تلك نماذج وغيرها كثير تفاخر بها المرأة المسلمة، ويعترف بها غير المسلمين وهذا غوستاف لوبون صاحب حضارة العرب -يذكر أنه كثر في العهد العباسي في المشرق، وفي ظل الأمويين في الأندلس اللواتي اشتهرن بمعارفهن العلمية والأدبية، وبعد ذلك من الأدلة على أهمية النساء أيام نضارة حضارة العرب»[٤].

فهل تعيد المرأة المعاصرة تاريخ ومجد أسلافها من المؤمنات العاملات ليس ذلك على الله بعزيز، ولا يقف مد الإسلام وفي الأرض مسلم ومسلمة يقولان لا إله إلا الله محمد رسول الله، أعوذ بالله ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٥].

---

(١) الحلية لأبي نعيم ٢/١٦٧/١٦٨، عناية النساء بالحديث، آل سلمان ص١٢١.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.
(٣) عناية النساء بالحديث، ص١٣١.
(٤) حضارة العرب ص٤٨٩، عن المصدر السابق ص٧.
(٥) سورة النساء، الآيتان، ١٢٣، ١٢٤.

هذه عناية الإسلام بالبنت حتى تغادر البيت معززة مكرمة فأين هذا من الحضارة المزعومة المعاصرة التي ترمي بالبنت في قارعة الطريق لتبحث عن مأوى آخر، وتهيم على وجهها في صحراء مهلكة تحيط بها الذئاب من كل جانب؟



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا، وجعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيمًا إنه عليم قدير وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله علَّم الناس الخير ودعاهم إليه، وبيَّن لهم الشر وحذرهم منه.. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين وعلى الآل والأصحاب والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها المسلمون والمسلمات.. لا تقف عناية الإسلام بالمرأة عند هذه الحدود السابقة، بل يأمر الإسلام بإكرام المرأة أمًا، وبنتًا، وزوجة وأختًا، وعمةً، وخالة، منذ ولادتها وحتى مماتها.

فعندما تكون بنتًا ضعيفة لا حول لها ولا طول يأمر أباها وأمها بحسن رعايتها وتوفير حاجاتها، ويرتب على ذلك من الأجر والمثوبة ما يدفع للخدمة والرعاية دون ضجر أو ملل، ويقول عليه الصلاة والسلام- فيما يقول-: **«من ولدت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده** -يعني الذكر- **عليها أدخله الله بها الجنة»**[1].

وفي الحديث الأخر: **«من كن له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن، أدخله اللهُ الجنة برحمته إياهن، فقال رجلٌ وابنتان يا رسول الله قال: وابنتان قال رجل يا رسول الله وواحدة، قال: وواحدة»**[2].

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه ٤/ ١٧٧ وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٧٦ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

ويبلغ عائل الجاريتين القمة والرسول ﷺ يقول له: «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين** -وضمَّ أصابعه»(١).

وحين تشب البنت عن الطوق وتصبح زوجة يوليها الإسلام عنايته، ويعتبر المتعة بها والأنس معها أفضل ما في الدنيا: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**»(٢).

وجعل الإسلام الحياة الزوجية ترتكز على دعائم قوية من المودة والرحمة تعجز الأنظمة البشرية أن تبلغه بتشريعاتها فهو آية من آيات الله كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

وإذا كان أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ ففي بقية الحديث نفسه قال عليه الصلاة والسلام: «**وخياركم خياركم لنسائهم**»(٤).

فإذا كانت المرأة أمًا، فهي المنزلة التي لا تدانيها منزلة، وهي أحق ما في الوجود بحسن الصحبة والرعاية، والإحسان لها وللأب يُقرن بحق الله في العبودية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

والوصية بهما تنزل من السماء ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

ويلفت النظر إلى حق الأم لزيادة مشقتها: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾(٥).

---

(١) رواه مسلم وغيره (رياض الصالحين ص١٣٨).

(٢) رواه مسلم ١٤٦٧، رياض الصالحين ص١٤٣.

(٣) سورة الروم، آية: ٢١.

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وصححه ابن حبان وغيره، رياض الصالحين ص١٤٣.

(٥) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

والرسول ﷺ يرددها ثلاثًا: «**رغم أنفُ، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة**»[(١)].

ولقد فقه سلف الأمة وخيارها هذه الحقوق فرعوها حق رعايتها بأقوالهم وأفعالهم فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يقول[(٢)] «إني لا أعلمُ عملًا أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة» وهذا ابن عمر رضي الله عنهما يشهد رجلًا يمانيًا يطوف بالبيت وقد حمل أمه وراء ظهره ويقول:

إنـي لـهـا بـعـيُـرهـا الـمـذلـل   إن أُذعـرتْ ركـابـهـا لـم أُذْعـرْ

ثم قال: يا ابن عمر أتُراني جزيتُها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة»[(٣)].

وفي صحيح مسلم قال أبو هريرة رضي الله عنه: والذي نفسُ أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله، والحج، وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك، قال أحد رواة مسلم: وبلغنا أن أبا هريرة رضي الله عنه لم يكن يحج حتى ماتت أمه لصحبتها»[(٤)].

فأي تشريع غير الإسلام يبلغ بالمرأة هذه المنزلة، وأي حقوق يمكن أن يهبها لها البشر فوق ما حباها به رب البشر؟

ولولا أن يطول الحديث لاستكملت عناية الإسلام بالمرأة أختًا، وعمةً وخالةً وقريبةً أم بعيدةً.. وألتفت بعد ذلك إلى صوتٍ نسائي منصفٍ تعد صاحبته في طليعة المتعلمين.. وإن كان كل أحدٍ يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحبَ القبر أعني رسول الله ﷺ كما ثبت عن مالك.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥١) رياض الصالحين ص١٥٧.
(٢) كما في صحيح الأدب المفرد ص٣٤.
(٣) صحيح الأدب المفرد للألباني ص٣٦.
(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٢٨٥.

وتقول الدكتورة بنتُ الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) عن قضية المرأة:

إننا لم نكن في حاجةٍ إلى فهم هذه القضية ومثلها كما نحن الآن، إذ يعوز المرأة لكي تعرف حقيقة مكانها في عالم اليوم، وتميز دورها فيه- أن تستكمل وعيها لذاتها، وأن تفهم مقومات وجودها، وجوهر شخصيتها ومحالٌ أن يتحقق شيءٌ من ذلك إذا بُترنا من ماضٍ لنا بعيد طويل، وجهلنا ما تأصل في أعماقنا من تراثٍ لنا، فكري وروحي ومادي- ظل يتناقل جيلًا بعد جيل وخلفًا بعد سلف - متغلغلًا في كياننا، متحكمًا في سلوكنا الفردي والجماعي، موجهًا أساليب تناولنا للحياة، وفهمنا لها، وسيرنا فيها..

إلى أن تقول: أجل لقد سمع اللهُ شكوى شاكيةٍ منا وغضب سبحانه لواحدة أخرى افتري عليها ظلمًا وبهتانًا، فجعل براءتها آيةً تتلى وقرآنًا يتعبد به من يؤمن بالله واليوم الآخر .. إلى أن تقول: ولو لم يصنع الإسلام غير هذا لكان حسبنا نحن المسلمات، ولو لم يكن لنا من القرآن الكريم سوى هذه الآيات من سورة المجادلة والنور لرضينا بها حظًا ونصيبًا.. أي صنيع يمكن للإنسانية الكريمة أن تطمع فيه للأنثى أسمى من صون حصانتها، وحماية سمعتها من أراجيف المبطلين.

وبعد عرضها لنماذج من حقوق النساء في الإسلام عادت لترد على المغرضين المتشبثين بقضايا زعموا أن فيها إجحافًا بحق المرأة.

وتقول: «أفأحتاج بعد هذا إلى إطالةِ الوقوفِ عند الذين زعموه مجحفًا بنا من إباحة تعددِ الزوجات، والطلاق، واحتساب نصيب الأنثيين في الميراث كنصيب الذكر الواحد، وشهادة الأنثيين مكان شهادة الرجل؟ كلا فحكمة الإسلام في كل مسألة من هذه المسائل تبدو واضحة لا يجحدها إلا جاهلٌ أو مكابرٌ، تعدد الزوجات تقضي به أحيانًا ضرورةٌ قاهرة ويضبطه الإسلام بحدود ماديةٍ وأدبية

-ولا يزال الكلام للكاتبة- والطلاق لا محيد عنه إذا لم تعد الحياةُ الزوجية مستطاعة ولا محتملة، وهو مع ذلك أبغض الحلالِ عند الله، وإعطاءُ الأنثى نصف الذكر من الميراث يقابله إعفاؤها من أعباء النفقة حتى مع ثرائها وفقر زوجها وشهادة الاثنتين بدلًا من شهادة رجل منظورٌ فيها إلى عاطفية المرأة التي هي جوهر أنوثتها[1].

أيتها الأخت المسلمةُ مع الفارق في الحقوق التي منحها الحكيمُ الخبيرُ للمرأة، والتخبط المشين لأدعياء حقوق المرأة فإن هناك فارقًا آخر ألمح إليه الدكتور السباعي في كتابه «المرأة بين الفقه والقانون» وقال: «كان التشريعُ الإسلاميُّ نبيلَ الغاية والهدف حين أعطى المرأة حقوقها من غير تملقٍ لها أو استغلالٍ لأنوثتها، ففي الحضارتين اليونانية والرومانية، وفي الحضارة الغربية الحديثة، سمح لها بالخروج وغشيان المجتمعات للاستمتاع بأنوثتها، لا اعترافًا بحقوقها وكرامتها بينما حد الإسلام من نطاق اختلاطها بالرجال وغشيانها المجتمعات حين أعطاها حقوقها وبعد أن أعطاها وصانها وأعلن كرامتها راعى في كل ما رغب إليها من عمل وما وجهها إليه من سلوك أن يكون ذلك منسجمًا مع فطرِتها وطبيعتها وأن لا يرهقها من أمرها عسرًا»[2].

أما الحضارات المادية القائمة . . أما جهدُ المرأةِ وضياعها . . أما حسرتها وقلقها . . فلعلي أقص عليكم من نبأ ذلك في خطبة لاحقة بإذن الله.

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدًا . . وأرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه. هذا وصلوا.

(١) الأخت المسلمة أساس المجتمع الفاضل: محمود الجوهري ص٩٣- ١٠٠.
(٢) المرأة بين الفقه والقانون ص٤٤.

المرأة في الحضارة المادية المعاصرة[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال - وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[٢].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أوصى أبا ذرٍ رضي الله عنه أن يتعوذ من شياطين الجن والإنس، فقال أبو ذرٍ: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»[٣].

اللهم صل على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى سائر المرسلين، وارض اللهم عن الآل الطيبين والصحابة أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٤]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٥] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾[٦].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٧/٤/١٤١٦هـ.

(٢) سورة طه، الآيات: ١٢٤-١٢٦.

(٣) الحديث رواه أحمد والنسائي.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٥) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٦) سورة النساء، آية: ١٣١.

أيها الإخوة المؤمنون.. أيتها الأخواتُ المؤمنات، قد آن الأوان للحديث عن وضع المرأة في ظل الحضارة المادية المعاصرة، بعد سبق الحديث عن وضع المرأة وكرامتها وصون حقوقها في الإسلام، وسبق الحديث كذلك عن وضع المرأة وقيمتها في ظل الجاهليات القديمة في شرق الأرض ومغربها ولست أدري من أين أبدأ حديثي عن المرأة في ظل الحضارة المادية المعاصرة أبدأه من صيحات أساتذة الجامعات؟ أم من تحذير الكاتبات الشهيرات؟ أم يكون الحديث دراسة واعية للأرقام المذهلة والإحصاءات ونتائج الدراسات؟

أم يكونُ جلاءً لانتكاسة دور السينما وانتحار أشتهر الممثلات أم يكون حديثًا عن بداية الضياع ورصيد خط الانحراف. أم يكون تشخيصًا للأسباب، ورصدًا للنتائج، وتوصيفًا للعلاج؟

ولئن لم يفِ الحديث بهذه أو تلك فمرد ذلك أن الخُطبة ليست للإسهاب والتفصيل بقدر ما هي للإشارة والتذكير، وهذا يعني أن وراء القليل المذكور الكثيرُ الذي لم يتسع المقام لذكره.

وخلاصة القول أن المرأة في ظل هذه الحضارة المادية المعاصرة بدأت تشعر بحجم قضيتها، وفداحة وضعها، وخداع الرجال لها.

لقد قيل لها -زورًا وبهتانًا- أنت إنسانة حرة يجب أن تتمتعي بحريتك وتهتمى بجمالك وتختلطي بالرجال في صداقات بريئة حتى لا تتعقدي ولا تكوني فريسة للأمراض النفسية والانهيارات العصبية فلما مشت في هذا الطريق عشرات السنين اكتشفت أخيرًا الفرية الكبرى والفضيحة العظمى من مراكز القيادة، واكتشفت أن حريتها لم تكن إلا لتصبح متعةً للرجل ومستقرًا لشهوته، إذ هو يخادعها في الخلوات، ويجلس معها في البارات، يراقصها في الحلبات، ويسبح معها على شواطئ الأنهار والبحار.. كل ذلك دون أن يرتبط معها

بمسؤولية الحياة الزوجية والسكون العائلي.

لقد اكتشفت المرأة بعد التجارب المريرة أنها غدت وردةً ذابلة تدوسها المادة ولا يشعر بمأساتها أحد؟

أجل لقد انهارت سعادتها البيتية، وضاعت أمومتها الحانية، وفقدت كيانها وإرادتها وشخصيتها، وغدت حامل الطفل اللقيط تبحث في شرق البلاد وغربها عن مستشفيات الوضع، تمزقها المأساة وتحمل مع آلام الحمل ظلم الرجال على كتفها ويزيد من لوعتها وحسرتها تأوهاتُ الطفل كلما صرخ: ماما أين أبي؟ لماذا ليس لي أبٌ كسائر الأطفال؟(١).

إخوة الإسلام إنها الصورة الحقيقية -باختصار- للمرأة في ظل ظلم وجور هذه الحضارة العصرية المزعومة للمرأة؟ هذا الظلم والجور للمرأة لم يعد سرًا، بل أزعج المنظمات والهيئات الدولية فقد بدأت لجنةُ حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة تشعر بهذا الانحراف الخطير فنشرت قبل ما يزيد على عشرين عامًا مشروع قانون جديد على الدول الأعضاء لإزالة التمييز ضد النساء بمناسبة عام المرأة العالمي عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف للميلاد (١٩٧٥م) ومما جاء فيه أن أي مشروع يوضع لتنظيم قضايا المرأة في العالم ويحدد علاقتها بالرجل يجب أن يراعي الواجب الأساسي للمرأة في الحياة الاجتماعية، وهو الأمومة وتربية الأطفال، وتهيئة الجو المناسب لإنشاء البيت السعيد»(٢).

مع ما في هذه التوصية من تخفيف لآلام المرأة وتقدير لمنزلتها قد جاء مؤتمر المرأة الأخير في بكين ليقضي على هذا الحلم للمرأة ولذلك حين يتخبط البشر

---

(١) المرأة في ظل الحضارة الغربية د. محسن عبد الحميد ٣، ٤.

(٢) السابق: ٥.

في أنظمتهم يهدم اللاحقون ما استصلحه السابقون، ويخرب العابثون بيوتهم بأيديهم فاعتبروا يا أولي الأبصار!.

إخوة الإسلام استمعوا إلى حصاد الحرية المزعومة تعلن قاضية سويدية كلفتها الأمم المتحدة بزيارة البلاد الغربية لدراسة مشاكلها والتعرف على أوضاعها الاجتماعية والقانونية..

فتحدثت القاضية السويدية (بريجيت أوف هاهر) عن المأساة التي خلفتها أوضاعُ الحرية في السويد -أرقى بلاد الحضارة الغربية- وتشير إلى زيادة نسبة الانتحار سنة بعد سنة بين النساء، ثم تقول: «**إن المرأة السويدية فجأة اكتشفت أنها اشترت وهمًا هائلًا -هو الحرية- بثمن مفزع هو سعادتها الحقيقية، ولهذا فإنها تستقبل العام العالمي لحقوق المرأة (١٩٧٥) بفتور مهذب، وتحن إلى حياة الاستقرار العائلية المتوازنة جنسيًا وعاطفيًا ونفسيًا، فهي تريد أن تتنازل عن معظم حريتها في سبيل كلٍّ سعادتها**».

وتذهب القاضية السويدية في تقريرها أبعد من هذا وتقول: «إن النتيجة على مستوى الأمة مذهلة حقًا وتذكر نسبًا مخيفة للمرضى النفسيين والمصابين عقليًا، والمصابين بأمراض الشذوذ الجنسي»[(١)].

أيها المسلمون أيتها المسلمات.. أما ثمار الاختلاط فتتحدث عنه بمرارة الكاتبة الإنجليزية الشهيرة «أنارورد» حين تقول: «**ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف رداء، إنه عارٌ على بلاد الإنجليز أن نجعل بناتنا مثلًا للزائل بكثرة مخالطتهن للرجال فما لنا لا نسعى وراء ما يجعل البنات تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية بما يوافق القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال**

---

(١) المرأة في ظل الحضارة الغربية ٦، ٧.

سلامة لشرفها وحفاظًا على أنوثتها . . .»[١].

وفي، أمريكا تعترف الدكتورة «أيدي ألين» أن سبب الأزمات العائلية في أمريكا، وسبب كثرة الجرائم في المجتمع هو أن الزوجة تركت بيتها لتضاعف من دخل الأسرة، فزاد الدخل وانخفض مستوى الأخلاق.. إلى أن تقول الكاتبة: «إن التجارب أثبتت أن عودة المرأة إلى بيتها هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيل من التدهور الذي يسير فيه».

وفي ألمانيا قامت مظاهرةٌ نسائية تدعو إلى تحرر المرأة من العمل وتفريغها للبيت وشؤونه، ونادت النساء الألمانيات في هذه المظاهرة أن يُنص عند عقد الزواج على عدم مزاولة المرأة للعمل وأن تكون رسالتها الزوجية والأمومة لا مزاحمة الرجال في المكاتب والمصانع والمرافق الحكومية»[٢].

تجتمع هذه النذر وتتلاقى هذه الصيحات لما نتج عن عمل المرأة وخروجها واختلاطها من انتكاسة في القيم والأخلاق، حتى قال العالم الإنجليزي (ساموبل سمايلي) في كتابه «**الأخلاق**»: «إن النظام الذي يقضي بأن تشتغل المرأة في المعامل ودور الصناعات مهما نشأ عنه من الثروة، فإن النتيجة هادمةٌ لبناء الحياة المنزلية . . .»[٣].

أيها المسلمون والمسلمات -لماذا لا تُعلن الصيحات، ومأساةُ المرأة في الحضارة المادية المعاصرة لم تقف عند حدود المعمل والمصنع والشارع والشاطئ، بل حاصرت المرأة في دور العلم، ولم تسلم المرأة المتعلمة من

---

(١) المرأة بين البيت والعمل ٢٤.

(٢) المرأة بين البيت والعمل ٢٥، ٢٦.

(٣) بدرية العزاز، المرأة، ماذا بعد السقوط ١٤٧.

حصار الرجل وظلمه حتى والمرأة تُحضر أعلى الدرجات العلمية، تقول إحدى الدارسات الحاصلات على درجة الدكتوراه في علم النفس أن رئيسها المباشر في الجامعة ابتدأ في معاكستها، وهي لا تستطيع أن ترفض طلبه لأن مستقبلها الدراسي بين يديه، تقول الدارسة: ولولا رضوخي لما كانت هناك امرأة في هذه الدرجة العلمية!![١].

أفبعد هذا يبقى مكانٌ للقيم والشيم؟ وقد شاعت الفاحشة في دور العلم، وشمل المثقفين، ووقع في شراكه المعلمون والمربون؟

إن الكارثة لا تنتهي عند هذا الحد، وسوسُ الفساد ينخر في المجتمع بسبب إفساد المرأة، وقد صدر كتابُ «**الابتزاز الجنسي**» لمؤلفه «**لين فارلي**» عام **١٩٧٨** م ليفضح استغلال الرجل للمرأة جنسيًا وفي الاستفتاء الذي قامت به جامعة «**كورنل**» بين عدد من العاملات في الخدمة المدنية، جاء من نتائج الاستفتاء أن سبعين في المائة من النساء تعرضن للاعتداء الجنسي عليهن، وأن ستة وخمسين بالمائة منهن اعتدي عليهن اعتداءاتٍ جسمانية.. إلخ التقرير الخطير[٢].

فأي حضارة تلك، وأي قيمة للمرأة في ظلها.. أين وقع المصطلحات الرنانة كالحرية، المساواة، وأين صيانة حقوق المرأة؟!

❃ ❃ ❃

(١) العزيز- المرجع السابق ١٤٣.

(٢) السابق: ١٤٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وأجلها نعمة الإسلام وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شرع لنا من الدين أحسنه وأنزل علينا أفضل كتبه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، به تمت رسالات السماء وكان خير المرسلين. . اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

إخوة الإسلام لضراوة الجاهلية المعاصرة، وظلم المرأة في ظل هذه الحضارة المادية المعاصرة، فقد استيقظت وتستيقظ أحيانًا فطرُ أكثر النساء لهوًا وضياعًا. . إنهن الممثلات العاريات، ورائدات دور السينما الفاتنات المفتونات. . تستيقظ أولئك النسوة على ضياعهن واستغلال الرجال لهن وفي فرنسا مثلًا- نشرت جرائد العالم في حينها - قصة الممثلة الفرنسية الداعرة، التي كانت تمثل مشهدًا عاريًا أمام الكاميرا، وفجأة ثارت ثورةً عارمةً وصاحت في وجه الممثل والمخرج تقول: أيها الكلاب، أنتم الرجال لا تريدون منا نحن النساء إلا أجسادنا، حتى تصبحوا من أصحاب الملايين على حسابنا، ثم انفجرت تبكي. . ».

وقبلها انتحرت الممثلةُ الأمريكية «**مارلين**. . .» وكتبت كلمات تندب فيها حظها وتحذر بنات جنسها من مثل مصيرها[١].

أيها المسلمون والمسلمات أكتفي بهذه الإطلالة السريعة على واقع المرأة في الحضارة المادية المعاصرة لأقف مستنتجًا العبر والدروس الآتية:

أولًا: أن هذا الواقع المشين لم تبلغه المرأة دفعة واحدة، ولم تُجر إليه بين

---

(١) المرأة في ظل الحضارة الغربية؛ د. محسن عبد الحميد ١٠، ١١.

عشية أو ضحاها، وإنما كان هذا نتيجة تخطيط ماكرٍ مسبق استخدمت فيه الألفاظ البراقة الخادعة من جهة، وروجت له وسائل الإعلام وقنواتها المختلفة من جهة المرأة، ومع هذا الضجيج والخداع فقد اكتشفت المرأة أخيرًا اللعبة ولكن أنى لها الرجوع وقد أدخلت في النفق المظلم ولا تعلم طريق الخروج، فالاختلاط مثلًا عاد عليها بالويل والثبور وعرض أجسادهن لنهش الذئاب وفتك السباع، والحرية المزعومة لم تكن إلا غطاءً لخروجها دون حسيب أو رقيب وكان سببًا لتقويض بيت الزوجية الهانئة، ومعولًا لمشاعر الأم الحنونة، وسيفًا مصلتًا على العفة والكرامة والحياء أما المساواة فليس لها من المصطلح إلا رنينُ العبارة وجمال التسمية، وكيف تتاح المساواة مع الرجل في بيئات تشتد المنافسة في العمل بين جنس الرجال وأنى لهن أن يتحملن منافسة الجنس الآخر، والعطالة على أشدها، والانهيار الاقتصادي شبحٌ مخيفٌ!

ثانيًا: هذه الموجةُ الغازيةُ وهذا الفساد المستشري لم يقف عند حدود البلاد الكافرة ولو كان كذلك لهان الخطبُ وقيل هذه أمةٌ لا تهتدي بهدي الله ولا تظللها شريعة السماء، والمرأة هناك لا تستند على حقوق معتبرة كتلك التي ضمنتها الشريعة الإسلامية للمرأة المسلمة.. ولكن المصيبة أن يصل الخداع إلى المرأة المسلمة، فتنزع حجابها، وتختلط بالرجال، وتطالب بالحرية والمساواة وتحشر نفسها في النفق المظلم الذي دخلته المرأة الكافرة وهي الآن تصرخ باحثة عن المخرج، إنه عارٌ على المرأة المسلمة أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وإذا كان للمرأة الكافرة ما يفسر مطالبتها دون تبرير، فأي تفسير لانتهاك القيم ونزع الحياء والجلباب من المرأة المسلمة.. إن المرأة المسلمة أهلٌ للقيادة والريادة فكيف ترضى أن تُقاد، وكيف يسهل عليها أن تكون في مؤخرة القافلة، بدل أن تتصدرها؟

ثالثًا: ينبغي أن يُعلم أن خط الانحراف في إفساد المرأة عمومًا والمرأة المسلمة خصوصًا لا يأتي جملة واحدة. ولا يُعلن المنفذون عن أهدافهم الحقيقية ببساطة، فالتدرجُ أسلوبٌ متبع والتذرعُ بالنصح للمرأة والمدافعة عن حقوقها بات وسيلة مكشوفة للمرأة قبل الرجل، فالحجاب مثلًا لا ينزع في البداية جملة، وإنما يكتفى بكشف الوجه ثم يتدرج إلى كشف شيء من الشعر ثم الذراعين، ثم الصدر وهكذا حتى يصل المخطط نهايته، والاختلاط لا ينبغي أن يصدم به المجتمع في الجامعات أو حتى في الثانويات والمتوسطات، على حد تعبير هؤلاء وإنما يطرح الاختلاط في الصفوف الأولى الابتدائية لتستمرأه النفوس وتخف النفرة من كلمة الاختلاط، فينتقل بعد حين إلى مرحلة أخرى وهكذا حتى يبلغ المخطط نهايته.

ومنافسة المرأة للرجل في الوظيفة ومشاركته في العمل تبدأ بافتتاح مجالات واسعةٍ لتعليم الفتاة في غير مجالها الذي يناسبها، ثم بعد ذلك حثها وحث وليها على المطالبة بتوظيفها، فتوفر وظائف كثيرة للنساء، حتى إذا امتلأت الأماكن الخاصة بالنساء، وبقيت طوابيرًا أخرى من النساء كانت الخطوة الجريئة بعد ذلك، بتوظيف المرأة بوظائف خاصة بالرجال والرجلُ أحوج ما يكون إليها، وربما كانت مع الرجل في مكتب واحد أو بينهما حجابٌ خفيف في البداية سرعان ما يخترق وتزال الحجب.. فتنبهوا معاشر المسلمين والمسلمات للخطر واستفيدوا من حصاد تجربة الآخرين والسعيد من وعظ بغيره.

رابعًا: أيتها المرأة المسلمة حذار أن يخدعك المنافقون، أو يؤثر فيك أصوات المأفونين، ولن تجدي أصدق من كتاب الله خطابًا إليك، ولا أرحم من شريعة الله بك، وليسعك ما وسع الأمهات الطيبات الطاهرات، ونساءُ المؤمنين الخيرات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن

جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

ولقد قيل لمن هو خير منك وأزكى ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٢).

أما الناعقون بحريتك والمنادون بمساواتك، والحريصون على اختلاطك، ما أجد من أصدق العبارات التي قيلت بشأنهم «**المرأة وذئاب تخنق ولا تأكل**» وهو عنوان كتاب صدر لأبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري -عفا الله عنا وعنه- يقول في تحليل العنوان: الخنق رمزُ جوع جنس باعثه التداوي من الإثم بالإثم، وإيحاش القلب بالسلوك الرديء، وجبن وتقاعس عن الالتزام ومسؤليات الزواج»(٣).

إنني أحمل المرأة مسؤولية الدفاع عن نفسها، والاعتراف بدينها، واكتشاف النصحة من المتاجرين بقضيتها.. وأدعوها لمزيد من العلم بشريعة ربها، والوعي بإسلامها.. والتنبه لمخططات الأعداء لها.. ومن يتق الله يجعل له مخرجًا.

خامسًا: وفي سبيل وقاية نسائنا عما وصلت إليه المرأة الغربية من تعاسة وانتكاسة، أذكر بمسؤولية الجميع في الحفاظ على حياء وعفة المرأة المسلمة،

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان: ٣٢، ٣٣.

(٣) ص٩ ط ١٤١١هـ.

وعدم اختلاطها، أو الاستجابة لنزع جلبابها تحت أي شعار، وبأي أسلوب خادع طرح، لابد من التنبه لمخاطر الطروحات المغلفة بغلاف المصلحة المزعومة، والحاجة القائمة.. ونحوها.

ومصيبة أن يُفاجأ الخيرون والخيرات بالستار يزاح عن مصيدة للمرأة حبكت فصولها في الخفاء، تلك مسؤولية العلماء والدعاة، ورجال الفكر، وأولي الأمر كافة.



عبودية السراء (الشكر)[1]

الخطبة الأولى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[2].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نعمه لا تقدر ولا تحصى، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، يرضى لعباده الشكر ويكره منهم الكفر، وهو الغني الحميد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله كان عبدًا شكورًا، وقام حتى تفطرت قدماه وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اتقوا الله عباد الله وبذلك أوصاكم كما أوصى الذين من قبلكم ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

إخوة الإسلام حديث اليوم عن عبادة قلبية وهي من مقامات القلوب وإن شملت الجوارح.. وهي يسيرة على من يسرها الله عليه، ولكنها في الخلق قليل، تمثلها الأنبياء عليهم السلام وانتفع بها السالكون لنهجهم، وأهلك الله بإنكارها

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٦/٦/١٤١٨هـ.

(٢) سورة فاطر، الآيات: ١-٣.

أممًا، وقصم جبارين ما رعوها حق رعايتها، إنها عبودية السراء، قرنها الله بذكره فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[١].

أيها المسلمون ما أعظم الخطب حين يقول الله عن الشكر: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢] وحين يقول: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٣]. ويتعاظم الأمر حين تسمع آثار الشكر وعاقبة كفر النعم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[٤].

ترى من هم الفئة القليلة الشاكرة، وما معنى الشكر وحقيقته، وما هي آثار الشكر، وعواقب الجحود، وهل من صور ونماذج للشكر والشاكرين، وأخرى للجاحدين والمتكبرين.. وأمور أخرى سآتي على ذكرها في باب الشكر.. تذكيرًا بأنعم الله علينا، ودعوة للشكر لما أولانا، واستنقاذًا لأنفسنا من هلكة الجحود والبطر وإن لم نقلها بألسنتنا لكن واقع حالنا يشهد بها علينا.

أخوة الإيمان ولعظيم قدر الشكر قرنه الله بالإيمان وجعله سببًا مانعًا من عذابه فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ﴾[٥].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الشكر نصف الإيمان»[٦].

وقال الشعبي: «الشكر نصفُ الإيمان، واليقين الإيمان كله»[٧].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٣) سورة السجدة، آية: ٩.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٥) سورة النساء، آية: ١٤٧.

(٦) الإحياء للغزالي ٢٢٠٣.

(٧) ابن القيم: عدة الصابرين ١٩٥.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

وإذا كان الشكرُ غاية الخلق، فهو غاية إرسال رسوله ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٢]. كيف لا وقد أثنى اللهُ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

قال ابن القيم: وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر، وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني، فإن الله لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلًا إلا من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٣]، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبدًا شكورًا[٤].

عباد الله كم من آية في كتاب الله عن الشكر نمرُّ عليها ونحن غافلون، فهل عقلنا إنما يعبد الله من شكره ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٥]. وهل علمنا أن أول وصية وصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[٦].

---

(١) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٥١، ١٥٢. عدة الصابرين ١٩٠.

(٣) سورة الصافات، آية: ٧٧.

(٤) عدة الصابرين ١٨٩.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٦) سورة لقمان، آية: ١٤.

ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[١].

وقطع الله بالمزيد مع الشكر ولم يستثن ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢].

والشكر خلق من أخلاق الربوبية ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣]، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[٤]، وقال ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥].

أيها المسلم والمسلمة وتأمل معنى الشكر في اللغة، وهو: الظهور، من قولهم: دابة شكور إذا ظهر عليها من السِّمن فوق ما تُعطى من العلف.

ومن معانيه عند العلماء؛ الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية، وقيل: هو الاعتراف في تقصير الشكر للمنعم، وقيل: الشكر لمن فوقك بالطاعة ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال[٦].

ولا بد للشكر من أركان ثلاثة، ولا يكون العبدُ شكورًا إلا بمجموعها: أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه، والثاني: الثناء على الله بها، والثالث: الاستعانة بها على مرضاته[٧].

والشكر يتعلق بثلاثة أشياء، بالقلب للمعرفة والمحبة وباللسان للثناء

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٣) سورة التغابن، آية: ١٧.

(٤) سورة الزمر، آية: ٧٤.

(٥) سورة يونس، آية: ١٠. (الغزالي، إحياء علوم الدين ٢٢٠٢).

(٦) تفسير القرطبي ١/٣٩٨.

(٧) ابن القيم: عدة الصابرين ٢٣٤.

والحمد، وبالجوارح لاستعماله في طاعة المشكور وكفِّها عن معاصيه، على حدِّ قول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ منِّي ثلاثةً   يدي ولساني والضمير المحجبا

وهذا يُصحح الفهم عند بعض الناس حين يظنون أن الشكر مجردُ حديث اللسان، فهذا مع أهميته فلا بد من صدق القلب ومحبته لمن يشكره وخوفه من عقابه والجوارح تصدق هذا أو تكذبه.

يُروى أن وفدًا قدم على عمر بن عبد العزيز يرحمه الله، فقام شابٌ ليتكلم، فقال عمر: الكِبَرَ الكِبَرَ، فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر بالسِّن لكان في المسلمين من هو أسنُّ منك، فقال تكلم، فقال: لسنا وفدُ الرغبة، ولا وفدُ الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر، جئنا نشكرك باللسان وننصرف، قال الغزالي: فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته(١).

نعم إخوة الإيمان إن مجرد الثناء باللسان شكرٌ، وهو وإن كان وحده لا يكفي، والفرق كبيرٌ بينه وبين التشكي والتضجر وإظهار الحزن دائمًا، فهذا ازدراء لنعم الله ولذا كان من هدي السلف أنهم كانوا يتساءلون كلما التقوا -ولو كان العهدُ قريبًا- وذلك لإظهار نعمة الشكر، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «لعلنا نلتقي في اليوم مرارًا يسأل بعضُنا عن بعض، ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل»(٢).

وهذه لطيفة حمالٍ فاعقلوها، رأى بكرُ بن عبد الله المزني حمالًا عليه حَمْله وهو يقول: الحمد لله، أستغفر الله، قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره

---

(١) الإحياء ٢٢٠٨، ٢٢٠٩.

(٢) عدة الصابرين ٢٠٦.

وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال (الحمال) بلى، أحسن خيرًا كثيرًا أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمةٍ وذنب فأحمد الله على نعمه السابغة وأستغفره لذنوبي، فقلت: الحّمال أفقه من بكر(١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢)، نفعني الله وإياكم.



(١) عدة الصابرين ١٩٦.

(٢) سورة النحل، الآيات: ١٢٠-١٢٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين يستحق الحمد والثناء، اللهم لك الحمدُ بما خلقتنا ورزقتنا، وهديتنا وعلمتنا، وأنقذتنا وفرَّجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، اللهم لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سرٍّ أو علانية أو خاصةٍ أو عامة، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

وأشهد أن لا إله إلا الله في ربوبيته وإلاهيته وأسمائه وصفاته وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

أيها المؤمنون والشاكرون أطيب الناس قلبًا، وأهنأهم عيشًا، وأوصلهم لما أمر الله به أن يوصل الشاكرون يقنعون باليسير، ويستجلبون بالشكر المزيد، يعلم الشاكرون أنهم وإن حرموا شيئًا فقد أعطوا أشياء، وإن اشتكوا مرضًا في جانب من جسدهم فقد أصحَّ لهم جوانب كثيرة أخرى.

والشاكرون لا يشكون المصائب وينسون النعم، بل ينسون مصائبهم في مقابل ما وهبهم الله من نعم، ولسان حالهم يقول:

يا أيها الظالمُ في فعله   والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى   تشكو المصيبات وتنسى النعم[1]

ويدرك الشاكرون أن الشكر سبيلٌ لرضى من يستحق الرضى والشكر، ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**»[2].

(١) عدة الصابرين، ١٩٥.
(٢) (٤/ ٨٩).

وهو طريق للمزيد من النعم، كذا جاء الخبر مؤكدًا في كتاب الله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال الحسن البصري: إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يُشكر عليها قلبها عذابًا».

ولهذا كانوا يُسمون الشكر بـ(الحافظ) لأنه يحفظ النعم الموجودة، و(الجالب) لأنه يجلب النعمَ المفقودة.

يا أخا الإيمان، الشكر وصية الرسول ﷺ لمن أحب، فقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «**والله إني أحبك فلا تنسَ أن تقول دبرَ كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتِك**»(١).

والشكر سببٌ للثبات على الإيمان وعدم الانقلاب على الأعقاب حين تُزلزل الأقدام، وتأمل موقف الشاكرين حين ارتد من ارتد من العرب يوم توفي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾(٢).

إخوة الإسلام إن منزلة الشكر عظيمة، ويكفي أن صاحبها يبلغ مبلغ الصائم الصابر، قال عليه الصلاة والسلام: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»(٣).

ونقيض الشكر من الجحود وتناسي فضل المنعم يورد صاحبه موارد الهلكة، ولهذا السبب كانت النساء أكثر أهل النار، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لو**

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤٤.

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه بسند صحيح (صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٠٤).

أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»[١].

فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهي في الحقيقة من الله، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله؟

يا ابن آدم كم لله عليك من نعمة تُدرك شيئًا وتغيب عنك أشياء، فبأي شيء تُراك قابلت هذه النعم؟

تنسَّك رجلٌ فقال: لا آكل الخبيص، لا أقوم بشكره فقال الحسن: هذا أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد؟[٢].

وجاء رجلٌ إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له يونس: «**أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، قال فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا.. قال: فذكَّره نِعَم الله عليه ثم قال له يونس؟ أرى عندك مئين الألوف، وأنت تشكو الحاجة؟!**[٣].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمُه وحضر عذابه».

عباد الله وما بالنا ونعم الله تترى علينا نضيق بنازلةٍ يسيرة، ونغتاظ لمرض يسير ألَمَّ بنا، ونكره لفوات محبوب من ملاذ الدنيا فات علينا - ولئن حُرمنا القليل فقد أُعطينا الكثير، ولئن أَلَّم بنا مرضٌ يسير فقد متعنا الله بالصحة عمرًا طويلًا.

---

(١) متفق عليه.

(٢) عدة الصابرين ١٩٧، ١٩٨.

(٣) عدة الصابرين ٢٠٧.

أين الشكر على نحو قوله عليه الصلاة والسلام: «**من أصبح آمنًا في سربه معافًا في بدنه، عنده قوت يومه وليلته فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**».

أين الشكرُ على نعمةِ الجوارح وسلامتها؟ وأين الشكر على نعمة الأمن والرخاء، وأين الشكر على نعمة العقل والإرادة وأين الشكر على نعمةِ الأموال والأزواج والبنين.. وقبل ذلك وأين الشكر على نعمة الإسلام والإيمان .. إنها وغيرها نعمٌ تستحق الشكر باللسان والقلب والجوارح.



وقفات من معركة القادسية[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين كتب العزة والغلبة له ولرسوله وللمؤمنين، وجعل الذلَّ والصغار على الكافرين والمنافقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يُديل على المؤمنين فترة ثم ينصرهم، ويمكن للظالمين حينًا ثم يأخذهم وربك يحكم ما يشاء ويختار.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله استخرج الله به الأمة من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين، وعلى آله المؤمنين وصحابته الغرِّ الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٣].

أما بعد إخوة الإيمان فيطيب لي أن أنتقل وإياكم نقلتين بعيدتي الزمان والمكان، إحداهما أبعد من الأخرى -أما الزمان فإلى ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة- وبالتحديد ما بين أربعة عشر وستة عشر للهجرة، أما المكان فيتردد ما بين طابة الطيبة، وتخوم العراق حيث وقعت معركة القادسية.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٧/٦/١٤١٦هـ.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٥.

لقد بلغ الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ هزيمةُ المسلمين في وقعة الجِسْرِ التي قُتل فيها خلق من المسلمين وفي مقدمتهم قائدهم أبو عبيد رحمهم الله جميعًا ورضي عنهم، كما بلغ الخليفة -أيضًا- انتظام شمل الفرس تحت قيادة يزدجرد، ونقض أهل الذمة بالعراق عهودهم، وإيذاء المؤمنين وإخراج العمال من بين أظهرهم.. وبلغت الغضبة العمرية لله مداها، وقرر الخروج بنفسه غازيًا للفرس في العراق، ولو كان يدير أمور الأمة كلها ومع أنه ركب ونزل على ماءٍ يُقال له صرار، واستصحب معه عثمان وسادات الصحابة، واستخلف عليًا على المدينة.. إلا أن بعض المسلمين أشار عليه أن يبعث غيره وأن يعود هو إلى المدينة، وفي هذا يقول عبد الرحمن بن عوف: إني أخشى إن كُسرت أن يضعف المسلمون في سائر أقطار الأرض.. فيرعوي عمر للمصلحة الكبرى ويقتنع المسلمون بمشورة ابن عوف رضي الله عنهم أجمعين، ويُنتدب لهذه المهمة العظيمة الأسد في براثنه - كما قال المشير ابن عوف: سعد بن أبي وقاص ﷺ مع سابقة سعدٍ وشريف نسبه، وصدق جهاده وبلائه، فقد أوصاه عمرُ وذكره الله قائلًا: يا سعد لا يغرنك من الله أن قيل خالُ رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحدٍ نسبٌ إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، والله ربُّهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه، فإنه الأمر»[1].

ألا ما أعظمه من تجرد.. وأصدقها من نصيحة، وأصعبها من مهمة يستجيب سعدٌ للمهمة وهو يرى أنه سهم من سهام الإسلام مستعدٌ لأن يُرمى به في أي نحرٍ من نحور الأعداء، ويقود المعركة العظيمة وإن بقي متكئًا على صدره فوق وسادة

(١) البداية والنهاية ٧/ ٣٩.

لا يستطيع الركوب ولا الجلوس، فقد أصيب بمرض عرق النساء، وأصاب جسده دمامل في فخذيه وإليته.

عباد الله إذا صدق القادة والأمراء انسحب ذلك على الجند وإن كانوا من أولي الأعذار والضعفاء، أوليس الأعمى من أولي الضرر الذين استثناهم الله في قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١]. مع ذلك أثبتت القادسية بطولاتٍ لرجالٍ كانوا من أولي الضرر قلَّ أن يجود الزمانُ بمثلها.

قال أنس بن مالك ﷺ رأيت يوم القادسية عبد الله بن أمِّ مكتوم ﷺ وعليه درعٌ يجزُّ أطرافها، وبيده راية سوداءُ، فقيل له: أليس قد أنزل الله عُذرك؟ قال: بلى، ولكني أُكَثِّر سواد المسلمين بنفسي»[٢]. وهو الذي كان يقول: ادفعوا إلي اللواء فإني أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيموني بين الصفين»[٣].

يُقال إنه استشهد يوم القادسية[٤] -رضي الله عنه وأرضاه.

أمة الإسلام إذا قام أهل الأعذار بما أعفاهم اللهُ من القيام به، أفيليق بالأسوياء الأقوياء أن يفرطوا بما أوجب الله عليهم من تكاليف هذا الدين؟

ألا إنها الهممُ العالية لا ترضى بأصحابها دون أعالي الجنان وسيطرة الهوى والشهوة يوردان المرءَ موارد الردى.

أيها المسلمون وثمة مواقف وعبرُ تلفت نظر المتأمل في هذه الوقعةِ العظيمة،

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٥.

(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٦٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٤.

(٤) السوابق ١/ ٣٦٥.

وما أولانا بالاستفادة منها فهل من مُدَّكر؟ وتحمل لنا الروايات التاريخية أنه كان عند سعدٍ في قصره رجلٌ مسجونٌ على الشراب، كان قد حُدَّ فيه مراتٍ متعددة.. فأمر به سعد فقيد وأودع في القصر، فلما رأى الخيول تجول حول حِمى القصر، وكان من الشجعان الأبطال قال:

كفى حزنًا أن تدحم الخيل بالفتى ... وأترك مشدودًا عليَّ وثاقيا

إذا قمتُ عناني الحديد وغُلِّقت ... مصاريع من دوني تُصِم المناديا

وقد كنت ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... وقد تركوني مفردًا لا أخاليا

ثم سأل من «زَبراء» أمِّ ولدِ سعدٍ أن تطلقه، وتعيره فرس سعد، وحلف لها أن يرجع آخر النهار، فيضع رجله في القيد، فأطلقته، وركب فرسَ سعدٍ وخرج فقاتل قتالًا شديدًا، وجعل سعدٌ ينظر إلى فرسه فيعرفها وينكرها ويُشبه الفارس بأبي محجن، ولكن يشكُّ لظنه أنه في القصر موثق، فلما كان آخر النهار رجع (الفارسُ الموثق) من رحلة الجهاد فوضع رجله في قيدها -وفاءً بالعهد ونزل سعدٌ فوجد فرسه يعرق، فقال: ما هذا؟ فذكروا له قصة أبي محجن، فرضي عنه وأطلقه رضي الله عنهما»[١].

أيها المؤمنون.. وليست الخطيئة ضربة لازبٍ لا يستطيع المخطئ الفكاك عنها، وليس المخطئون عناصر فاسدة في المجتمع لا يمكن الاستفادة من طاقاتهم، ولا يُقال عثراتهم كلا، وليس يُكتب على المرء- في ظل شريعة الإسلام -الشقاوة أبد الدهر إن هو قصَّر يومًا أو استزله الشيطان وحثه فعمل محظورًا، فالخطيئة تُداوى بالتوبة، والسيئة تمحوها الحسنة بعدها، ومن مراغمة الشيطان عدم الاستسلام لنزغاته حين مقارنة الذنب، أو توهينه وتيئيسه بعد

(١) البداية والنهاية ٧/ ٤٩، ٥٠.

الوقوع في الذنب، فالله كريم يبسط يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ومن تمام عقل الإنسان وتوفيق الله له أن يزداد في الحسنات كلما أحسَّ من نفسه ضعفًا وارتكابًا للخطيئات، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾(١)، بل ربما تحولت السيئة إلى حسنة بفضل الندم على فعلها وكثرة الاستغفار منها، ومحاولة التعويض عنها، وعكس ذلك الحسنة التي يعجب بها صاحبها ويمن بها على الله وربما كانت سببًا لغروره وقعوده عن عمل الصالحات، ودونكم هذه المقولة لأحد السلف يقول سعيد بن جبير -يرحمه الله-: «**إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويُعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب إليه منها..**» اهـ(٢).

ألا فلا تقعدَّن بكم الخطايا -معاشر المسلمين- عن عملِ الصالحات ولا يصدنكم الشيطان معاشر المخطئين عن المساهمة مع المسلمين في الدفاع عن حياض الدين ومجاهدة المشركين والمنافقين، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وربما ارتفع سهمُ الغيرة لدين الله ومحارمه عند شخص يرى أنه مسرف على نفسه بالمعاصي، فكانت تلك الغيرةُ سببًا لانعتاقه من أسر الخطيئة أولًا، وطريقًا إلى سلوكه صراط الله المستقيم وثباته على شرعه القويم، ومجاهدتهم في سبيل الله بما يستطيع ثانيًا، وفضل الله يؤتيه من يشاء، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

(١) سورة هود، آية: ١١٤.
(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٥.
(٣) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

أيها المسلمون، ومن وقفات معركة القادسية حديثٌ عن الأتقياء الأخفياء أولئك الذي وضعوا نصب أعينهم الآخرة ونعيمها فعملوا ما في وسعهم لها، واستشعروا محبة الله فعملوا بطاعته والبحث عن رضاه، لم تقعد بهم جراحات المعركة عن حزبهم من قيام الليل وتلاوة كتاب الله، ولم ينقص من جهادهم أن الخليفة لا يعرفهم بأعيانهم أولئك أقوامٌ يستشعرون رقابة الله فتكفيهم عن رقابة سواه، ويدركون دورهم في الحياة ومسؤوليتهم الفردية أمام الله فيدفعهم ذلك إلى أن يكونوا آسادًا بالنهار، رهبانًا بالليل.. يصفهم سعد رضي الله عنه في رسالته التي بعث بها إلى الخليفة عمر يخبره بالفتح ثم يقول:

وأصيب من المسلمين سعدُ بن عبيد القارئ، وفلانٌ، وفلانٌ ورجالٌ من المسلمين لا يعلمهم إلا الله فإنه بهم عالم، كانوا يدوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل كدوي النحل، وهم آسادٌ في النهار لا تُشبههم الأسود، ولم يَفضُل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم يُكتب لهم»[1].

أيها المسلمون بهذه النوعية من الجند انتصر المسلمون وبهذه العناصر الجادة في الجهاد والعبادة فُتحت البلادُ والقلوب ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وامتد رواقُ الإسلام شرقًا وغربًا، تلك من إيحاءات وقعة القادسية التي لم يكن

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٥١.

عددُ جيش المسلمين فيها مقاربًا لجيش الفرس، فقد نُقل أن جيش المسلمين كانوا ما بين السبعة آلاف إلى الثمانية آلاف، وأن جيش الفرس كانوا أربعين أو ستين ألفًا، وقيل كانوا ثمانين ألفًا، وقيل كانوا في مائة ألف وعشرين ألفًا»[١]. وأيًا ما كان العدد والفرق كبير بين الجيشين عددًا وعدة، ومع ذلك كتب الله النصر للمسلمين، وكانت بداية الأفول لإمبراطورية الفرس الكبرى.

وذلك يدعونا إلى الحديث عن الغثائية في مجتمع المسلمين في الأزمنة المتأخرة زمان التردي والضعف والانحسار حين يكثر عددهم ويقلُّ صدقهم، وتتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم، فيسومهم العدو سوء العذاب، ويستولي على بلادهم، ويهيمنُ على مقدراتهم أين نحن من أهل القادسية، أين رجالاتنا من رجالاتهم، وأين نساؤنا وصبياننا من نسائهم وصبيانهم، وتلك هي الوقفة الأخيرة التي تتعلق بالمرأة وحشمتها وعفافها، مع مساهمتها في الجهاد ونكاية الأعداء، ودونكم هذه الرواية فتأملوها وحريٌّ بنسائنا وبناتنا وأخواتنا أن يفقهنها ويسرن علي منوالها.

عن أمِّ كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت: «**شهدنا القادسية مع سعدٍ مع أزواجنا، فلما أتانا أن قد فُرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوي ثم أتينا القتلى، فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، ومن كان من المشركين أجهزنا عليه، ومعنا الصبيانُ فنوليهم ذلك** -تعنى استلابهم- **لئلا يكشفن عن عورات الرجال**»[٢].

وهكذا تُشكل المرأة المسلمة لبنة مهمة في كيان المجتمع المسلم، ويشارك

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٥، البداية والنهاية ٧/ ٤٢، ٤٨.

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٥١.

الرجال همتهم في الجهاد ونكاية الأعداء، دون أن تتجاوز أنوثتها أو تتنازل عن شيءٍ من حشمتها وعفافها، فهي لم تشترك إلا حين فرغ الناسُ من القتال وانحازت الصفوف وبقي من يحتاج إلى المساعدة من المسلمين فيُسقى، ومن به رمقٌ من المشركين ولا يستطيع الحراك فينهى.

وقبل الإقدام على هذه الخطوة تُشدُّ الثياب فلا يبين منها عورة، ولا يطمعُ الذي في قلبه مرضٌ بنظرة أو شهوة وتترفع الحرائرُ العفيفات عن كشف عورات الرجال، وتترك للصبيان مهمة الاستلاب وأخذ ما مع الأعداء من عدة أو سلاح.

ألا ما أروع الصورة، وأنظف المسؤولية، ودقة الأداء مع كمال الحشمة والحياء..

أين هذا من نساء يلهثن وراء الدعوة للاختلاط، ورجالٍ يرون الحشمة والحجاب مظهرًا من مظاهر التخلف وعهود الظلام؟ الفرق كبيرُ بين نساءٍ يساهمن في نشر الإسلام والتمكين لحضارة المسلمين والقضاء على الظلم والجهل والاستعباد وبين نساءٍ أو رجالٍ يتمنطقون بالعلمنة والتغريب ويريدون لأمتهم أن تكون ذيلًا في ركب الأمم التائهة في بيداء الظلام ويريدون لنسائهم أن يكن رقمًا ملحقًا بالغانيات الراقصات المائلات المميلات، وعلى الأقل يَكنَّ من النساء المترجلات فلا حشمة ولا حياء ولا عُزلة عن الرجال الأجانب يدفعُ الفتن والشرور ولا قرار في البيوت يتيح للمرأة إيجاد المحاضن المسلمة، إنه السُعار المحموم والتقليد الأبله وإفساد المرأة باسم المطالبة بحقوقها، وإذابة القيم باسم التقدم والحرية وليس يخفى فحيح الأفاعي على أولي الأحلام والنهى، ومن فضل الله علينا أن نساءَ هذه البلاد تربت وستظل بإذن الله على الحشمة والحياء رافضة موجات التقليد، ودعوات الاختلاط والسفور والناسُ

بعمومهم يدركون الفرق بين المفسدين والمصلحين، وإن قال المفسدون إنما نحن مصلحون.

إخوة الإيمان أختم الحديث عن هذه الوقفات باهتمام الخليفة عمر بأمور الإسلام والمسلمين في نهاية المعركة كما كان مهتمًا في بدايتها.. رحمك الله يا عمر وأنت تخرج من المدينة إلى ناحية العراق تستنشق الخبر، وفي ذات يوم أبصر راكبًا يلوح من بعد، فاستقبله عمرُ واستخبره فأخبره أن الله فتح على المسلمين بالقادسية وغنموا غنائم كثيرة، وجعل الرجلُ يُحدث عمر وهو لا يعرفه، وعمر ماشٍ تحت راحلته، فلما اقتربا من المدينة جعل الناسُ يُحيون عمرَ بالإمارة فعرف الرجلُ عمر فقال: يرحمك الله يا أمير المؤمنين، هلا علمتني أنك الخليفة؟ فقالت عمر: لا عليك يا أخي»[1].

هكذا إخوة الإيمان تبدو صورة المجتمع المسلم في القادسية نموذجًا للصدق والإخلاص والجهاد والتفاني والتواضع والحشمة والحياء، بأمرائه ومأموريه، بقادته وجنده، برجاله ونسائه وصبيانه.. وإذا أراد المسلمون العزة اليوم فلابد أن يتخذوا من تاريخ المجاهدين الصادقين نموذجًا يحتذى به وسُلمًا للوصول.. اللهم أصلح أحوال المسلمين واجمع كلمتهم على الحق والدين..



(١) البداية والنهاية ٧/ ٤٩.

(١) بين التطير والتفاؤل(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى إخوانه وآله ورضي عن صحابته وأتباعهم إلى يوم الدين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٣).

أما بعد فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه في السِّر والعلن، وبتقوى الله تصلح الأمور، وتتلاشى الشرور، ويصلح للناس شؤون دينهم ودنياهم.

ألا وإن صلاح المعتقد سببٌ للصلاح والطمأنينة في الدنيا والفوز بالنعيم والسعادة في الآخرة.

وحين يكون الخللُ في العقيدة يبتدع الناس عوائد ما أنزل الله بها من سلطان، ويتلبسون بسلوكيات تنغص عليهم حياتهم وتجعلهم نهبًا لإيحاءات شياطين الجن والإنس.

لقد جاءنا الله بهذا الدين لتمتلئ قلوبنا بتعظيم الله، والتوكل عليه ولتقرَّ أعيننا

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٩/ ٥/ ١٤١٧هـ.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٣) سورة النساء، آية: ١.

بتطبيق شرائع الإسلام وأخلاقه العالية، في وقت كانت ولا زالت الجاهليات تُضربُ أطنابها وتضلل أتباعها، ويظل الفرد في ظل هذه الجاهليات نهبًا للأهواء، قلقًا حائرًا تطارده الهموم، ويسيطر عليه التشاؤم، وربما بلغ به القلقُ مبلغه، والتشاؤم نهايته فأنهى حياته بنفسه، ظن ليستريح والحق أنها بداية للشقوة الأبدية.

لقد كان العرب قبل بعثة محمد ﷺ في ظلام وشقوة ليست الطيرة إلا واحدة من سلوكياتها الخاطئة.

والطيرة هي التشاؤم واشتقاقها من الطير، إذا كانوا يتطيرون من الغراب والأخيل ونحوهما، وكان الواحدُ منهم إذا خرج لأمر ورأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع، وكانوا يُسمون الطائر ذات اليمين بالسانح ويستبشرون به ويستدلون به على نجاح سفرهم وقضاء حوائجهم، كما يسمون الذي يأخذ بالشمال (البارح) فيتشاءمون به، وقد يرجعون عن السفر بسببه، أو يتوقفون عن عمل بدؤوه[(١)].

وإذا كانت الجاهليات قديمًا وحديثًا تلتقي في كثير من صور الانحراف فإن التطير وُجد عند الأمم السابقة كما قص الله على نبيه ﷺ من أخبارهم في القرآن، منكرًا لها ومُشنِّعًا على معتقداتها وإذا كان التطير كلُّه مرفوضًا.. فإنه يتعاظم حين يكون الأمر خيرًا واقعًا.. أو يكون المُتطير منه نبيًا مرسلًا.

أجل لقد تطير فرعون وقومه المجرمون بموسى ومن معه من المؤمنين ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا

(١) عالم السحر والشعوذة، الأشقر ٢٩٨.

طَآئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]. كما تطير أهل القرية برسلهم الناصحين وهددوهم بالرجم والعذاب الأليم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]. وتطيرت ثمود بنبيها صالح عليه السلام وقد طلب إليهم ألا تستعجلوا للسيئة قبل الحسنة، وأوصاهم بالاستغفار لعلهم يرحمون: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[٣].

عباد الله لم لا يكون التطير حرامًا وهو يصور لصاحبه الخير شرًا والحق باطلًا، وربما دفع بصاحبه إلى فعل المكروه أو الإحجام عن فعل المحبوب، وهو أولًا وآخرًا لا ينجي من المقدور، وليس بمقدور صاحبه أن يكتشف الغيب المستور ولذا رفضه بعض عقلاء الجاهلية وقال شاعرهم:

الزجر والطيب والكهانُ كلهم　　مُضللون ودون الغيب أقفال

وقال الرقشي:

ولقد غدوت وكنت لا　　أغدو على واقٍ وحاتم
فإذا الأشائم كالأيامن　　والأيامن كالأشائم
وكذلك لا خير ولا　　شرَّ على أحدٍ بدائم
لا يمنعنك من بغاء　　الخير تعقادُ التمائم[٤]

أما المسلم فيمنعه من التشاؤم عدة أمور رضاه بقضاء الله وقدره وثقتُه بأن ما يقدره الله له فيه خير فإن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣١.
(٢) سورة يس، آية: ١٨.
(٣) سورة النمل، آية: ٤٧.
(٤) الطيرة والفأل في الكتاب والسنة، محمود الجاسم ص١٣، ١٥.

واعتقاده الجازم بأن المستقبل غيبٌ لا يعلمه إلا علام الغيوب ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ومعرفته بأن الطيرة والتشاؤم نوعٌ من السحر، كما قال ﷺ: «**العيافة والطرق والطيرة من الجبت**»(١).

والجبت هو السحر عند جمع من أهل العلم، ووجه كون العيافة والطرق والطيرة سحرًا، لما فيها من دعوى علم الغيب، ومنازعة الله تعالى في ربوبيته. . إضافة إلى أن بعضهم يعتقد أن تلك الأشياء تنفعُ أو تضر بغير إذن الله تعالى(٢).

ومن أعظم ما يدعو المسلم للبعد عن التشاؤم والتطير خوفه من الشرك إذ هي بابٌ من أبوابه وطريقٌ موصلٌ إليه، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**» الحديث(٣).

وورد في حديث آخر: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**» قالوا فما كفارة ذلك قال: «**أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك**»(٤).

يقول ابن القيم رحمه الله: فالطيرة بابٌ من الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته يكبر ويعظم شأنها على من أتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية بها،

---

(١) رواه أحمد وأبو داود، وحسَّن النووي وابن تيميه إسناده (رياض الصالحين ح ١٦٧٢، الفتاوى ٣٥/ ١٩٢، وانظر: نواقض الإيمان؛ العبد اللطيف ٥٢٢).
رواه البخاري عن عمر رضي الله عنه معلقًا ووصله ابن جرير، وقال ابن حجر وإسناده قوي (الفتح ٨/ ٢٥٢، النواقض ٥٢٣).

(٢) نواقض الإيمان القولية والفعلية، العبد اللطيف ٥٢٣.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وصححه، ورواه غيرهم (تيسير العزيز الحميد ٣٨٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٥، وصحح إسناده الألباني في صحيح الجامع الصغير ٥/ ٢٩٥.

وتذهب وتَضَمْحَلَ عمن لم يلتفت إليها ولا ألقى إليها باله ولا شغل بها نفسه وفكره.

أيها المسلمون يدعو المسلم كذلك للبعد عن التطير والتشاؤم قطعُ وساوس الشيطان، وبُعده عما يُفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه وتأمل هذا الوصف الرائع من عالمٍ فقيه، لحال المتطير المتشائم يقول ابن القيم رحمه الله: «**واعلم أن من كان معتنيًا بها -يعني الطيرة- قائلًا بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبوابُ الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يُفسد عليه دينه، وينكدُ عليه عيشه.. إلى أن يقول: وحال من تطير وتشاءم كحال من غلبته الوساوس في الطهارة فلا يلتفت إلى علمٍ ولا إلى ناصح، وهذه حالُ من تقطعت به أسباب التوكل وتقلص عنه لباسه، بل تعدى منه، ومن كان هكذا فالبلايا إليه أسرع، والمصائب به أعلق، والمحنُ له ألزم، ثم ينتهي إلى توصيفه بقوله والمتطيرُ مُتْعبُ القلب، منكرُ الصدر، كاسف البال، سيءُ الخلق يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه، أشد الناس خوفًا، وأنكدهم عيشًا وأضيق الناس صدرًا وأحزنهم قلبًا، كثيرُ الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظٍ، ومنعها من رزقٍ، وقطع عليها من فائدة**»[(١)].

أيها المسلمُ ربما ندم المتطير مما تطير منه، واعتذر استحياءً ممن تطير به، ومن طريف ما يُروى عن بعض الولاة أنه خرج في بعض الأيام لبعض مهماته، فاستقبله رجل أعور، فتطير به وأمر به إلى الحبس، فلما رجع من مهمته ولم يلق شرًا أمر بإطلاقه، فقال له (المحبوس) سألتك بالله ما كان جرمي الذي حبستني

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٣٠، ٢٣١.

لأجله؟ فقال له الوالي: لم يكن لك عندنا جرمٌ، ولكن تطيرتُ بك لما رأيتك، فقال: ما أصبت في يومك برؤيتي؟ فقال الوالي: لم ألق إلا خيرًا، فقال الرجل، أيها الأمير: أنا خرجت من منزلي فرأيتك فلقيت في يومي الشرَّ والحبس، وأنت رأيتني فلقيت في يومك الخير والسرور فمن أشأمُنا، والطيرة بمن كانت؟ فاستحيا منه الوالي ووصله(١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٢).

نفعني الله وإياكم بهدي الكتاب.



(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٣١.

(٢) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين خلق فسوى وقدر فهدى، وأشهد أن لا إله إلا الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه -اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء.

أيها المؤمنون ربما تساءل البعض وبماذا يقع التطير وما أكثر ما يتطير منه قديمًا وحديثًا؟ ولئن كانت الطيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان والأشخاص، فمما يقع من التطير:

١- الطيور كالغراب والأخيل، والبومة بشكل أخص، وهي التي جاء ذكرها في الحديث باسم (الهامة) قال عليه الصلاة والسلام: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**»(١).

قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول نعت إليَّ نفسي أو أحدًا من أهل داري، ومعنى الحديث السابق لا شؤم بالبومة ونحوها(٢).

٢- الشهور: وخاصة صفر. إذ كان أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ويقولون إنه شهرٌ مشؤوم، وربما امتنعوا عن النكاح فيه، قاله ابن رجب: وكثيرٌ من الجهال يتشاءم بصفر، وربما ينتهي عن السفر فيه، والتشاؤم فيه هو من جنس الطيرة المنهي عنها(٣).

---

(١) متفق عليه.

(٢) (الفتح ١٠/ ٢٤١، الطيرة والفأل .. الجاسم ص٢٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد ص٣٨٠، الطيرة والفأل في الكتاب والسنة ص٢١.

٣- الأيام: فهناك من يتشاءم ببعض الأيام وينسب إليها النحس والشؤم، كمن يتشاءم بيوم الأربعاء، وذلك من تلاعب الشيطان بالجهال[١].

٤- وهناك من يتشاءم بالأعداد، كما تكره الرافضة لفظ العشرة، أو فعل شيء يكون فيه عشرة فلا يبنون بعشرة أعمد مثلًا، قال ابن تيمية وذلك لكونهم يبغضون خيار الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة[٢]. وكثيرٌ من الناس في الغرب يتشاءمون برقم ثلاثة عشر، وربما حذفته بعض شركات الطيران في ترقيم المقاعد[٣].

٥- التشاؤم في المركب والمسكن والمرأة.. وربما تعلق هؤلاء بقوله ﷺ: «**إن كان الشؤم ففي الدار والمرأة والفرس**»[٤].

وقد أجاب العلماءُ على هذا الحديث بأجوبةٍ عدة، ومن أجملها ما قاله ابن القيم: أن إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاث ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعيانًا منها مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤون ولا شر، والله خلق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعودًا مباركة يسعد بها من قاربها، ويخلق بعضها نحوسًا ينحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضاء الله وقدره .. والفرق بين النوعين مدركٌ بالحس فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لونٌ والطيرة لون.. اهـ[٥].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٣٨٠.
(٢) منهاج السنة ١/ ١٠.
(٣) عالم السحر والشعوذة، الأشقر ص٢٢٩.
(٤) الحديث متفق عليه (جامع الأصول ٧/ ٦٣١).
(٥) تيسير العزيز ص٣٧٧.

فإن قيل هذا جارٍ في كل مشؤوم فما وجهُ خصوصية هذه الثلاثة بالذكر؟ فجوابه: أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة فخصَّت بالذكر(١).

٦- الاستقسام بالأزلام، وهي القداح، كان الرجل في الجاهلية إذا أراد سفرًا أو زواجًا أو أمرًا مهمًا أدخل يده في وعاء يضع فيها القدح، فأخرج منه (زلمًا) فإن خرج الأمر مضى لشأنه وإن خرج النهي كف ولم يفعل(٢).

وذلك نوعٌ من التطير المنهي عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ﴾، وفي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يلج الدرجات العلى من تكهن، أو استقسم، أو رجع من سفرٍ تطيرًا**»(٣).

إخوة الإسلام: ومن الاستقسام بالأزلام في هذا العصر: ضربُ الرمل والودع(٤)، وفتح الكتاب والكوتشينة، وقراءة الفنجال، وكلُّ ما كان من هذا القبيل حرام منكر في الإسلام(٥).

إخوة الإيمان احذروا التطير والتشاؤم في أمور حياتكم كلِّها فإنه مفسدة للدين والدنيا، ولما لم يكن في ترك التطير إلا تحقيق التوحيد لكان هذا كافيًا، ودونكم هذا الحديث العظيم فتأملوه، واحرصوا على العمل به، أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حُصين بن عبد الرحمن قال: «كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٣٧٧.

(٢) النهاية ١/ ٣١١.

(٣) أخرجه الطبراني وجوَّد إسناده الألباني (الصحيحة ٢١٦١، وانظر: الطيرة والفأل؛ محمود الجاسم ص٣٢).

(٤) الودع: خرز بيض تخرج من البحر تتفاوت في الصغر والكبر، الواحدة منها (ودعة) مختصر الصحاح ص٧١٤، ولا أدري أهي المقصود بذلك أم لا؟.

(٥) الحلال والحرام ص٢٣٠، عن الطيرة والفأل؟ الجاسم ص٣٣.

رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلتُ: أنا، ثم قلت أما إني لم أكن في صلاة ولكن لُدغت، قال: فماذا صنعت؟ قلتُ: استرقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلتُ: حديثٌ حدثناه الشعبي فقال: وما حدثكم الشعبي؟ قلتُ: حدثنا عن بُريدة بن حصيب الأسلمي أنه قال: «**لا رقية إلا من عَيْنٍ أو حُمةٍ**» فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبيَّ ومعه الرهط (دون العشرة)، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيمٌ فظننت أنهم أمتي، فقيل لي هذا موسى ﷺ وقومُه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي هذه أمتُك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يُشركوا بالله، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما الذي تخوضون فيه؟**» فأخبروه، فقال: «**هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**» فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**سبقك بها عكاشة**»[(١)].

وهكذا يحققُ التوحيد من لا يتطيرون.. ويكونون ضمن من يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.. جعلنا الله منهم والمسلمين.

على أن شيخ الإسلام ابن تيميه يرحمه الله ضعَّف قوله في الحديث «لا

(١) صحيح مسلم ١/١٩٩، ٢٠٠ ح ٢٢٠.

يرقون» وقال إنها وهمٌ من الراوي ولم يقلها النبي ﷺ لأن الراقي محسنٌ إلى أخيه، وكذلك ضعفها تلميذه ابن القيم رحمهما الله، ومما يؤيد ذلك أنها لم ترد في رواية البخاري، بل ولا في الروايات الأخرى عند مسلم، وإنما الثابتة في الصحيحين «**لا يسترقون**» فقط والله أعلم[١].

أيها المؤمنون ويبقى بعد ذلك حديث عن دفع التطير، ووسائل الخلاص منه، وحديث عن الفألِ ومعناه وأثره في حياة المسلم، وهذه وتلك مجال الحديث في الجمعة القادمة بإذن الله.



(١) تيسير العزيز الحميد ص٨٤.

(٢) بين التطير والتفاؤل[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين من توكل عليه كفاه ومن لاذ به سلمه وعافاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلق كل شيء بقدر، لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله دعا الأمة إلى كل خير وحذَّرها من كل شر، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وآل بيته الطاهرين، ورضي عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

إخوة الإسلام، وسبق الحديث عن التطير والتشاؤم، وما فيهما من خلل في المعتقد والسلوك، دون أن يدفعا مكروهًا أو يجلبا محبوبًا.

ومن حق الذين سمعوا التحذير والنهي عن باب من أبواب الشرك وسلوك يُعّقد الحياة، ويشل حركة الأحياء، ويصيبهم بنوع من الإحباط والضيق.. من حق هؤلاء أن يسمعوا وسائل دفع التطير وكيف يتقون التشاؤم، ألا وإن من أعظم الأسباب التي يدفع بها التطير:

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٦/٦/١٤١٧هـ.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣٥.

١- التوكل على الله، قال أبو السعادات: يُقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان، أي: ألجأته واعتمدت عليه فيه، ووكل فلانٌ فلانًا إذا استكفأه أمره ثقةً بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسه، والتوكل المشروع فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات وأعلى مقامات التوحيد. . ، ولقد أمر الله به في غير آية، وأعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطًا في الإيمان والإسلام كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[(١)].

وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، والمتأمل يلحظ أن الله يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام وبين التوكل والهداية، فظهر أن التوكل أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوماته إلا على ساق التوكل[(٢)].

وكيف يتطير أو يتشاءم من يعي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[(٣)]، أي كافيه قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاءً من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته فقال: ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ولم يقل فله كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته

(١) سورة يونس، آية: ٨٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص٤٣٧-٤٣٩ باختصار.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٣.

السماوات والأرض وما فيهن لجعل له مخرجًا وكفاه ونصره[١].

يا أخا الإسلام، إذا انفتح عليك بابٌ للتطير والتشاؤم وأوغر الشيطان صدرك بالقلق والوساوس، فافتح على نفسك باب التوكل على الله ثقةً بما عنده، ورضًا بما يقسمه، واعتمادًا عليه في تفريج الكربات ومن توكل على الله كفاه.

٢- العلم بأن كل شيء يسير بقدر الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٣]. ومن حكم ذلك حتى لا يشتد فرح الإنسان لما آتاه الله فقد يكون فيه حتفه، ولا تذهب نفسه حسرات على ما فاته، فقد يكون فيه نجاته وهنا تنقطع مادة التطير ويحس المسلمُ بالطمأنينة والرضا، يقول عليه الصلاة والسلام: «**كلُّ شيء بقدر حتى العَجْزُ والكَيْسُ**» والمعنى أن كل شيء بتقدير الله في الأزل ولابد أن يقع ما قدره الله، والمرادُ بالعَجْزِ: التقصير فيما يجب فعله بالتسويف، وهو عامٌ في أمور الدنيا والدين[٤].

والكيس: هو النشاط والحذق، أو كمال العقل وشدة معرفة الأمور أو تمييز ما فيه الضر والنفع[٥]. وهذا الشعور بتقدير الله الأزلي لما يحدث في هذا الكون ينبغي أن يشعره بالرضا واليقين وأن يدفع عنه الطيرة والتشاؤم، دون أن

(١) المصدر السابق ص٤٤٢، ٤٤٣.

(٢) سورة القمر، آية: ٤٩.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٢.

(٤) النهاية ص٣/ ١٨٦.

(٥) الطيرة والفأل؟ الحاكم ص٨٣ والسنة إلى فيض القدير ٤/ ٢٢.

يقعدَ به عن فعل الأسباب المأمور بها شرعًا، فالعلم والتوكل شيء، والجهل والتواكل شيء آخر فليعلم.

٣- ومما يعين على دفع التطير -بإذن الله- أن يدافع ما يجدُ في نفسه من تطير أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك، والطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل**»[(١)]، والمعنى: وما منا إلا ويعتريه التطير، ولكن من وقع له ذلك وسلَّم لله، ولم يعبأ بالطيرة. فلا يؤاخذ بما عرض له[(٢)].

وعلى المسلم في سبيل علاج التطير ألا يتابع هذه الخطرات، ولا يستسلم للوساوس وألا تصده عما همَّ به، فقد جاء في صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله: كنا نتطير، قال: **ذاك شيءٌ يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم**»[(٣)].

٤- والاستخارة المشروعة يدفع الله بها وينفع، وهي من تمام التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، وهي خيرُ بديلٍ عن الطيرة والتشاؤم، والمراد بالاستخارة: طلب خير الأمرين لما احتاج إلى أحدهما[(٤)]، وهي مشروعةٌ في الأمور التي لا يدري العبدُ وجه الصواب فيها أما ما هو معروفٌ خيره كالعبادات وصنائع المعروف فلا حاجة لاستخارة فيها[(٥)].

عباد الله مع عظيم فضل الله علينا في هذه الاستخارة، وشدة حاجتنا إليها في

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن صحيح، وجعل آخره من كلام ابن مسعود (كتاب التوحيد، محمد بن عبد الوهاب ص٥٧).

(٢) الأشقر، السحر والشعوذة ص٣٠٠.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٧٤٨.

(٤) الفتح ١١/ ١٨٣، الجاسم ص٨٥.

(٥) التحفة ٢/ ٥٩٣ عن الجاسم، الطيرة والفأل ص٨٦.

كثير من أمورنا، فما أعظم تفريط بعض الخلق فيها، وزهدهم في دعائها، وهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: كان النبي ﷺ يعلِّمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «**إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر- ويسميه- خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال في عاجل أمري وآجله- فاقدره لي. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال في عاجل أمري وآجله- فاصرفه عني واصرفني عنه، وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به، ويسمي حاجته**»[(١)] قاله النووي يرحمه الله: وإذا استخار مضى بعدها لما ينشرح له صدره[(٢)].

٥- أيها المسلم والمسلمة، الدعاء بشكل عام عبادة مشروعة، ولا يرد القضاء إلا الدعاء- كما قال النبي ﷺ[(٣)] وهو طريق من طرق دفع التطير، كيف لا، وقد علَّمنا النبي ﷺ دعاءً ندعو به، لدفع التطير في المرأة، والدابة، والخادم، فقد روى البخاري في خلق أفعال العباد، والنسائي في عمل اليوم والليلة والبغوي في شرح السنة، وابن ماجه في سننه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والنووي في الأذكار وصححه، وجوَّد إسناده العراقي، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: **إذا تزوج أحدُكم امرأة: أو اشترى**

---

(١) رواه البخاري واللفظ له (الفتح ١١/ ١٨٣) ورواه غيره (الصحيح المسند من أذكار اليوم والليلة ص٢٦٧).

(٢) الأذكار ٣/ ٣٥٥.

(٣) في الحديث الحسن الذي رواه الترمذي والحاكم (صحيح الجامع ٦/ ٢٣٠).

خادمًا فليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه، وإذا اشترى بعيرًا فليأخذ بذروة سنامه وليقل مثل ذلك»[(١)].

٦- الانتقالُ من المكان الذي يظن أنه مشؤوم، وذلك لإبطال الوهم بالشؤم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجلٌ يا رسول الله إنا كنا في دار كثيرٌ فيها عددنا، كثيرةٌ فيها أموالنا، فتحولنا إلى دارٍ أخرى فقلَّ فيها عددُنا، وقلَّت فيها أموالنا، فقال رسول الله ﷺ: «**ذروها ذميمةً**»[(٢)]، قال ابن عبد البر: وعندي أنه إنما قاله خشية عليهم التزام الطيرة[(٣)].



(١) انظر: السحر والشعوذة، الأشقر ص٣١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢) وأبو داود، وغيرهم بإسناد حسن (السلسلة الصحيحة للألباني ٢/ ٤٣٣، الطيرة والفأل، الجاسم ص٨٧).

(٣) أوجز المسالك ١٥/ ١٩٥ عن الفأل والطيرة، الجاسم ص٨٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه.. اللهم صل وسلم عليه وعلى إخوانه من الأنبياء.

إخوة الإسلام يبقى بعد ذلك علاج عملي لدفع الطيرة والتشاؤم ألا وهو الفأل الحسن فحين نهى الشارع عن الطيرة والشؤم جعل الفأل البديل والعلاج، والسبب في ذلك أن الطيرة سوءُ ظن بالله تعالى، والفأل حسنُ ظن بالله، والمسلمُ مأمورٌ بحسن الظنِّ بربه، والفأل خلقٌ من أخلاق النبي ﷺ تمثله في حياته ودعى الناسَ إليه، وفي الحديث: كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة»[(١)]. والفأل هو الكلمة الحسنة يسمعُها الإنسان ويستبشر بها وكان ﷺ يعجبه الفأل، ففي الحديث المتفق على صحته عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل**»، قالوا: وما الفأل: قال: «**كلمة طيبة**»، وفي لفظ: «**الكلمة الحسنة**»[(٢)].

والمتأمل في سيرة الرسول ﷺ يجد فيها نماذج للفأل، والبعد عن التشاؤم والتطير، وعلى سبيل المثال لا الحصر قال عليه الصلاة والسلام عن جبل أُحد «**هذا جبلٌ يُحبنا ونحبه**»[(٣)]، ومن المعلوم أن وقعة أُحدٍ الشهيرة كانت عند هذا الجبل، وبها أصيب المسلمون كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[(٤)]، فقد انجلت المعركة عن

---

(١) أخرجه ابن ماجه وحسنه ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢١٤، ٢١٥.

(٢) انظر: جامع الأصول ٧/ ٦٣١.

(٣) رواه البخاري (الفتح ٧/ ٣٧٧، باب: أحد جبل - كتاب المغازي).

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٦٥.

سبعين شهيدًا من المسلمين[١]، ولم يسلم رسولُ الله ﷺ من أذى المشركين في هذه الغزوة إذ كُسرت رباعيته، وشُج في وجهه، وسال دمه، وكسرت البيضة على رأسه، كما ثبت ذلك في الأخبار الصحاح[٢]. ومع ذلك كلِّه فلم يتشاءم الرسول ﷺ أو يتطير من هذا المكان- بل قال حين رجع من الحج، أو حين عاد من تبوك وأشرف على المدينة «**هذا جبل يُحبنا ونُحبه**»[٣].

قال السهيلي يرحمه الله، كان ﷺ يحب الفأل الحسن والاسم الحسن ولا اسم أحسن من اسم مُشتق من «**الأحدية**» قال: ومع كونه مشتقًا من الأحدية، فحركات حروفه الرفع أُحُد، وذلك يشعر بارتفاع دين الأحد وعلوه، فتعلق الحب من النبي ﷺ به لفظًا ومعنى فخُصَّ من بين الجبال بذلك والله أعلم[٤].

إخوة الإسلام، قد يسأل سائلٌ عن الفرق بين الفأل والتطير عن السرِّ في استحباب الأول وتحريم الثاني، وقد أجاب عن ذلك ابن الأثير يرحمه الله[٥] فقال: الفألُ فيما يُرجي وقوعه من الخير، ويَحسُن ظاهره ويَسُر والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وإنما أحبَّ النبي ﷺ الفأل لأن الناس إذا أمَّلوا فائدة من الله ورجوا عائدته عند كلِّ سببٍ ضعيفٍ أو قوي، فهم على خير، وإن لم يدركوا ما أملوا فقد أصابوا في الرجاء من الله وطلب ما عنده، وفي الرجاء لهم خيرٌ مُعجَّل، ألا ترى أنهم إذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر؟

فأما الطيرة فإن فيها سوءَ الظنِّ، وقطعَ الرجاءِ، وتوقع البلاء، وقنوط النفسِ

(١) البخاري، ح ٤٠٤٣.

(٢) البخاري ومسلم، انظر: مهدي رزق الله ١/ ٣٩٠، ٣٩٧.

(٣) الفتح ٧/ ٣٧٨.

(٤) الفتح ٧/ ٣٧٨، وهو في الروض الأنف ٥/ ٤٤٩، ٤٥٠ أطول من هذا.

(٥) جامع الأصول ٧/ ٦٣١.

من الخير، وذلك مذموم بين العقلاء، منهي عنه من جهة الشرع. اهـ

ألا فتفاءلوا معاشر المسلمين وأملوا خيرًا وأحسنوا الظنَّ بربكم، وقدموا بين يدي هذا الفأل عملًا صالحًا تتقربون به إلى بارئكم، ومهما أظلمت الدنيا في وجوهكم أو حاول الشيطان أن يُقنِّطكم.. فثقوا أن فرجَ الله قريب، وأن مع العسر يسرًا، ولن يغلب عسرٌ يُسرين، وأن الله يبلو الناس بالشر والخير فتنة ليعلم الصابرين والشاكرين، وليميز الخبيث من الطيب.

وإذا اغترَّ بعض الخلق برحمات الخلق وأعطياتهم، انفرد المؤمنون بالتعلق برحمة الله ووثقوا بحسن عطائه فالله هو المعطي وهو المانع، والله يقول وهو أصدق القائلين: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، ويقول جل شأنه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

إخوة الإيمان بالفأل الحسن والعمل الصالح يُشرق وجهُ الحياة، وترفرف راياتُ السعادة على الأحياء، بهدف الفأل الصالح تنشرحُ الصدور، وتزول الكآبة عن النفوس، وبه ينجلي الضيق، وتنقشع سحبُ الوهم والتشاؤم، ويكون ذلك عونًا لحسنِ علاقة العبد مع ربه، وعلاقة الخلق مع بعضهم.. وكلُّ ذلك طرفٌ من هدي الإسلام، ولونٌ من ألوان خلق المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولذا فالمسلمون أحقُّ بهذا الفأل من غيرهم من شعوب الأمم الأخرى، فهل يفقه المسلمون دينهم، وهل يتجنبون مواطن الخلل في عقائدهم وسلوكياتهم ذلك المرتجى- والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل- هذا وصلوا...

(١) سورة فاطر، آية: ٢.

(٢) سورة يونس، آية: ٥٨.

فهرس خطب الجزء الثالث



فهرس خطب
الجزء الرابع

